

مَشْرِقُ الْمَنَنِ السَّيِّدَةِ

(٣)



مواقف قيادية
من السيرة النبوية
الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م

شذا من السيرة (٣)

مواقف قيادية من السيرة النبوية

إعداد :

أحمد بن مهني مصلح
عاشور بن يوسف كسكاس
ميلاد بن مهني بن حريز

المقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وقائد الجند المظفرين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحابه الكرام المجاهدين .

وبعد :

إن الحديث عن حياة النبي الكريم ﷺ معلماً ومربياً، وداعية وموجهاً وقائداً ناجحاً ليحلوا لكل مؤمن ومؤمنة، لأنه عليه الصلاة والسلام القدوة الحسنة والأسوة النموذجية الناصعة لكل مسلم في كافة مجالات الحياة ومختلف ميادينها .

وإننا إذ نجد كتاباً كثيرين تناولوا حياته عليه السلام بالدراسة والبحث، وتتبعوا كافة جوانبها وأبرزوا من خلالها سماته الشخصية القيادية الرائدة ، حاولنا أن ندلي بدلونا في خوض غمار هذا العمل ونُسهم بالقدر الذي يمكننا من إثرائه ليكون منهجاً ناصعاً بين أيدي المسلمين، ينهلون من معينه، ويغترفون من منبعه . لم لا ؟ وحياة الرسول ﷺ المرآة التي يجب على كل مسلم أن يرى نفسه من خلالها .

وهذا الكتاب «القيادة» الذي نقدمه بين أيدي القراء الكرام يأتي مساهمة منا في المجهودات المبذولة التي تهدف إلى تقديم سيرة الرسول ﷺ للناشئة المسلمة نموذجاً للاقتداء ونبراساً للاهتمام .

وقد ركّزنا في هذا الكتاب على تتبع المواقف القيادية للرسول ﷺ ، وخاصة في غزواته التي قادها بنفسه، وكان المخطط الرئيسي لها، أو السرايا التي أمر بإنفاذها .

وحاولنا قدر الامكان بالالتزام بالتسلسل الزمني في عرض هذه المواقف القيادية، والأعمال العسكرية، والمفاوضات السلمية دون تفصيل لأحداثها معولّين في ذلك على إحاطة القارئ الكريم بها واستيعابه لها .

والكتاب يشمل عدة وحدات، وهي كالآتي :

*** مفهوم القيادة :**

وقد قصدنا من هذه الوحدة تعريف القيادة، وبيان مواصفات القائد الناجح في مختلف ميادين الحياة، بدءًا بالحياة الخاصة وانتهاء بقيادة الأمة سياسيا وعسكريا .

وكان القصد من ذلك إبراز حكمة الرسول ﷺ في إدارة مختلف جوانب الحياة منذ المرحلة الأولى .

فهو فرد في مجتمعه يؤثر فيه ويتأثر به، وهو الزوج الناجح في بيته وأسرته، والأب المربي لأبنائه والعنصر الفاعل في مجتمعه .

*** السرايا :**

وهي منهج عسكري بارز في حياة الرسول ﷺ القيادية بحيث لم تخرج سرية قط إلا بأمره، ولم تتحرك إلا بتوجيهاته . وقد بلغت السرايا من العدد في فترة قصيرة ما يجعلها ميزة له عليه السلام في منهجه العسكري . وقد جاءت مكثفة في زمن قصير لتبسط الطريق أمام الغزوات الكبرى والفتوحات الباهرة .

وفي هذه الوحدة تم التركيز على تتبع الأوامر والتوجيهات التي أصدرها الرسول القائد ﷺ إلى أمراء السرايا . كما أبرزنا دقة هذه الأوامر والتزام أصحابه الكرام بها . وهذا يعكس في حد ذاته نجاح القائد في ميدان

القيادة، وطعمنا هذه الوحدة بجدول للسرايا التي أمر بها الرسول القائد عليه السلام .

* الغزوات :

وهو أهم عنصر في الكتاب ، وقد أفردنا لكل غزوة بحثاً مفصلاً تناولنا فيه أهم المواقف القيادية والأوامر القولية منها والعملية الصادرة من الرسول القائد عليه السلام .

وتوقفنا عند أهم القضايا التي تعترض الرسول القائد عليه السلام أثناء المعركة أو قبلها أو بعدها، وأبرزنا ما يتحلى به من قدرة فائقة على معالجتها بحكمة بالغة والخروج منها بسلام .

* علاقة الرسول القائد باليهود :

وفي حديثنا عن غزوة خيبر باعتبارها أهم الغزوات التي خاضها الرسول القائد عليه السلام ضد اليهود، لم نغفل عن إبراز أهم ما يتعلق بهم من مواقف عدائية حاكمة، ودسائس خطيرة، وحركات خبيثة نشطة ضد معسكر المسلمين، وبيان منهج الرسول القائد في تعامله مع هذه الأحداث الجسام ضد اليهود أشد الأعداء مكرراً وتآمراً ونقضاً للعهود .

كما استعرضنا مواقفه عليه السلام من المنافقين، وكيف واجه أعمالهم العدائية ضده، وكيف أقنع أصحابه الكرام بالتزام منهجه .

وبيننا قدرته الفائقة - عليه السلام - على معالجة الفتن الخطيرة التي يشعلها أولئك الأقوام، فكان يجد لكل حادثة حلاً ، ولكل معضلة علاجاً بالرأي السديد والحكمة البالغة والنظرة البعيدة الواعية .

نسأل الله تعالى أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفعنا به
وينفع به المسلمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين .
والحمد لله رب العالمين

المؤلفون

بسم الله الرحمن الرحيم

مفهوم القيادة في الاسلام :

— القيادة لفظة

قاد - يقود قيادة .

والقائد ، واحد القواد والقادة^(١)

— القيادة : هي الأعمال التي يضطلع بها القائم بأمر الجماعة ، والقائد ، هو من كان على رأس الجماعة ، يقودها إلى أهدافها المرسومة لها ، تأتمر بأمره ، وتنتهي بنهيه ، وترجع إليه في عظام الأمور .

وقد بين الرسول ﷺ أن القائد هو الذي يتحمل مسؤولية رعاية جماعته أو رعيته ، فقال عليه السلام : «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»
أي يحمل في نفسه همومها ، ويقودها نحو تحقيق آمالها وتطلعاتها .

— والقائد في الميدان العسكري ، هو أمير الجند يسير بهم إلى هدف محدد ، خاضعين لنظام معين ، وهو رجل العقيدة الذي يحمل في نفسه مبادئ الحق ، ليكون قائداً فعلياً لجنده ، يلتزم بها قبل أن يأمرهم بها ، وهذا يكون قدوة لهم ينفذون أوامره ، ويكون موضع ثقتهم في السراء والضراء .

والقائد الذي لا عقيدة له ولا التزام له بالمبادئ التي يدعو إليها جنده قائد فاشل لا يمكن أن ينتصر في الحرب ولا يمكن أن ينجح في السلام .

وأهم تعريف للقيادة أنها الإدارة العسكرية التي تملك القدرة على ضبط الجنود ، وتوجيههم نحو هدف معين بطريقة تضمن بها طاعتهم وثقتهم واحترامهم وولاءهم وتعاونهم .

(١) ابن منظور - لسان العرب - دار مدارج ٣ ص ٢٧٠ .

ضرورة القيادة للأمة المسلمة :

القيادة ضرورية للأمة ، إذ بها يسود النظام ، منها يأخذ الأفراد الأوامر وبنصائحها يسترشدون وبارائها وتوجيهاتها يلتزمون .

وقد دلت السنة الشريفة على وجوب القيادة في مناسبات عدة حيث أمر الرسول ﷺ المسلمين بأن يؤمروا عليهم من يرون فيه الصلاح والقدرة على تحمل المسؤولية .

قال عليه السلام فيما رواه أبو سعيد الخدري :
{ إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم }^(١) .

وقال عليه السلام فيما رواه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما :
{ لا يحل لثلاثة يكونون بأرض فلاة إلا أمروا عليهم أحدهم }^(٢) .
ومعلوم هنا من نصي الحديث أن الإمارة تعني القيادة .

وإذا كان تعيين القائد واجبا في النفر القليل ، فهو في الجماعة أوجب .
يقول الشوكاني في تعليقه على هذين الحديثين :

« وفيهما دليل على أنه يشرع لكل عدد بلغ ثلاثة فصاعداً أن يؤمروا عليهم أحداً لأن في ذلك السلامة من الخلاف الذي يؤدي إلى التلف ، فمع عدم التأخير يستبد كل واحد برأيه ويفعل ما يطابق هواه فيهلكون . . ومع التأخير يقل الخلاف وتجتمع الكلمة . وإذا شرع هذا لثلاثة يكونون في فلاة من الأرض أو يسافرون فتشيعه لعدد أكثر يسكنون الأرض والأمصار ، ويحتاجون لدفع التظالم وفصل الخصام أولى وأحرى^(٣) .

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ١٧٧/٢

(٣) نيل الأوطار ٢١٣/٨

وكذلك فإن السنة العملية تؤكد وجوب القيادة، وبتتبع غزوات الرسول ﷺ نجد أنه عليه السلام كان ولي أمر المسلمين وأميرهم، وإمامهم وقائد جندهم، كان عليه السلام يقود المعركة ويتقدم جنده في القتال، يعين الأمراء على السرايا ويعين الحاملين للرايات، وهذا دليل عملي على ضرورة القيادة لتستقيم أمور الجند وليضمن نجاحه في القتال والنصر على الأعداء .

ولضرورة القيادة للأمة فلا بد من شروط لها نلخصها فيما يلي :

١ - معرفة القائد نفسه : وذلك بأن يكون واثقا من قدراته القيادية، عارفا بنقاط ضعفه ونقصه .

٢ - أن يكون على قدر جيد من العلم بالشريعة وبمختلف المعارف، عاملا بالمبادئ التي يدعو جنده وأتباعه إليها .

٣ - أن يكون ملماً بنواحي عمله عارفا حدود مسؤولياته . فقد كان عليه الصلاة والسلام، وهو القائد الأعلى للأمة في سلمها وحرها، المربي والموجه والمرشد، كما كان عليه السلام يعرف أصحابه معرفة دقيقة ومفصلة، ويعرف ما يمتاز به كل واحد منهم من مزايا فيضعه في مكانه المناسب .

فقد روي عنه عليه الصلاة والسلام قوله : «إني لأؤمّر الرجل على القوم فيهم من هو خير منه لأنه أيقظ عينا وأبصر بالحرب»^(١) .

كما روي أنه عليه السلام بعث عمرو بن العاص على رأس سرية فيها أبو بكر وعمر .

ولا غرابة فيمن يتصف بكل صفات القيادة العالية أن يكون حاكما على الناس، فقد كان عليه السلام سياسيا ورئيس دولة ومسؤولا عن المجتمع .

وقد أسس عليه الصلاة والسلام دولته في المدينة على أسس قوية وبخبرة فائقة، كان يرأسها بنفسه، ويصدر الأوامر، ويعلن النفي العام عندما تقتضي الأمور ذلك .

وهكذا فقد ذكر العلماء شروطا عديدة للقائد المسلم الناجح منها :
الدراية بالحرب وفنونها ومعرفة معداتها وأساليبها، وصلابة القائد وثبات جنانه عند المفاجآت، وأن يكون القائد على قدر كبير من الحزم، يتحرى الأمور ولا يندفع وراء الظنون، وأن يكون واثقا من نفسه ومن مقدرته فلا يخشى ملاقات الأعداء، متصلا دوما بجنده موجها لهم وناصحا، رحيفا بهم عطوفا، سامعا لشكواهم عاملا بأرائهم إن كانت صوابا، عادلا مع أعدائه، وفيا لعهدده معهم مقسطا .

مواصفات القائد

اختار الله رسوله محمدا ﷺ ليؤدي أعظم رسالة للبشرية فأعده وهياً وهبه من الصفات الواجبة للقائد والسمات اللازمة ما يجعله قادراً على أداء القيادة وتملك زمام الأمة وتوجيهها نحو الهدف السامي . وتعتبر القيادة موضع التنظيم ومركز التوجيه وأساس ترتيب الأمور . فكما أن للجسم البشري مركز قيادة واحداً هو الدماغ الذي يصدر الأوامر والتعليمات إلى أعضاء البدن كافة كذلك فإن الجماعة البشرية لا بد لها من قائد واحد يضبط سيرها ويوجه حركتها حتى لا يختل التوازن، وقد كان محمد ﷺ المثل الكامل للقيادة الشاملة .

إن القائد المثالي يمتاز بمجموعة من الصفات الفذة ولكن قل أن تجتمع كل المواصفات في قائد واحد، إلا أن جميع مواصفات القيادة اجتمعت في النبي عليه السلام، فقد حباه الله صفات خلقية مناسبة كاعتدال الجسم واتساع الخطو وقوة المشي وخلقية تؤهله ليكون خير قائد من شجاعة وصمود وجراءة وحزم وثبات وبعد نظر وتواضع وقدرة على المواجهة .

إن الشخصية القيادية فطرة يصقلها التدريب والعلم ولكن هناك أشخاص خلقوا ليكونوا قادة منحهم الله مزايا تؤهلهم للقيادة الفذة وأولهم محمد ﷺ . لقد كان قادراً على قيادة جنده المؤمن الراغب في النصر أو الشهادة، لم ترهبه كثرة ولم تخفه قوة، واجه أعداءه بشجاعة نادرة، لقد كان الرأس المفكر واللسان الناطق والعقل المدبر والمخطط لمجريات المعارك، يستشير ويناقش ويصدر القرار المناسب، ينظم العمل ويحدد الهدف ويبين الوسيلة ويتابع التنفيذ، يرجع إليه في الملهمات وتتجمع عنده المعلومات، ويستعين بالكفاءات المتخصصة ويصدر التعليمات اللازمة دون ترفع .

إن الله هو الذي اصطفى رسوله وعلمه فن القيادة، قال عز وجل :

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾

(النساء/ ١١٣)

فلم يدخل محمد ﷺ معهدا عسكريا ولا تتلمذ على يد قائد، بل على يديه صلى الله عليه وسلم نشأت المدرسة العسكرية الاسلامية وتعلم أصحابه أن القيادة أمانة ورسالة ومسؤولية ورأوا في أخلاق رسول الله وتصرفاته شروطا لازمة لكل من تولى مسؤولية قيادية .

ومن أهم مواصفات القائد في الاسلام :

* اللياقة البدنية :

أشار القرآن الكريم إلى اللياقة البدنية التي اختار الله على أساسها طالوت ملكا . قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾

(البقرة/ ٢٤١)

وكذا كانت عنايته بالرسول القائد، فقد كان في حروبه يقطع المسافات البعيدة على الأقدام، ليلقي العدو ويقارعه بالسيف أياما وهو في المقدمة .

وكل ذلك يقتضي استعدادا بدنيا عاليا وكان صلى الله عليه وسلم ملجأ أصحابه عندما يعجزهم أمر كما في حفر الخندق فقد كان يفتت الصخور التي يعجز عنها أصحابه، ومن أدلة قوته البدنية صلى الله عليه وسلم أنه هزم ركابة المصارع المشهور بمكة .

* الشجاعة والثبات :

يتحلى القائد بالشجاعة والاقدام ويكون جريئا في اقتحام الحرب لا يهاب الموت وتتمثل شجاعة الرسول في قبوله بمواجهة كفار قريش في بدر وهو يعلم

عدد العدو وخطورة الهزيمة في القضاء على مستقبل الاسلام . كما تبرز شجاعته النادرة في ثباته أمام عشرة آلاف من الكفار في غزوة الخندق خاصة بعد نكث اليهود عهدهم ، وقد شهد الأبطال من أصحابه بشجاعته ، قال علي - كرم الله وجهه - «إنا كنا إذا اشتد الخطب واحمرت الحديق اتقينا برسول الله فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه» .

إن الشجاعة سبب في ثبات القائد ووسيلة لنيل النصر فالقائد يثبت عند الهرب ويتقدم عند الطلب وينتظر من الله المدد ، أما القيادة الجبابة فإنها تؤثر سلبا على جندها فيضطرب الصف وتقع الهزيمة ؛ لذلك يحتاج القائد إلى عزيمة صادقة وإرادة قوية ترفع معنويات جنده وتدفعهم إلى الالتفاف حوله فلا ينهارون وتكسبهم إقبالا وثباتا .

لقد كان عليه السلام أول المبادرين إلى استجلاء الخبر حين يحدث حدث ، قال أنس : «فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعا وقد سبقهم إلى الصوت وهو يقول : لم تراعوا لم تراعوا» .

إن الجندي يحتاج إلى قدوة تضحى أمامه بنفسها ومالها وأقاربها ليتبعها فالقائد يتقدم بنفسه وبأقاربه الصفوف ، فقد قدم رسول الله ﷺ في غزوة بدر عمه حمزة وابن عمه علي وابن عمه عبيدة ، لم يضمن بهم عن الموت ، كما كان ثابتا في أحلك ساعات القتال ويتمكن بشجاعته من جمع أتباعه بعد الحركة المفاجئة والمشتتة لجنده فيلتفون حوله دون جزع رغم رؤيتهم لمصارع الجند استمدادا من ثباته ولو تراجع لتراجعوا .

إن القائد المحنك في الحرب يتعامل مع العدو بحكمة فلا ينخدع ولا يستدرج ولا يتهور ولا يجبن ، بل يحذر ويواجه ويتحمل ويتمالك نفسه ولا يضعف بل يحول الهزيمة إلى مطاردة للعدو كما في أحد وحنين ، لا يغتر بتحقيق النصر بل يثبت على سموه النفسي النبيل ، ففي فتح مكة لم يدفع

النصر رسول الله ﷺ إلى الانتقام ممن أخرجوه، ولم يجد الغرور بالفتح إلى نفسه سبيلا بل دخلها متواضعا وقابل نعمة الفتح بنعمة الشكر لله، ثابتا على الحق .

* قوة الارادة وقوة الشخصية :

يمتاز الرسول ﷺ بهذه الصفة الضرورية لكل قائد عسكري ؛ لأنه قدوة لجنده وموجه لهم وأمر ومرشد، يجب عليهم طاعته، فإن كان ضعيفا مترددا لم تتحقق طاعة ولا قدوة. وتتجلى عظمة شخصية القائد في رغبته في إسعاد البشرية بجهاده ودعوته، كما تتمثل قوة إرادته في عدم التنازل عن دعوته فقد واجه الرسول القائد أحداثا جساما مزلزلة، لكن قوة إرادته جعلت كل المحاولات لجره إلى ترك جهاده ودعوته تبوء بالفشل الذريع فقد صدع بقوله لعنه «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه» فأحبط بهذا التصميم كل محاولة لثنيه عن تبليغ دعوته والجهاد في سبيلها، بل ولم تؤثر في عزيمته تهديدات بالقتل ولا وعود وإغراءات فأصر على المضي في جهاده بعزيمة ثابتة وإرادة صلبة ورجاحة عقل وحسن سياسة. لقد كان عليه السلام مثالا يحتذى في مضاء العزيمة وتنفيذ ما قرر مهما كانت العقبات التي تواجهه .

فلما استشار أصحابه في غزوة أحد هل يخرج لقتال قريش أم يتحصن بالمدينة أشار عليه جمهور أصحابه بالخروج حتى لا يتهمهم الكفار بالجنون عن ملاقاتهم، بينما كان رأي النبي القائد مخالفا، فقرر العمل برأي أصحابه فدخل وتجهز للحرب، وغير أصحابه رأيهم وقالوا : «استكرهناك على الخروج ولم يكن لنا ذلك فإن شئت فاقعد» فقال عليه السلام : «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته (عدة الحرب) أن يضعها حتى يقاتل» .

وفي غزوة الخندق صمم القائد على إنجاز حفر الخندق قبل موعد قدوم الأحزاب ورغم أن طوله كان خمسة آلاف ذراع (٢٣١٠م) وعرضه تسعة أذرع

وعمقه سبعة أذرع ، والظروف الطبيعية سيئة : البرد قارس والرياح شديدة
والعام عام مجاعة ، والمنافقون يثبطون ، لكنه بقوة إرادته تمكن من حفر الخندق
وأنجزه في شهر وقبل وصول العدو بثلاثة أيام .

وقد ربي النبي أصحابه على مضاء العزيمة ، فصمم عبدالله بن أم مكتوم
وهو أعمى أن يشارك في غزوة أحد ، وأن يعطى اللواء ، كما حمل مصعب بن
عمير اللواء في أحد وظل مصمما على حمله حيث ضربه العدو فقطع يمينه
فأمسك باليسرى فقطعت فأمسك بصدرة وهو يتلو قوله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ

إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ
أَنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ
اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾

(سورة آل عمران / ١٤٤)

* بُعد النظر :

وهي صفة أرقى من الذكاء إذ لا تنحصر في الحادثة الآنية بل تتعداها
لتدرس عواقبها ونتائجها على مدى بعيد . فقد كان الرسول القائد يفكر عند
كل مواجهة في كل الاحتمالات القريبة والبعيدة ويضع في حسبانها أخطرها
ويعد الخطط المناسبة لكل موقف لتطبيقه عند الحاجة إليه دون تأخير أو
تردد . ويتضح بعد نظره صلى الله عليه وسلم خاصة في المسائل المتعلقة
بالمصلحة الآجلة فإن فكره الثاقب يقدر رجحان المصلحة في الأخير فيوافق
منذ البداية ويصر على الأمر رغم ما يبدو لأول وهلة من تقديم تنازلات وقبول
بالضيم .

إن الشروط التي وضعتها قريش في صلح الحديبية مجحفة في نظر عقلاء
أصحابه لكنه قبل بها وأدرك ببعد نظره أن فيها النصر للمسلمين ورأى أن

قريشا تحفر قبرها بيدها بوضع تلك الشروط وتكتب دمارها بقلمها .

لقد علم أن الهدنة تؤمن الاستقرار فيمكنه أثناء مدة الصلح أن يضاعف نشاطه الدبلوماسي ويربط علاقات مع القبائل قصد الاعتراف بدولته الإسلامية، كما أن الهدنة سبب لزيادة عدد المسلمين وقد تحقق ذلك فعلا فدخل في الاسلام أثناء سنتي الصلح مثل من كان في الاسلام أو أكثر، كما رأى القائد في الهدنة كسرا للطوق الذي ضربته عليه قريش بتحالفها مع خيبر فاستطاع أن يتفرغ ليهود خيبر فيجهز عليهم بالضربة القاضية .

ورأى فيها إثارة للرأي العام العربي ضد قريش التي تصد عن بيت الله الحرام من جاء معظما له فينقم العرب على قريش الظالمة الصادة .

ومن أمثلة بعد نظره صلى الله عليه وسلم رفقه برأس المنافقين يوم بني قينقاع ويوم بني النضير ويوم بني المصطلق حتى انكشف نفاقه وظهرت عداوته، لم يضرب عنقه ولا سمح بذلك لمن طلب منه، فلما افتضح أصبح قومه كلما أساء عاتبوه وعنفوه فقال القائد لعمر بن الخطاب : «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي لارتعدت له أنف . . لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» فقال عمر : «والله قد علمت أن أمر رسول الله أعظم بركة من أمري» .

* الحزم واتخاذ القرار الصائب :

القيادة بحاجة إلى الحزم واتخاذ القرار الحاسم والسرعة فيه مع تحري الصواب عند اتخاذه، وهو ما نجح فيه الرسول القائد في مواضع كثيرة . . لقد كان قادرا على البت في الأمور السريعة وإصدار الأوامر والقرارات بقوة ووضوح وإلزام الجند بها. إن القائد الحازم كالتاجر الحكيم لا يبذل ماله إلا فيما يعود عليه بالنفع فإن رأى ربحا اتجر وإلا حفظ رأس ماله ولا يطلب الغنيمة حتى يحرز السلامة .

ولابد للقائد من إصدار القرارات لبناء خطته العسكرية وذلك يتطلب

الحصول على معلومات عن العدو وأرض المعركة كما يقتضي معرفة صفات جنده وجدارتهم . . وقد كان الرسول القائد يمتاز بعقلية راجحة ومنطق سليم واستطاع أن يعرف عن عدوه كل المعلومات المهمة بالاستطلاع والإرصاد واستنطاق الأسرى ودوريات المراقبة واستشارة ذوي الرأي والخبرة ، وقد تمكن صلى الله عليه وسلم بحزمه ويقظته لكل حركة من حوله أن يصدر القرار الصحيح السريع ويحقق أبعد حدود النجاح ووفق في استعمال جنده في الموضع المناسب . . فقد عاد الجيش من أحد منهاكا فاتخذ الرسول قراره السريع باللاحاق بالعدو المنتصر وهو يعلم حالة جنده وأرسل من يخوف قريش ويخذلها فلحق الجيش بالعدو فيما أن سمعوا بمقدمه حتى فروا من وجهه وكان القرار في غاية الصواب إذ أفسد على المشركين انتصارهم وحوله إلى انسحاب وهزيمة .

كما أذب بني قريظة بمجرد عودته من الخندق فاجأهم وهجم عليهم وحاصرهم حتى نزلوا على حكمه وكان القرار السريع صائبا وحاسما .

لقد نجح الرسول القائد في مواجهة المشاكل فلم يهرب منها بل فكر في حلها ولم يهملها حتى لا تؤدي إلى التنازع والفشل . كان حريصا على حل المشاكل الداخلية التي تبدد الجهود وتوهن القوة فيسارع إلى حسمها بقرار مناسب . أما مع العدو فقد كان حازما مع الغادر لا يسوف ولا يلين ولا يصبر على لئيم يخلف وعدا وينقض عهدا . . لما خان اليهود العهد لجأ القائد معهم إلى الحزم والاجلاء ، فقد حكم سعد بن معاذ في بني قريظة فجاء حكمه صائبا وحاسما بأن يقتل المقاتلون وتسبى الذراري وتقسم الأموال وأمر الرسول القائد بالتنفيذ وأثنى على سعد الذي تعلم من قائده الحزم واتخاذ القرار المناسب ، والذي قال : «لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم» .

*** الشورى :**

رغم أن محمدا صلى الله عليه وسلم مؤيد بالوحي ويمتاز ببعد النظر

ورجاحة العقل لكنه كان لا يستبد برأيه ، بل كلما حزب أمر جمع المسلمين في مقر القيادة - وهو المسجد - واستشارهم في القرار العسكري المناسب لأنه مصري تتعلق به مصلحة الأمة وتتأثر به هيبة الدولة .

لقد كان يلتزم الشورى مع أصحابه في تحديد مقر القيادة الميداني والمؤقت لتحسينه والاستفادة منه ، وكان يرشد المقاتلين إلى آداب الجهاد ويدرس معهم بعض الخطط ويتذاكر معهم عوامل النصر وأخبار العدو . لقد كان القائد صلى الله عليه وسلم ملتزماً الشورى في كل حين فقد أخذ برأي الحباب بن المنذر في اختيار المكان في غزوة بدر وحرص على معرفة رأي الأنصار في الخروج للغزوة وكان يردد : «أشيروا علي أيها الناس» . كما أخذ برأي أصحابه في مغادرة المدينة في أحد .

* التواضع :

كان الرسول القائد صلى الله عليه وسلم يختلط مع جنده ولا يتميز عليهم في برج عاجي يطل عليهم من خلاله ويتركهم يعانون الجوع والحرمان والعطش والبرد بل كان معهم يمشي إذا مشوا ويحفر إذا حفروا ويركب إذا ركبوا . . عن ابن مسعود قال : «كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير ، كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ ، فقالا : نحن نمشي عنك . فقال صلى الله عليه وسلم بتواضع وأدب : «ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر عنكما» .

كان القائد يسهر والجند نيام ، يدعو ويستنصر ويضع الخطط ويشارك جنده النصب فينقل التراب ويحطم الصخر ويقاوم البرد والريح والجوع ولا يتميز بطعام أو شراب .

ويتجلى تواضعه بعد انتصاراته فلا يزهو ولا يغتر ولا يتكبر بل يحرص أن يتقبل الله جهاده ويدخل مكة مطأطأ الرأس تذللًا لله ولا يتحدث عن نفسه وشجاعته بل يرجع الفضل لربه «لا إله إلا الله وحده نصر عبده وأعز جنده

وهزم الأحزاب وحده» .

* الحنكة العسكرية : (بتوظيف الاستعدادات ومعرفة النفسيات)

كان الرسول القائد ملما بمبادئ الحرب مطبقا لها فهو عليه السلام يحدد هدفه في كل معركة وهو : تحطيم إرادة العدو للقتال بالخط من معنوياته قبل أن يعمد إلى قتالهم فإذا لزم الأمر التعرض للعدو فإنه يهاجمه ليسحقه فتكون له المبادرة بالسيطرة على الموقف ورفع المعنويات . وقد اعتمد المباغته في وقت لا يقدر بصورة لا يتوقعها العدو وبأسلوب يجهله بحيث يحدث ذلك شللا في التفكير لدى العدو ويؤثر على نفسية جنوده فيصابوا بالهزيمة ، فقد بعث القائد نعيم بن مسعود ليخذل ويشتت الأحزاب وأثمر هذا التوظيف هزيمة الأحزاب .

ومن حنكته صلى الله عليه وسلم أن يحشد أكبر قوة ممكنة مع الاقتصاد في المجهود والتصرف الحكيم بجميع الطاقات . لقد كان عارفا باستعدادات كل جندي وخبيرا بنفسياتهم فيضع الرجل المناسب في الموضع المناسب : من عرف بالشجاعة أسند إليه العمل المتطلب لذلك مثل إعطاء السيف لأبي دجانة ، ومن برع في الشعر استفاد منه في الدفاع عن الله ورسوله «اهجوا قريشا فإنه أشد عليها من رشق بالنبل» . ومن عرف بحسن الرأي استشاره وأخذ بمشورته ، ومن عرف بطغيان حب المال عليه مع حداثة إسلامه ألف قلبه بغنيمة ، ومن وثق في إيمانه لم يعطه لمعرفته بنفسياتهم ، من أظهر من الشباب استعدادا للجهاد شجعه . . يوظف كل طاقة لخدمة رسالته وتوهين عدوه ، ويستغل كل فرصة لفضح قريش ، ففي يوم الحديبية أعلن القائد أنه يريد العمرة واستصحب المسلم والمشرک وساق الهدي ، فلما منعه قريش شنَّ عليها حربا إعلامية بأنها تصد من جاء يعظم البيت ، وآتت الحملة أكلها وكادت تسبب حربا أهلية بين الأحابيش وقريش بمكة . كما استطاع بإهدار دماء الشعراء : كعب بن الأشرف ، وأبي عتيك ، وعصماء بنت مروان أن يبطل إعلام العدو .

* انتهاج أسلوب الهجوم وتحديد الهدف :

اعتمد الرسول القائد الهجوم حتى يهرب عدوه فلا يطمع فيه وكى لا يتحمل أضرار الحرب الدفاعية وخسائرها . . وقد اختار الهجوم المبكر بحيث لا يترك للعدو فرصة استكمال تشكيله واستعداداته، فكان يحرص على مباغتته في المكان والزمان وأسلوب القتال، وذلك بنصب الكمائن على طريق مرور قافلة التجارة أو الجيش، وبالسير ليلاً والاختفاء نهاراً واستغلال الليل للاقتراب من العدو ثم الانقضاض عليه عند الفجر كما فعل القائد في خيبر، وبتنوع أساليب القتال التي لم يتعودها العدو مثل : قتال الصف، الخندق، الهجوم على محاور كما في فتح مكة، واستخدام سلاح جديد كالمنجنيق (في غزوة الطائف) وتضليل العدو وإرباكه وعدم تمكينه من اتخاذ قرار صحيح فالحرب خدعة، ومثل التورية عن الوجهة أو إيهام العدو بأن حليفه غدر والأمر ليس كذلك .

كما اعتمد الرسول القائد الهجوم الصاعق والحرب الخاطفة وإحداث الصدمة الأولى للقضاء على عزائم العدو . لقد كان يخطط لكل المعارك المصيرية ويحدد صلى الله عليه وسلم أهدافه بدقة ووضوح، ولا ينشغل عن تحقيق أي هدف بمعركة جانبية بل يتحرك نحو أهدافه بخطى ثابتة .

فقد وضع أول هدف عسكري له : القضاء على اليهود في جزيرة العرب ككيان سياسي وقوة عسكرية، ورغم ما فرض على رسول الله من معارك جانبية من اليهود والمشركين فلم يتحول عن هدفه وجعل يصفى في كل سنة جماعة وبعد اختيار الهدف بدقة كان يتدرج في التنفيذ بالمناورة، ففي قتال الحصون كان يشغلها جميعاً بقوات صغيرة ويركز هجموه على حصن واحد حتى يسقط فينتقل إلى غيره، أو بتشتيت قوات العدو أثناء الهجوم بتوزيع قواته على جبهات كما في خيبر أو فتح مكة .

* المحافظة على الأسرار والثقة المتبادلة مع الجند :

سخاء الرسول القائد حبه إلى جنده وجعل بينه وبينهم تآلفا وتعاوناً كبيرين ، فالقائد يبذل ماله بسخاء نفس ويواسي أتباعه ويحسن إليهم فيبادله جنده المحبة والثقة ويتحقق مصلحة الجيش وينتصر على عدوه ولو كان متفوقاً عدداً وعدة . وقد كان حريصاً على إخفاء أسرار المسلمين وحركة جيشه عن العدو وكان يأمر قادته بعدم إفشائها وكنتم أخباره عمن لا تلزمه من صديق أو عدو . واستعمل التورية في الحديث وفي الحركة وفي أغلب غزواته كان يوري بوجهته إلى مكان ويقصد غيره تفويتاً على الأعداء .

* معاقبة المعتدي :

إن القائد الناجح لا يترك أي اعتداء يمر دون أن يعاقب المعتدي ، فالسكوت عن العدوان دون انتقام دليل ضعف واستكانة . . فقد أرسل الرسول القائد ﷺ إلى قبيلتي عضل والقارة اللتين غدرتا بأصحابه قوة تغزوهم في بني لحيان ، كما انتقم من العرنين الذين غدروا بمولاه كرز بن جابر فلحقهم وأتى بهم إلى القائد فسلم أعينهم ، وكذلك فعل ببني قريظة لما غدروا وتحالفوا مع الأحزاب .

* إعداد القياديين :

إن أفضل مقياس لمعرفة مدى نجاح القائد وجدارته هو ما قدمه وأعدده من كفاءات لتولي القيادة من بعده ، فمن أسمى مهام القيادة إعداد الرجال ليكونوا قادة يتعهدهم بالتدريب والتوجيه ويفوض إليهم بعض الصلاحيات ويكلفهم في غيابه ، فليس القائد الذي يركز الأمور في يده ، بل الذي يخرج الاطارات ويفجر الطاقات . لقد عني الرسول ﷺ بالتدريب على القتال واستعمال الأسلحة ، وربى أصحابه على الرماية وركوب الخيل وعلى الطعن

بالرمح وأجرى المسابقات ودرب على التخطيط واتخاذ القرار وعود على المبادرة والتصرف السليم في الموقف المفاجئ .

وقد وفق صلى الله عليه وسلم في اختيار أصحابه لتولي قيادة السرايا كدوريات الاستطلاع ومفارز الاغارات وتمت ممارسة هذه التدريبات تحت إشرافه ، فاستفاد منها في دراسة طبيعة الأرض والطرق ومعرفة أحوال العدو واختبار قوته ، ونمى الثقة بالنفس عندهم وأفسح المجال للبعض منهم فعينهم قادة وحدات أو كتائب ليكتسبوا الخبرة القتالية .

لقد قاد الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة الثانية للهجرة ثمان غزوات ليعلم أصحابه ويعد القادة للمستقبل وأرسل خمسين سرية طويلة تسع سنوات ليربي أصحابه على القيادة .

وبذلك قدم لأئمة كفاءات صالحة لتولي القيادة من بعده فكان بحق القائد المعلم صلى الله عليه وسلم .

إن القيادة في الاسلام هي القلب النابض في جسم الجماعة ، فيجب أن تكون : قوية حازمة تأخذ بالشدة من يستحق ذلك ، وتخاف الله في كل تصرف ، وهي قدوة في كل الفضائل تتحلى بالتقوى والعفة والعدل والعلم والتفائل والحلم والمساواة والتواضع والشجاعة والجرأة والثبات والتماسك في الشدائد ومثانة الأعصاب وقصد في التصرف وتأليف القلوب واصلاح ذات البين وتعقل ونصح وأمانة وصدق وتخطيط وفعالية وحزم ومتابعة وبعد نظر وحسن تدبير وهكذا كانت قيادة محمد صلى الله عليه وسلم .

قيادة الرسول ﷺ غير العسكرية :

— العناية الإلهية والتهيئة الربانية :

ولد رسول الله ﷺ بطريقة مألوفة لدى الناس ، ليس فيها ما يدعو إلى الغرابة ، واسترضع في ديار بني سعد ، شأنه شأن سائر أطفال قريش ، ثم عاش في أحضان أمه تربيته وترقبه بعين مليئة بالعطف والحنان الرقيق ؛ لأنه يتيم الأب لتعوضه ما قد يكون فقده من ذلك الجانب .

غير أن الناظر إليه عليه السلام بعين بصيرة ، والمتتبع لنموه عن كثب يلحظ العناية الإلهية تحوطه من كل جانب والرعاية الربانية تصحبه في كل مكان .

فقد بلغ شاب بني هاشم درجة كبيرة من الكمال الجسدي والنضج العقلي ما جعله يتميز عن شباب قومه وينال حظوة عند أعيان بلده ، ومكانة لدى أسيادها .

ولعل مما يؤكد ذلك أحداثا متعددة شهدتها الرسول ﷺ أبرزت مؤهلاته القيادية ونضجه العقلي والفكري .

رعى عليه السلام الأغنام ، وما من نبي إلا ورعاها ، وفي ذلك ما فيه من التعود على تحمل المسؤولية ورعاية الرعية ، وفي ذلك أيضا الدربة على متابعة من تكون تحت امرته بالرفق والرحمة .

شارك عليه السلام في حرب الفجار ، فكان يرد النبال عن أعمامه إذا رماهم الأعداء بها ، وهي حرب قامت للدفاع عن الحرمات^(١) . شارك عليه السلام في حلف الفضول ، وهو حلف لاقامة العدل ورد

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ١٨٦ - الناشر : مؤسسة علوم القرآن .

المظالم، شارك فيه عليه السلام وهو ابن عشرين سنة شابا حدثا . . وأمثال هذه الأحلاف لا يحضرها إلا كبار القوم سنا وقدرًا، ومشاركته فيه عليه السلام دليل على بداية طريقه نحو القيادة وتحمل المسؤوليات الجسام .

قال عليه السلام في الحلف - حين أرسله الله تعالى :
«لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبدالله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو دعيت به في الاسلام لأجبت»^(٢) .

ومن أهم الأحداث التي تؤهله عليه السلام للقيادة وضع الحجر الأسود في مكانه، حيث ارتضاه الناس حكما بينهم وفيهم رؤساء القبائل وفضلاء القوم، ومن بلغ من العمر مبلغا . . وإذا بالصادق الأمين وهو في مقتبل العمر يفصل بين الناس بحكمة بالغة وفكرة جيدة ترضي الجميع وتضع حدا لما كان سيحدث من إراقة للدماء .

ومن أبرز نجاحاته القيادية في حياته قبل البعثة نجاحه الباهر في تجارته مع خديجة، فقد قام عليه الصلاة والسلام بالمهمة خير قيام، فباع وابتاع وعاد بخير وفير . وقد جاء ميسرة إلى خديجة ليروي لها خصال الشاب المتميز التي لم يعهد لها في رجل قبله . . رأى فيه القدرة على المعاملة السمحة مما جعل التجار يقبلون عليه ويربحونه، كما رأى فيه الأمانة والرفق بمن معه والرحمة بهم، ورأى فيه القدرة على تحمل المسؤولية وتصريف الأمور . وهذه خصال قد يتصف بها بعضهم ولكنها اجتمعت في محمد صلى الله عليه وسلم في أرقى مستوياتها .

ثم إن خديجة نفسها عرفت كثيرا من الرجال فلم تجدهم إلا طلاب مال، وعرفت محمدا عليه السلام فوجدته ضربا آخر من الرجال . . وجدت رجلا لا تستهويه الدنيا ولا تدنيه حاجة، ثم إنها عندما تحاسب التجار بما لها تجد

(٢) رواه ابن اسحاق في السيرة .

الشح والاحتياال، ولكنها مع محمد ﷺ وجدت النبل والأمانة، فقد أدى ما عليه من واجب وأخذ ما قسمه الله له من رزق، ثم انصرف راضيا مرضيا .

ومن خلال هذه المواقف نستطيع أن نقول إن رسول الله ﷺ بدأ يبرز بين قومه بما حباه الله تعالى من خلق رفيع وعقل راجح وفكر حصيف، وكل هذه الصفات من ميزات القائد الناجح في حياته .

— قيادته عليه السلام داخل أسرته قبل البعثة وبعدها :

لا شك أن رسول الله ﷺ كان زوجا وأبا ورب أسرة . . كانت خديجة أول نسائه، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت، وكان له منها الأولاد والبنات، وهم : القاسم وبه كان يُكنى، والطاهر والطيب وهما لقبان لعبدالله، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة . كان عليه السلام شديد الاهتمام بأسرته، دائم المتابعة لها بالتربية وحسن الرعاية، وهو يقول مؤكدا على ذلك :

«إن الله سائل كل امرئ عما استرعاه حفظ ذلك أم ضيعه»^(١) .

ويقول أيضا محذرا الأمة من تضييع الحقوق :

«بحسب امرئ من الاثم أن يضيع من يعول»

وفي رواية : «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت»^(٢) .

وتزوج نساء أخريات بعد وفاة خديجة رضي الله عنها فعكف عليهن يعلمهن مبادئ الاسلام ويسير فيهن السيرة العادلة على كل المستويات علمهن في الانفاق قاعدة عتيده «إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى»^(٣)، فكان عليه السلام بهذه السيرة مع زوجاته خير قائد وموجه، فقد عشن رضوان الله عليهن معه للجهاد والتهجد، والبذل والمواساة والتواضع

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢٣٥/١) عن النسائي بسنده عن قتادة عن أنس .

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٨/١) وغيره من حديث ابن عمر وصححه الحاكم .

(٣) هذا حديث مرفوع إلى النبي، بسند صحيح. أخرجه أحمد (٢٠٧/٥) وكذا الطيالسي (رقم ٩٧٩) في حديث لأبي الدرداء وسنده صحيح على شرط مسلم .

والخدمة، أما صلة الرسول ﷺ بناته فكانت مضرب الأمثال، كان عليه السلام محبا لمن ومحسنا إليهن متجاوزا بذلك ما هو متعارف عند العرب من اشمئزاز بالبنات ومتحديا لهم وهم يعيرونه بأنه أبو البنات . كان عليه السلام أول أب قبل البعثة يستقبل ابنته زينب ببشر وترحاب وينحر الذبائح ويقيم الأفراح . كان عليه السلام يمازح بناته ويضاحكهن ويلاعبهن، وكان يقول : «خير أولادكم البنات» .

وهذه السيرة الناجحة كان عليه السلام محبوبا من الجميع ، فخديجة لا تألوا جهدا في خدمته وما كان ذلك ليحصل لو لم يكن رفيع القدر عندها كريم المقام لديها محبا لها .

وهؤلاء بناته عليه السلام يتعلقن بوالدهن ويسلمن معه برغبة وإقدام، جاهدن معه، وتحملن أعباء الدعوة .

كما كان عليه السلام واضح الأثر في حياة أسرته، ربي بناته التربية الناجحة وزوجهن وهو يتابع حياتهن في كل جوانبها .

عاشت فاطمة يتيمة الأم وعانت الوحدة وذوقت مرارتها بعد أن تزوجت أخواتها، كانت تقوم بأعباء البيت قبل زواجها وبعده حتى إذا شعرت بالتعب طلبت من والدها أن يعينها بخادمة، فقال كلمته : «لا أعطيك خادما وأدع أهل الصفة تتلو بطنهم من الجوع» فأمرها أن تكتفي بما لديها وأن تعتمد على نفسها في حدود طاقتها ثم نصحها وزوجها بالتكبير والتحميد والتسبيح، فقال لها وزوجها : «ألا أدلكما على خير مما سألتانِي؟» قالا : بلى . قال : «إذا أويتما إلى فراشكما تسبحان الله ثلاثا وثلاثين، وتحمدانه ثلاثا وثلاثين، وتكبرانه ثلاثا وثلاثين، وإذا صليتما فقولوا : سبحان الله عشرا، وتحمدانه عشرا، وتكبرانه عشرا» فكانت خيرا لهما .

كما كان عليه السلام يتدخل بين علي وفاطمة ويسعى للإصلاح بينهما،

فكان علي يسأله : أينا أحب إليك يا رسول الله أنا أم فاطمة ؟ فيرد بحكمة بالغة وعقل حصيف : «فاطمة أحب إلي منك ، وأنت أعز علي منها» .

وهكذا فإن رسول الله ﷺ كان يدير شؤون بيته قبل البعثة وبعدها بنجاح فائق .

كان يعدل بين نسائه في الليالي ، ويقرع بينهن عند الخروج إلى الغزوات حتى لا يبقى في نفس أية واحدة منهن شيء ، كما كان يعدل بينهن في النفقة ويجمعهن للموعظة والنصيحة ، وإذا طلب الموقف ردعهن وزجرهن فإنه يفعل ذلك ولا يبالي قياما بواجبه ورعاية لأسرته ، وتحقيقا لمبدأ القوامة والمسؤولية ، كما جاء في القرآن الكريم :

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ .

— القيادة في العبادة :

كان عليه السلام قائدا للأمة في كل ميادين حياتها ، فهو رئيس الدولة ، وهو المعلم للأمة أمور دينها وهو إمامها في العبادات ، كان عليه السلام يؤم المسلمين في الصلاة بالمسجد ويقول لهم : «صلوا كما رأيتموني أصلي» .

كما كان عليه السلام يتولى الخطبة في المسجد ويعتلي المنبر يعظ الناس ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا وفلاحهم في الآخرة . وكان المسلمون مقابل ذلك يرقبون كل أعماله بدقة فيأخذون منه كل شيء صغير أو كبير ، ويحاكونه في كل تصرفاته يقينا منهم أنه إنما بعث ليبليغ للناس شرع الله تعالى ويتم للناس مكارم الأخلاق وهو النبي المرسل الذي لا ينطق عن الهوى ، بل كل ما يصدر عنه إنما هو وحي من الله وتوجيه من رب العالمين .

كان عليه السلام يصدر خطبه بقوله :

«الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ،

من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدي الساعة من يهد الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى» . نسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ، ويتبع رضوانه ، ويتجنب سخطه فإنما نحن به وله^(١) .

كان عليه السلام يقود أصحابه إلى الخير ، ويدعوهم إلى طاعة الله ، فكان عليه السلام كلما حدث شيء أو بدا له رأي أمر بالنداء في أصحابه «الصلاة جامعة» فإذا تجمعوا خطب فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ، ووعظ وأرشد وأمر ونهى وعرض عليهم ما استجد من الأحداث .

ومن أمثلة ذلك :

لما نزل عليه قوله تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد على الصفا ونادى الناس وخطب فيهم وأعلن لهم ما جاء به من ربه ، وكانت أول خطبة له بمكة بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال :

«إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم . . والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة . . والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزؤن بالاحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا ، أو النار أبدا»^(٢) .

كما خطب في مكة عام الفتح :

«يا أيها الناس ، إنه ما كان من حلف في الجاهلية فإن الاسلام لم يزد إلا شدة ، ولا حلف في الاسلام ، والمسلمون يد على من سواهم تتكافأ دماؤهم ،

(١) مراسيل أبي داود ، ص ٩ .

(٢) من كتاب : خطب الرسول ، جمع وشرح محمد خليل الخطيب ، الناشر : دار الفضيلة ، القاهرة ، ص ٩ .

يجبر عليهم أديانهم ، ويرد عليهم أقصاهم ، وترد سراياهم على قعدهم ، لا يقتل مؤمن بكافر ، دية الكافر نصف دية المسلم ، لا جلب ، ولا جنب ، ولا تؤخذ صدقاتهم إلا في ديارهم . . ولا شغار في الاسلام ، ولا هجرة بعد الفتح»^(١).

وهكذا فإن رسول الله ﷺ يقود أصحابه إلى مرضاة الله ، بأخلاقه وأفعاله ، كما يقودهم بالتوجه إليهم بالموعظة والنصيحة ، وبالتعليم والتربية وهي صفات القائد في أمته . خطب عليه السلام الناس في الجهاد وحبهم إليه ورغبتهم فيه ، فكان مثالا للقائد الناجح المقتدر على تنظيم الجيوش وإرسال البعث للجهاد في سبيل الله ، آتاه الله علما وخبرة ودراية بفنون الحرب واختيار القواد وتحديد المسؤوليات ، ومعاملة الأسرى والجرحى والرفق بالأطفال والنساء .

كما خطب أصحابه في مسائل أركان الاسلام في الصلاة وما يتصل بها من طهارة وأذان وسنن الصلاة والامامة وغيرها .

عن أنس قال : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه فقال : «أيها الناس إني إمامكم فلا تسبقون بالركوع ولا بالسجود ولا بالقيام ولا بالانصراف ، فإني أراكم أمامي ومن خلفي»^(٢).

وكان يحث أصحابه على الاخلاص ، ويصحح لهم ما اشكل عليهم من أمور الاعتقاد والعبادة والعمل . . وهذا كله يتضح جليا الدور القيادي الذي يقوم به الرسول عليه السلام في أمته .

(١) المرجع السابق ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٣ .

— القيادة في مكة قبل الهجرة :

كان رسول الله ﷺ بلا شك القائد الأول لأصحابه الذين آمنوا به واتبعوه ، وهم أصحاب له وأتباع مخلصون يتحركون وفقا لأوامره ، وينشطون في الدعوة ونشر كلمة الحق من منطلق أوامره .

كان عليه السلام يتولى بنفسه تحديد مكان الدعوة السري في بيت الأرقم بن أبي الأرقم ، ولم يكن الاختيار عفويا بل كان مقصودا نابعا من بعد نظر القائد حيث أن صاحب البيت كان يتيما وفقيرا ، لا يلفت الأنظار ولا ينتبه إليه ، ومن المستبعد أن يكشف أحد من الناس اجتماع القائد وأصحابه في ذلك المكان .

وكان عليه السلام يمضي بالمسلمين الأوائل إلى شعاب مكة سرا ليصلي بهم ، كما كان عليه السلام يتصل سرا بمن يرى فيهم القبول لدعوته ويوجه أصحابه للدعوة سرا يبلغون كلمة الله في خفاء وغفلة عن قريش حتى يأذن الله بالجهر بها .

ولما نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ قام عليه السلام ليعلن أمر الدعوة في ملأ من الناس ، فخطب فيهم ، وأظهر لهم أمره ودعاهم إلى دينه . وكان عليه السلام في مقدمة من خرج من بيت الأرقم بأصحابه للجهر بالدعوة ، وكان أول من توجه إلى الشعب ليكون أول من يتحمل الحرمان والجوع والمعاناة في سبيل إعلاء كلمة الله . وتلك هي خصال القائد المظفر الذي بعثه الله تعالى رحمة للعالمين .

ولما علمت قريش بالأمر أدركت أن محمدا يمثل القيادة العليا للمسلمين فصبت عليه جام غضبها ، واستعملت معه كل وسائل الاضطهاد لتثني عزمه وتكسر شوكته ، فتوجهت إليه بأنواع من الاغراءات والمساومات دون غيره من أصحابه .

من ذلك أن عتبة بن ربيعة وكان سيدا في قومه قال : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا . (١) .

وعتبة معروف عند الجميع أنه كبير قومه ، وهو أعرف الناس بمحمد ﷺ . فما كان ليتوجه إليه بالمفاوضة ويقدم له العروض المغرية لولا يقينه بأن محمدا ﷺ قائد جماعته .

ومن أمثلة ذلك أيضا أن زعماء قريش بعثوا إلى رسول الله ﷺ يقولون : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم . فجاءهم عليه السلام وجلس إليهم ، وطرحوا له عروضهم . فكان جوابه أن دعاهم إلى الاسلام ورجبهم فيه وحذرهم ونصحهم . قال لهم : « ما بي ما تقولون . ما جئت بما جئتم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولا ، وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم » .

وطالت المفاوضة مع رسول الله ﷺ وتعددت الاغراءات ، لكن الرسول القائد عليه السلام صامد على مبدئه ثابت على رأيه ، مستقيم على نهجه يرد عليهم بحجة القرآن ولا يبالي .

وهكذا أخفق الاغراء والارهاب في تعويق الدعوة وأدركت قريش أن ما تصبو إليه بعيد المنال .

ومن المواقف القيادية لرسول الله ﷺ :

— حسن التوجيه : فقد كان عليه السلام يدعو الناس إلى الاسلام ويرغبهم ، فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحذرهم من عبادة الطاغوت وغواية الشيطان .

(١) الحادثة مفصلة في سيرة ابن هشام ، ص ٢٩٣ .

— توجيه الأوامر لأصحابه : يأمرهم بالخروج إلى الشعب فيسمعون ، ويدعوهم إلى التحمل والصبر على مشاق الدعوة فيصبرون . ومما يدل على أنه القائد الذي لا يهاب المصاعب مواجهته لقومه بالحقيقة الساطعة ، والاعلان عن مبادئ الاسلام دون أن يتردد أو يخشى . كما كان يسارع إلى نصره المظلوم إذا استنصره ، فقد سارع عليه السلام إلى مناصرة الاعرابي الذي جاء إليه يشتكي من ظلم أبي جهل ، فلم يتوان لحظة حتى أسرع يدق الباب على أعتى أعدائه ويواجهه بالطلب الذي يرفضه عدو الله ، فينصره الله عليه ويستسلم أبو جهل للأمر الواقع ويرد للمظلوم حقه .

— حسن اختياره للمكان الذي يأوي إليه أصحابه ويأمنون فيه على حياتهم : أمرهم عليه السلام لما اشتد الأذى بالخروج إلى أرض الحبشة فقال لهم : «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فوجا مما أنتم فيه»^(١) .

— البحث الجاد المستمر عن مكان جديد للدعوة والاجتهاد في تبليغ كلمة الله للناس : وهو عمل لا يقوم به إلا من كان مؤمنا برسالته ، حاملا لهمومها في نفسه وقائدا للناس إلى الخير .

فلم يكد عليه السلام يستقر في مكة بعد حصار الشعب حتى خرج ومعه زيد بن حارثة إلى الطائف ليقوم بأمر الدعوة ، غير مبال بما يعترضه في الطريق إلى بني ثقيف من عقبات ومتاعب .

وعمل كهذا لا يقوم به إلا من كانت فيه مقومات القيادة بحيث يندفع من تلقاء نفسه إلى القيام بالمسؤولية بإخلاص ويقطع المسافات الطويلة في سبيل ذلك . . بل ويعرض نفسه للمخاطر قبل غيره ليكون المثل الأعلى في التضحية وتحمل المصاعب .

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ، المجلد الأول ص ٢٢١ .

وفي العقبة الأولى بايع رسول الله ﷺ اثنا عشر رجلا ، ونستنتج من هذه البيعة حصافة الرأي عند الرسول القائد وحسن التدبير ، لم يدعهم إلى الحرب والقتال معه ضد قومه الذين اضطهدوه بل دعاهم إلى الاسلام وأن يخلعوا ما كانوا عليه من مآثر الجاهلية وعاداتها ، ولهذا سميت البيعة ببيعة النساء ، لأنهم لم يبايعوا على القتال وهو عليه السلام لم يطلب ذلك ، لأنه يعلم أن أمره لم يحن بعد .

عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى : «أن لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف» . قال : «فإن وفيتم فلکم الجنة ، واغشيتم^(١) من ذلك شيئا فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله ، إن شاء عذب ، وإن شاء غفر»^(٢) .

وبعدها رأى النبي القائد أن يبعث معهم أحد الثقات من رجاله ليتعهد نداء الاسلام في المدينة ويقرأ على أهلها القرآن ويفقههم في الدين ، فأرسل مصعب بن عمير وكان بذلك أول سفير في الاسلام ، وهكذا فإن البيعة لا تكون إلا لمن حسن توجيهه وآمن الناس بقيادته .

ومن الدلالات القيادية للرسول عليه السلام ما كان من أمر العقبة الثانية حيث خطط لها الرسول القائد بحكمة :

— الأمر بالكتمان والسرية الكاملة في الخروج من منى حتى لا يحدث ريبة بين الحجاج فينكشف الأمر .

— اختيار الموعد ووقته الثلث الأخير من الليل حين يستسلم الحجاج إلى النوم بعد رهق النهار .

(١) ارتكبتم .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

— اخبار الرسول عمه العباس بما هو عازم عليه ليكون حاضرا معه ويتوثق له .

— طلب المنعة من الأنصار . ولعل هذا هو الموقف العسكري في البيعة حيث أن الرسول عليه السلام طلب منهم أن لا يسلموه لعدوه وأن يقاتلوا دونه كما يقاتلون دون أهليهم وأموالهم . فكانت الاستجابة فورية من الأنصار حيث قالوا له :

«لنمنعك مما نمنع منه أَرْزَنَا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (أي السلاح) ورثناها كابرا عن كابر» .

ومن حكمة القائد في هذه الحادثة منع أنصاره من القتال ، وقد أبدوا له استعدادهم لذلك . قال سعد بن عباد : يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيا فانا . فأبى الرسول القائد وقال : « لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم » .

هذه بعض مواقف الرسول ﷺ القيادية وهي صادرة من رجل أوتي عقلا راجحا ورأيا حصيفا وخلقاً رفيعا استطاع بذلك كله أن يكون خير أسوة لأصحابه .

هجرة الرسول القائد إلى المدينة المنورة

تمهيد :

كان الرسول القائد ﷺ يضع الضمانات وهيئ المواد والامكانيات الكفيلة بإيصاله إلى المدينة سالما لاقامة دولته فيها . وفي الوقت ذاته لم يغب عليه العنصر الأساسي لكل توفيقه وهو التوجه إلى العلي القدير بفؤاده وعقله وسمعه وبصره وحسه ليلقى منه المدد ويرجوه النصر .

فقد ظل قلبه موصولا بربه ، وظل العنصران يسيران في انسجام وتناغم :
عنصر الصلة بالله تعالى وعنصر الاعداد والتخطيط . هيا عليه السلام
الأسباب الارادية - أي تلك التي في متناوله - لنجاح هذه المسيرة وهو يتجه إلى
ربه يدعوه مستفتحا :

﴿ وَقُلْ رَبِّ

أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ
لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾

(الاسراء / ٨٠)

— اختيار عناصر المهمات الصعبة :

انتقى الرسول القائد ﷺ من بين أصحابه أول اثنين أسلما في تاريخ
الدعوة : أبو بكر وعلي واستبقاهما لأداء الأدوار التي رسمها لهما .

أما علي كرم الله وجهه ، فقد أنيطت بعهدته مهمتان :
الأولى : القيام بعمل الفداء لقائده والتمويه على المشركين ، وإيهامهم بأن
حمدا موجود في فراشه ، وهي مخاطرة صعبة عرف الرسول القائد من يختار
لها .

قال عليه الصلاة والسلام : «نم على فراشي وتسبح ببردي هذا الحضرمي الأخضر ، فثم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم»^(١)
الثانية : ردّ الودائع إلى أهلها .

وأما أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فقد اختاره عليه السلام للصحبة ، وعند علمه بالأمر سارع رضي الله عنه إلى شراء راحلتين ودفعهما لمن يعلفهما استعدادا ليوم الميعاد المنتظر .

— القائد يعتمد السرية في تحركه للهجرة :

كان عليه الصلاة والسلام كثيرا ما يوصي أصحابه بالسرية في أعمالهم ، بل كان يريهم عليها ويأمرهم بها ويقول لهم : «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان» .

ففي الاعداد للهجرة أسرّ عليه السلام لعلّي بالمهمة الصعبة في عبارات موجزة وواضحة بحيث لم يعلم بها سواه حتى يحافظ على عامل المفاجأة ومباغطة الخصوم مما يحدث في أعمالهم إرباكا يضعف من أدائهم وإيجابيتهم .

أما أبو بكر - رضي الله عنه - فقد تسلل إليه الرسول ﷺ في هاجرة أحد الأيام على غير عادته في التردد على بيته ، وأمره بالابتعاد عن الأذان المصغية ولو كان من أهل بيته ، وأسّر إليه القول : «إن الله أذن لي بالخروج والهجرة» فاهتز أبو بكر فرحا : الصحبة يا رسول الله . فيجيب : «الصحبة» ولم يعلم بالأمر إلا من له صلة به للقيام بدوره الذي كلفه به إزاءه .

— استكمال الخطة لانجاح الهجرة :

من المسلم به أن الرسول القائد ﷺ كان قد استكمل الخطة لانجاح حركة الهجرة المباركة ومن أهم ما جاء فيها :

(١) الطبري : تاريخ الطبري ٢/ ٢٧٢ .

— تحديد وقت الخروج وإحكام خطته واختيار الطريق الآمن .
— تحديد المكان الذي سيأوي إليه وصاحبه أياما لتضليل قريش ، وهو غار حراء .

— تحديد العناصر الفاعلة ، وتكليف كل واحد بمسؤوليته بدقة متناهية لا يزيد عليها ولا ينقص .
— تأمين الاتصال وضمان الغذاء والتزود بالأخبار .

ولما أعد الرسول ﷺ التخطيط جلس في بيته على أتم أهبة منتظرا أمر الله تعالى بالخروج ، ومستعدا للتنفيذ الدقيق . وفي ليلة التنفيذ بعد نزول أمر الله تبارك وتعالى لرسوله بالهجرة ، بدأ القائد ينفذ خطته بوعي كامل ، وحزم كبير ، وحذر شديد .

خرج الرسول ﷺ من بيته في الثلث الأخير من الليل في غفلة من الفتية الذين وقفوا شاهرين سيوفهم للانقضاض عليه .

سارع عليه السلام إلى دار أبي بكر وانطلقا معا في سرية كاملة جنوبا إلى غار ثور في اتجاه اليمن لتضليل قريش وكسب الوقت على الأقل لإحكام الخطة وإنهاك قوى المشركين في البحث عنهم .

لم يعلم بمخبأهما في الغار سوى عبدالله بن أبي بكر وأخته أسماء ذات النطاقين ومولاهم عامر بن فهيرة .

أما عبدالله فكان يقضي نهاره بين قريش يتنصت الأخبار ليقصّ ليلا على الرسول وصاحبه ما علمه من مؤامرات المشركين .

وأما أسماء فكانت تحمل الطعام إليهما بما يصلح أمورهما طبقا لما كلفت به .

وأما عامر فكان يرعى غنم أبي بكر فإذا أمسى أراح عليهما فأخذتا حاجتهما من اللبن ثم عكف راجعا بغنمه ليمحو آثار أقدام عبدالله وأسماء .

أقام الرسول ﷺ وصاحبه بالغار ثلاثة أيام فكان عليه السلام لا يفتر عن ذكر الله والاتجاء إليه بالدعاء، وكان أبو بكر- رضي الله عنه - يرهف السمع يتنصت وقع أقدام المتعقبين، وكلما اقترب بعض فتيان قريش من الغار أو أشرفوا عليه اشتد خوفه على رسول الله ﷺ وإذا يصاحبه يطمئنه ويذكره رعاية الله لهما وأنه تعالى لن يتخلى عنهما، قائلا : « لا تحزن إن الله معنا . . يا أبا بكر ما ظنك في اثنين الله ثالثهما » .

إنه موقف الثقة التامة في الله تعالى يبرزه الرسول القائد في وقت ترتجف فيه الفرائض وتبلغ القلوب الحناجر من الفرق . وإذا بهذه الكلمات تنزل على النفس بردا وسلاما وتطمئن صاحبه وتهدي من روعه، فإنهما لا يزالان في بداية الطريق والرحلة شاقة والجهد طويل فلا بد إذن من تغذية النفس بالثقة في الله وحسن التوكل عليه .

— خروج الركب الميمون من الغار والاتجاه نحو المدينة :

لما شعر الرسول القائد ﷺ أن اليأس بدأ يدب في نفوس الملاحقين والمتعقبين، وهدأت الحركة، وسكن الناس، وخرج مع صاحبه متزودين بما يكفيهما من طعام وماء . واختار القائد دليلا خبيرا بالدروب ليسلك بهم طريقا غير مطروقة بعيدا عن أعين الناس .

سلك عبدالله بن أريقط بالركب طريقا آمنة ممعنا إلى الجنوب بأسفل مكة ثم متجها إلى تهامة على مقربة من شاطئ البحر الأحمر وهو طريق لم يألفه الناس وقل ما يطرقه أحد .

إنها خطة محكمة ورائعة نسجها الرسول القائد بنظره الثاقب وفكره الحصيف وحسن تقيمه للأمور، فلم يبق بعد هذا التخطيط وحسن الأداء إلا أن ينزل نصر الله على رسوله الكريم ويفوز الرسول القائد بالتأييد الرباني بعد أن استكمل كل الأسباب التي كانت بوسعه .

إنه التوافق الرائع بين إرادة الانسان ومشیئة الله عز وجل وبين خطوات العباد ومساعدتهم ، وتأييد الله تعالى لهم . ومن هنا يتبين لنا بوضوح تام أن التأييد الرباني يسد الثغرات التي لم يقدر عليها الانسان والتدخل الالهي يأتي ليستكمل ما عجز على تحقيقه الانسان .

وقد تنزل نصر الله فعلا على رسوله الكريم في مواطن عدة في هجرته المباركة ، فكان الله تعالى تدخل في هذه الرحلة تتويجا لحسن التوكل عليه مع حسن الاعداد والأداء .

أما المرة الأولى أمام بيت الرسول ﷺ أثناء خروجه حيث أنزل الله تعالى على الأعداء المتربصين نوما وطمس على أبصارهم فخرج عليه السلام ينثر التراب على رؤوسهم ويتلو قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَس وَالْقُرْآنَ الْحَكِيم . . .﴾ إلى قوله تعالى :

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿

(يس / ١-٩)

والمرة الثانية فكانت عند الغار حيث نسج العنكبوت بيته على مدخل الغار وباضت الحمام ، وهي جنود يخذل الله تعالى بها الباطل وينصر بها الحق .

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾

(المدثر / ٣١)

وفي هذه الحادثة نزل قوله تعالى :

﴿إِلَّا نَنْصُرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ

يَقُولُ لِصَاحِبِهِ، لَا تَخْزَنِ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ
اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ
وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ (التوبة / ٤٠)

والمرة الثالثة : ما وقع لسراقة من أحداث وهو يتعقب رسول الله وصاحبه
أصبح أول النهار جاهدا عليهما وأمسى آخره حارسا عليهما . فقد تدخلت
القدرة الالهية وصدت الفرس عن الركب حتى أفاق سراقة من غفوته ونطق
بشهادة الحق .

— الرسول القائد « يواصل طريقه صوب المدينة :

انطلقت المسيرة المباركة من غار ثور إلى «يثرب» التي استكملت
استعداداتها لاستقبال الرحمة المهداة والقائد المظفر . كان الطريق وعرا تكتنفه
مخاطر جمة وعقبات كأداء : بعد المسافة ، وهوام الأرض وسباعها ، ومفاجآت
الصحراء ، والحال أن المهاجرين يخرجون من مكة ومشركو قريش لهما بالمرصاد
قد بثوا عيونهم في كل مكان واستنفروا فرسانهم لتعقب الرسول المهاجر
وصاحبه ، كما رصدت جوائز مغرية لمن يأتي بالرجلين ويردّهما إليها .

وفي الطريق الطويلة تبرز خصال الرسول القائد ﷺ لم يتميز على صاحبه
في مركب أو حلة أو مأكّل ، بل سار جنبا إلى جنب مع صاحبه الصديق ولم
يستطع أهل المدينة أن يفرقوا بينهما لانتفاء التمايز بين الرجلين .

يقول الصحابة من الأنصار : « . . . خرجنا إلى رسول الله ﷺ في ظل
نخلة ومعه أبو بكر - رضي الله عنه - في مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول
الله ﷺ قبل ذلك ، وازدحم عليه الناس وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال
الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك » .

هذا نموذج واحد من تواضع الرسول عليه السلام ، وهكذا فإن القائد إذا تواضع لأصحابه أحبوه وأطاعوه وبذلوا نفوسهم فداء له .

ومن مواقفه التي تبرز قيادته الناجحة عليه السلام ، أنه كان شديد الحرص على صاحبه أبي بكر ، فكان عليه السلام يسليه في الطريق ليذهب عنه الخوف ، وما كان أبو بكر خائفا على نفسه لكنه كان يخشى على رسول الله ﷺ أن يصيبه مكروه .

كما كان عليه السلام يقوم بنفسه بتأمين المشرب كلما احتاجا إلى ذلك ، فقد توجه عليه السلام إلى أم معبد يسألها أن تأذن له بحلب الشاة المتخلفة عن الغنم ، فيحلب الشاة ويسقي أم معبد أولا ، ثم يسقي من معه حتى يرتووا ، ثم يشرب هو ولا ينس عليه السلام أن يترك لأم معبد فضلا منه ولأهل بيتها .

والقائد عليه السلام لا تنام عينه حتى يطمئن على صاحبه ومن معه ، فلا يأكل حتى يأكلوا ولا يشرب حتى يشربوا ، وهذا الخلق الرفيع أسلمت أم معبد ورغبت زوجها في ذلك حتى قال لما عاد إلى بيته : هذا والله صاحب قریش الذي ذكر لنا في أمره ما ذكر بمكة ، لقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

ولو تتبعنا أهم أحداث الرحلة المباركة لوجدنا كل حركة فيها صغيرة كانت أو كبيرة إنما هي مواقف قيادية نابغة عن خلق رفيع وهمة عالية ، ولا غرابة في ذلك فإن صاحبه إنما هو الرحمة المهداة الذي بعثه الله تعالى بدعوة الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وإذا بشعاع النور يخترق الصحراء ، وإذا بالبدو والحضر على طول الطريق من مكة حتى يثرب تأتيهم أخبار البطل المهاجر وتصلهم خصاله الرفيعة ، بل ويتغنى بها الناس .

تقول أسماء بنت أبي بكر : مكثنا ثلاث ليال ما ندري أين وجه رسول الله ﷺ حتى أقبل رجل من أسفل مكة يتغنى بأبيات من الشعر :

جزي الله رب الناس خير جزائه	رفيقين حلاً خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر ثم تروّحا	فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بني كعب مكان فتاتهم	ومقعدها للمؤمنين بمرصد

قالت أسماء : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ﷺ ، وأن وجهه إلى المدينة^(١).

والأبيات تشير إلى حادثة أم معبد وما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بركات .

(١) انظر فقه السيرة . محمد الغزالي . دار الكتاب الاسلامي ، ص ١٨٠ .

استعدادات القائد « للاستقرار بالمدينة

أمر القائد بالهجرة :

أمر القائد محمد ﷺ أصحابه بالهجرة إلى يثرب بقوله :

«إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها»

والأمر هذه المرة على سبيل الوجوب لا على التخيير كالهجرة إلى الحبشة .

ووضح القائد معنى الهجرة بأنها انتقال من دار الكفر إلى دار الإيمان وانتقال من الخوف والفتنة إلى الأمن والاستقرار بعد أن اطمأن صلى الله عليه وسلم إلى بيعة الأنصار ووعدهم بأن يمنعوه مما يمنعون منه أولادهم ونساءهم وأنهم سيكونون رهن إشارته في كل ما يأمر .

وقد تعرض القرآن الكريم لهذه الهجرة المباركة وامتدح المهاجرين والأنصار الذين آوهم وأعلن البراءة ممن لم يمثل لأمر الرسول ﷺ باللحاق إلى دار الهجرة .

قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدْوَآيَآمَوْلِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴿
(الأنفال / ٧٢)

فهذه الهجرة الميمونة تبين للقائد الرسول ﷺ صدق وولاء أصحابه لدينهم وعقيدتهم وهي التي مهدت لقيام دولة إسلامية فتية في ظل قائد معصوم وبلد آمن وأنصار ومهاجرين أتقياء أبرار يضحون بالنفس والنفيس في سبيل نشر دعوة قائدهم محمد ﷺ. وقد بادروا بتنفيذ أوامره فور صدورها

وهاجروا تاركين خلفهم أولادهم وأموالهم وكل عزيز عليهم طاعة لله عز وجل
ولرسوله الكريم .

وكان أول من هاجر - كما تذكر كتب السيرة - أبو سلمة بن عبد الأسد ،
إذ حاول الكفار منعه من مواصلة هجرته بأن افتكوا منه زوجته وولده حتى
يشنوه عن عزمه ويتراجع ويعود إلى مكة إلا أنه أبى الرجوع وواصل طريقه
وضحى بابنه وزوجه وتركهما بين يدي الكفار الله أعلم بمصيرهما ، فرعاهما
الله تعالى ومكنهما من اللحاق به .

ولما أراد صهيب الرومي الهجرة إلى يثرب امثالاً لأمر رسول الله ﷺ حاول
الكفار منعه وقالوا له :

«أتيتنا صعلوكا حقيرا ، فكثير مالك عندنا ، ثم تريد أن تخرج بمالك
ونفسك ! والله لا يكون ذلك» .

فقال لهم صهيب :

«أرايتم إن جعلت لكم مالي ، أتخلّوني سبيلي ؟

قالوا : نعم .

فدّهم على ماله وخلّوا سبيله .

ولما علم الرسول القائد ﷺ بالأمر قال : «ربح صهيب ، ربح
صهيب...» .

هكذا ساوم صهيب الكفار بكل ما يملك من مال على أن يخلّوا سبيله
ويتمكن من الهجرة في سبيل الله ورسوله وليبرهن على أن حبه لدينه أعظم من
حبه لماله .

ثم هاجر عمر وحمة وزيد وعبد الحمين بن عوف والزيبر بن العوام وأبو
حذيفة ، وعثمان بن عفان وآخرون ، ولم يتخلف إلا من حبس أو فتن .

كما تأخر عن الهجرة أبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب بأمر من القائد

صلوات الله وسلامه عليه ، فالأول للصحبة والثاني لردّ الأمانات إلى أهلها .

وهذا التأخر مقصود من القائد ويدخل ضمن الخطّة المحكمة التي أعدها للهجرة لأن غيابة صلى الله عليه وسلم يثير الشكوك لدى الكفار ، فيتألبون عليه ويحاولون عرقلة مسيرته ويدخلون معه في حروب هو في غنى عنها وهو ينوي تأسيس دولة جديدة .

ومن حكمة التأخر أيضا اطمئنانه صلى الله عليه وسلم ، على أصحابه ليقطعوا شوطا كبيرا في المسير إلى يثرب في أمان .

ولما كانت الفرصة سانحة وبعد أن وفر لها كل أسباب النجاح هاجر القائد وصاحبه الصديق إلى يثرب والمسلمون على أحرّ من الجمر ينتظرون وصوله صلى الله عليه وسلم .

— وصول القائد إلى المدينة واهتمامه بالمستضعفين :

وصل القائد ﷺ يثرب - المدينة المنورة بعد تشريفه لها واستقراره بها - واستقبل بترحاب لا مثيل له ، وسره ما لقيه من حسن القبول وكرم ضيافة الأنصار وشغله أمر المستضعفين الذين يرغبون في الهجرة ولكنهم لم يتمكنوا منها والحسرة تملأ قلوبهم فبعث إليهم يبشرهم بالوحي المنزل عليه وقول الله تعالى :

﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ

وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾

فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾

(النساء / ٩٨ / ٩٩)

حتى يدخل الطمأنينة على قلوبهم ويذكّرهم بالعمل على الهجرة إذا انتفت الأعذار وزالت الأسباب لأن باب الهجرة مازال مفتوحا ولم يغلق إلا بعد الفتح

الأعظم فتح مكة وقول الرسول الكريم ﷺ :

« لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » .

— حرص القائد على بناء المساجد :

أول ما اهتم به القائد إثر هجرته من مكة إلى المدينة هو إنشاء المساجد ، فعند وصوله صلى الله عليه وسلم إلى قباء ونزوله بها بنى مسجدا سمي بمسجد قباء ، وهو أول مسجد في الإسلام ، وصلى فيه أياما ثم سار بعد ذلك فأدركته صلاة الجمعة عند بني سالم بن عوف فبنى عندهم مسجدا وصلى فيه الجمعة^(١) ، وكانت أول جمعة في الإسلام . ثم تابع الرسول ﷺ سيره حتى وصل المدينة المنورة فبركت ناقته في مربد^(٢) لغلأمين يتيمين هما سهل وسهيل ابنا عمرو ، فبنى عليه المسجد النبوي الشريف بعد أن اشتراه منهما وقد حاولا جاهدين هبته لرسول الله ﷺ إلا أنه أبى إلا أن يدفع ثمنه ولا يضيق عليهما فما أحوج هذين اليتيمين إلى بدله .

(١) المسجد الثاني الذي أقامه النبي ، وصلى فيه الجمعة عند بني سالم بن عوف ، مختلف فيه وأغلب المصادر تهمله ، إلا أنها لا تنكر إقامة الجمعة في ذلك المكان ، وللتوفيق نقول إنه يمكن أن يقام نظرا لبساطة بناء المساجد في ذلك العهد ، إذ يكفي لتشيدده بضع ساعات ، خاصة وأنه يبنى بالطوب وجذع النخيل وجريدها وسعفها وليفها ، وما أكثر هذه المواد في تلك المنطقة ، إلا أنه لا يمكن تصنيفه الثاني من حيث الأهمية ، إذ تجمع المصادر على أن مسجد قباء هو أول مسجد بناه الرسول ، ويليه في المرتبة الثانية من حيث التشييد لا الأهمية المسجد النبوي الشريف ، أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرجال .

(٢) مكان يجفف فيه التمر .

— إشعاع المسجد النبوي الشريف :

وفور وصول القائد إلى المدينة المنورة أمر ببناء المسجد النبوي الشريف وساهم في تشييده وشارك في إقامة دعائمه ووضع أسسه ليعطي المثل الأعلى لأتباعه وهو القائد المعصوم . وحرص على أن يكون هذا المسجد هو القلب النابض للمدينة وأن يكون له دور في عمرانها وذلك من خلال فتح الطرق واتصالها به ليكون المسجد مركزا أساسيا يجتمع المسلمون حوله ، فمنه ينطلقون وإليه يثوبون وفي ظلاله يرشحون اخوتهم ويتحاورون ويتبادلون الرأي حتى يكون هذا المسجد بالذات عنوان الاستقرار والأمن والطمأنينة ورمزا لقيام الدولة الإسلامية وشعارا لها .

ولم يقتصر دور المسجد النبوي على إقامة الصلاة فيه إنما جعله القائد صلى الله عليه وسلم مدرسة يتعلم فيها أتباعه حيث تقام حلقات العلم وهو الجامعة التي تخرج منها الفقهاء والعلماء وقادة الجيوش .

كما جعله صلى الله عليه وسلم دارا للجنود تعقد فيه الرايات للجهاد وتتم فيه الاتفاقيات ويخطط فيه للغزوات حتى لا يقتصر دوره على أداء العبادات .

وقد ثبت عن قائد الأمة وراعيها رسول الله ﷺ أن اتخذ من هذا المسجد الشريف مجلسا للشورى يتشاور فيه مع أصحابه في كل ما يتعلق بتأسيس الدولة والمحافظة عليها وخاصة المسائل العسكرية .

وفي هذا المكان الطاهر كان القائد يصدر أوامره العسكرية وتعليماته الحربية .

هكذا اختار الرسول القائد المسجد النبوي الشريف ليكون مقرا عسكريا دائما له يرسل منه السرايا والبعوث ويعقد الألوية لمحاربة كل من يقف في وجهه

الدعوة إلى الله تعالى . وفي المكان نفسه يتلقى القائد الأخبار من عيونه الذين يرسلهم ليجمعوا له معلومات كافية عن الأعداء ليعدهم لهم العدة .

ومن الموقع ذاته تعلن نتائج الحروب ويزود المسلمون بالأحداث ليكونوا على بينة من الأمر .

هكذا كان المسجد النبوي الشريف نقطة إشعاع دائم ومركز قيادة أساسي، فكل الطرق تؤدي إليه وأغلب المساكن والمتاجر والدكاكين تحيط به . .

— تنظيم القائد لسكان المدينة :

جمع القائد صلى الله عليه وسلم سكان المدينة على كلمة التوحيد وزرع الأخوة بين المسلمين منهم وحدد الحقوق والواجبات لكل فرد منهم مسلما كان أم غير ذلك، ونصحهم برمي الخلافات وراء ظهورهم وخاصة نزاعات الأوس والخزرج، ووجههم إلى الاستفادة من الأمور المشتركة وأرشدتهم إلى خدمة الأرض وتوظيف مياهاها لتعمير المدينة والاستفادة من خبرة المهاجرين في التجارة لتصبح مدينتهم مركزا تجاريا هاما موصولا بمراكز تجارية أخرى ولتكون بحق عاصمة للدولة الإسلامية .

وتحديدا للعلاقة التي ينبغي أن تكون بين أفراد الدولة الفتية أعد القائد وثيقة ضمنها حقوق وواجبات الرعية في بنود ومبادئ مستمدة ومستنبطة من القرآن الكريم الذي يتضمن الشريعة العادلة . وتعد هذه الوثيقة دستورا أخلاقيا يوفر الأمن ويحمي الإنسان ويحفظ له ماله وعرضه ودينه ويسري هذا الأمر على جميع سكان المدينة والراضين ببنود هذه الوثيقة التي تضمن وتكفل الحريات الفردية وأهمها حرية الفكر وحرية المعتقد وبذلك رفعت الوثيقة شعار

«لا إكراه في الدين» هذا الشعار الذي دفع بالكثيرين إلى الانضمام والانضواء تحت لواء هذا القانون العادل، مما جعل اليهود يقبلون العيش - ولو إلى حين - تحت ظله وفي كنفه .

— تركيز القائد على النواحي الاقتصادية :

كان أهل المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ إليها غير منتفعين بأراضيهم الزراعية بما فيه الكفاية غير قادرين على إعمار مدينتهم بسبب تفككهم الاجتماعي وعداوتهم وحروبهم المتواصلة .

ثم إن بالمدينة مساحات شاسعة من الأراضي الخالية والمهملة لا يسكنها أو يفيد منها أحد .

كل هذه الظروف كانت ملائمة للرسول القائد في شحذ الهمم للاعتناء بالزراعة ومنتجاتها لتوفير الغذاء لسكان المدينة نواة الأمة الإسلامية، لذلك أمر القائد باستصلاح الأراضي وإحيائها دفعا لعملية الاستقرار بالمدينة . وحث القائد الأنصار على إقطاع إخوانهم المهاجرين أجزاء من أراضيهم لإحيائها وإعمارها . . وتم ذلك إذ تمكنوا من بناء البيوت فيها وإحيائها فإذا كان هذا الأمر يدفع المهاجرين إلى العمل والمثابرة فمن باب أولى أن يتبعهم في ذلك الأنصار وهم أصحاب الأرض الأصليين، كما نبّه الرسول ﷺ إلى الاستفادة من مهارة المهاجرين في التجارة ودعاهم إلى تكوين أسواق تجارية خاصة بالمسلمين حتى لا يكونوا عالة على اليهود وحتى ينافسهم بأسواق مستقلة تبعدهم عن ربا اليهود واستغلالهم البشع وجشعهم الفظيع، فتحسنت أحوال المدينة وأحوال سكانها من المهاجرين والأنصار وكثرت في المدينة الأسواق التجارية .

— اهتمام القائد بالنواحي العسكرية وتكوين الجيش :

الجيش دعامة من دعامات الدولة وقد حرص الرسول القائد على تكوين هذا الأساس من أتباعه المهاجرين والأنصار ، فمعظم أتباعه صلى الله عليه وسلم قد مارسوا القتال قبل إسلامهم وعرفوا كيف يحملون السلاح ويستخدمونه ، إلا أن الظروف الجديدة وتصادد الموقف الحربي بين المسلمين وأعدائهم من الوثنيين واليهود حتم على القائد أن ينمي هذه القدرات وأن يدفع أتباعه إلى مزيد من التدريب والمهارات العسكرية في مواجهة الأعداء الذين يحيطون بالدولة الجديدة .

واستمر الرسول القائد طيلة العصر المدني من بعثته صلى الله عليه وسلم يعمل على تعليم الأنصار والمهاجرين فنون القتال وأدابه ويسعى إلى تدريبهم على حمل السلاح واستعماله رافعا شعارا واضحا لا غموض فيه :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ
لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

(الأنفال / ٦٠)

وقد لجأ الرسول القائد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم إلى رفع معنويات المجاهدين المقاتلين فأخذ يلقي عليهم دروسا في الجهاد والقتال ويحدثهم عن أعدائهم والموقف الصحيح منهم ويمنحهم الأمل اليقيني بالنصر أو الجنة فكان صلى الله عليه وسلم ينادي أصحابه دوما في اللحظات الحرجة بين النصر والهزيمة لكي يهرعوا إلى الحسين النصر أو الجنة ، فكان

يقول لهم :

«جاهدوا في سبيل الله فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ينجي الله به من الهم والغم» .

ويناديهم : إن الله تعالى يقول :

«ما من عبد من عبادي خرج مجاهدا في سبيلي إلا ضمنت له أن أرجعه مأجورا غانما أو شهيدا أغفر له وأرحمه وأدخله الجنة . . . »

وكان صلى الله عليه وسلم دائم التذكير بقول الله تعالى :

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

(آل عمران ١٦٩)

وكان يعلمهم بأن رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، كل ذلك لشحذ هممهم واندفاعهم في القتال بكل بسالة يدفعهم إيمانهم بالله واليوم الآخر محتسين أجرهم عند الله تعالى .

وإلى جانب هذه التهيئة وهذا الاعداد النفسي اهتم الرسول القائد ﷺ بالتدريب العملي، وقد سعى من خلاله إلى توظيف كل طاقات الأمة القادرة على البذل والعطاء رجالا ونساء وصبيانا وشبابا وشيوخا، كل حسب طاقته فدعاهم إلى التمرس على كل مهارة في القتال طعنا بالرماح وضربا بالسيوف ورميا بالنبال ومناورة على ظهور الخيل .

هكذا حرص النبي القائد على أن يكون هذا الجيش متطورا ومواكبا للعصر فلم يكتف بها عند العرب من فنون القتال بل أخذ رسول الله ﷺ

يرسل بعض أفراد الجيش الاسلامي إلى جرش باليمن ليتعلموا صناعة الدبابات^(١) والمنجنيق^(٢) والضبور^(٣) .

ومن الجدير بالذكر أن اليمن كانت في ذلك الوقت واقعة تحت الحكم الفارسي ، وكان الفرس متقدمين في صناعة الأسلحة المتطورة ونتاجها محليا ، لذلك استفاد الرسول القائد ﷺ من خبرة سلمان الفارسي العسكرية عندما أشار إلى حفر الخندق في غزوة الأحزاب .

هكذا يتضح بعد نظر القائد في تكوين الجيش وحرصه الدائم على الاستقلالية هذا المبدأ الذي يرفع من شأن المسلمين الذين يؤمنون غذاءهم وسلاحهم لينتصروا على أعدائهم .

(١) تصنع من الخشب وكان الناس يدخلون في جوفها ثم يدفعونها لاحداث ثقب في الحفر .

(٢) المنجنيق : كلمة فارسية عربية ، وهي آلة ترمى بها الحجارة .

(٣) الضبور : مفردا ضبر ، وهو جلد يغشى خشبا ، فيها رجال تقرب إلى الحصون لقتال أهلها .

القيادة العسكرية في السرايا

— اهتمام القائد بالسرايا والاعداد لها :

بعد نزول الإذن بالقتال وقول الله تعالى :

﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

(الحج / ٣٩)

وبعد أن فرض بقوله تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾

(البقرة / ١٩٠)

بدأ رسول الله ﷺ بإعداد الصحابة من المهاجرين والأنصار عمليا لمواجهة الأعداء في ميادين القتال . وكان هذا الاعداد شاملا للتعبئة المعنوية والمادية ، حيث أمرهم بتوفير السلاح وصناعته والتدرب عليه والتزود بالقوة امثالا لقوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ
لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾

(الأنفال / ٦٠)

وتحقيقا لهذا الهدف السامي ومحافظة على كيان الدولة أخذ الرسول القائد

بإعداد السرايا وهي عبارة عن دوريات استطلاعية تقوم بمهام محددة للتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة والمسالك المؤدية إلى مكة، ولذلك فإن الرسول القائد عليه السلام كان يأمر بها ويعين قادتها ويحدد لهم مهامهم ويصدر أوامره ويوضح الهدف منها دون أن يشارك فيها .

وعلى هذا الأساس اصطلح كتاب السيرة على أن الغزوة هي معركة كبيرة أو صغيرة يقودها الرسول بنفسه في حين أن السرية هي المعركة التي يأمر بها رسول الله ﷺ ويؤمر عليها ولا يخرج فيها، وعادة ما يكون عدد المشاركين فيها قليلا .

أما إذا كان عدد المشاركين في المعركة كبيرا تسمى غزوة ولو لم يشارك الرسول فيها كالمعركة التي دارت بين المسلمين والروم والتي اشتهرت بغزوة مؤتة، إذ بلغ عدد المسلمين المحاربين فيها ثلاثة آلاف جندي .

— الهدف من السرايا ودوافعها وأدوارها :

أ - الاقتصاص من قريش واسترداد الحقوق :

إن اعتراض قوافل قريش التجارية لا يدل على الرغبة في أخذ الأموال وقطع الطريق وإنما الدافع الحقيقي هو الاقتصاص من قريش وتخويفها وبث الرعب في صفوفها وأخذ أموالها لقاء ما أخذت من أموال المؤمنين المهاجرين واسترداد الحقوقهم، وقد أجبرت قريش الكثير منهم على ترك دورهم وأراضيهم وأموالهم، ومن علمت بهجرته بعد غيابه عن مكة باعت له دوره واستولت على أمواله ولذلك فإن المحاولات السبع^(١) لاعتراض عير قريش

(١) في السنة الأولى من الهجرة اعترضت عير قريش ثلاث سرايا بقيادة حمزة بن عبدالمطلب وعبيدة بن الحارث وسعد بن أبي وقاص، وتمت غزوة ودان بقيادة الرسول ، الذي قاد ثلاث غزوات أخرى في السنة الثانية للهجرة والتي عرفت بغزوات بواط وبدر الأولى والعشيرة .

والتي سبقت معركة بدر لم يشارك فيها إلا المهاجرون ولم يرسل القائد فيها أنصاريا واحدا ذلك لأن المهاجرين إن اعترضوا قافلة قريش واستولوا عليها فإنما يفعلون ذلك عن حق مشروع^(١).

ب - تدمير اقتصاد العدو :

كانت قريش تعتمد في بناء اقتصادها على التجارة الخارجية وكانت مشهورة برحلاتها الصيفية إلى بلاد الشام ورحلاتها الشتوية إلى اليمن وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورة قريش .

وكانت القبائل العربية على الطريق الممتد بين مكة والمدينة لا تتعرض لهذه القوافل بل كانت تقوم على حراستها وحمايتها لذلك أرسل الرسول القائد صلى الله عليه وسلم السرايا لتطارد هذه القوافل التجارية وتحاصرها وتستولي على ما فيها لتزعزع ثقة الناس بقريش وتتوقف عن التعامل معها . وقد نجح رسول الله ﷺ في مسعاه وأثر على ثقة القبائل العربية بقريش فضاقت السبل أمام قوافلها وأخذت تبحث عن طرق أخرى غير معروفة لتنجو من هذه المضايقات ، مثل ما تم في سرية زيد بن حارثة إذ خافت قريش واضطرت لتغيير الطريق الذي كانوا يسلكونه إلى الشام بطريق العراق ، إذ خرج التجار القرشيون وفيهم أبو سفيان بن حرب ومعهم فضة كبيرة - وهي أعظم تجارتهم - واستأجروا رجلا من بني وائل يد لهم على ذلك الطريق ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فلقاهم وأصاب العير وما فيها وعاد بها إلى قائده رسول الله ﷺ .

(١) السيرة النبوية . د. مصطفى السباعي ص ١١١/١١٢ بتصرف .

ويعبر صفوان بن أمية عن هذا القلق الذي يعيشه أهل مكة بعد أن تعطلت طرق قوافلهم التجارية . حيث يقول :

«إن محمدا وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه فما ندري أين نسلك ؟ وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن في دارنا هذه ما لنا بها بقاء . . . » .

وبعد الهدنة التي عقدها الرسول القائد ﷺ في الحديبية مع مشركي العرب في مكة واصل حملاته العسكرية على الأعداء الآخرين ببعث السرايا التي ازدادت واشتدت وكان تستهدف إضعاف الروح المعنوية القتالية لهم وإنهاك اقتصادهم ، والشواهد على ذلك كثيرة منها ما حدث في سرية أبي بكر - رضي الله عنه - التي هاجم فيها بني كلاب بن جذ وسرايا غالب بن عبد الله الليثي إلى بني عوال وبني ثعلبة وبني الملوح بالكديد .

ج - عقد المعاهدات وتوفير الأمن :

من الأهداف التي أراد القائد تحقيقها من خلال إرساله السرايا عقد المعاهدات مع القبائل العربية المحيطة بالمدينة والممتدة على الطريق بين مكة والمدينة وذلك لتأمين الطريق وضمان سلامة الجيش الاسلامي في المستقبل وتضييق الخناق على الأعداء .

ولعل القائد صلى الله عليه وسلم كان يهدف إلى أبعد من ذلك ألا وهو توفير الأمن والاستقرار والسلام لكل رعايا الدولة الاسلامية الفتية .

د - إرهاب الأعداء :

ومن جملة الأهداف التي كان يرمي إليها الرسول القائد ﷺ من وراء إكثاره من السرايا^(١) أن يشعر مشركي مكة ومشركي المدينة ويهودها وأعراب البادية بأن المسلمين أقوياء وأنهم في طريقهم إلى نشر دينهم وتحرير حرمهم من أيدي المشركين، ليدخل في قلوبهم الرعب، فيهاب الأعداء هذه الدولة فلا تسول لهم أنفسهم بالاساءة إليها وهو الهدف ذاته من سرية مؤتة .

﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾
(الأنفال / ٦٠)

هـ - الدفاع عن الدولة الاسلامية عن طريق الهجوم :

إن السرايا التي أمر بها رسول الله ﷺ والأحداث التي تمت ترشدنا إلى أن الدفاع عن الدولة الاسلامية ليس فقط بالتصدي لهجوم هؤلاء الأعداء الحاقدين وصد عدوانهم ودحرهم إذا اقتربوا من أرض المسلمين بل يتعدى إلى غزوهم في عقر دارهم وقتلهم وقتالهم وتدميرهم وتدمير فلولهم وتوجيه الضربات الموجعة التي تقصم ظهورهم وتكسر أعناقهم .

و - الدعوة إلى الله تعالى :

وأمر الرسول القائد ﷺ عادة ما تكون واضحة ولا يجوز تجاوزها وهي تهدف أساسا إلى الدعوة إلى الله تعالى وإن كان في ظاهرها القتال وترويع الأعداء فقد تكون المهمة المناطة بعهدة قائد السرية الدعوة إلى الله أو تكسير صنم دون اللجوء إلى القتال .

(١) أرسل القائد « أكثر من خمسين سرية في عشر سنوات .

ففي سرية عبدالرحمن بن عوف إلى ديار بني كلب بدومة الجندل والتي تمت في شعبان سنة ٦ هـ أقعد الرسول القائد عليه السلام الصحابي الجليل عبدالرحمن بن عوف بين يديه وعممه بيده وأوصاه بأحسن الأمور في الحرب وقال له :

« إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم »

فمكث عبدالرحمن بن عوف ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام فأسلم القوم وتزوج عبدالرحمن تماضر بنت الأصبغ وهي أم أبي سلمة وكان أبوها رأسهم وملكهم .

ز- التدريب العملي الميداني :

إن خروج قادة السرايا والمقاتلين تدريب عسكري عملي على أصناف عدّة من القتال في أماكن مختلفة وفي هذا إعداد نفسي وبدني للجهاد في سبيل الله ومشاركة الرسول القائد ﷺ في غزواته لنيل إحدى الحسنين إما النصر أو الشهادة .

— وصايا وتوجيهات الرسول القيادية إلى قادة السرايا :

في السنة الأولى من الهجرة المباركة أمر الرسول القائد ﷺ سعد بن أبي وقاص على سرية تعرف بسرية الخرار^(١) مع عشرين راكبا وكانت المهمة التي حددتها رسول الله ﷺ اعتراض عير قريش وأوصى الرسول القائد ﷺ الأمير بأن لا يجاوز الخرار . .

وتذكر كتب السيرة النبوية الشريفة أنه لما وصل أمير السرية سعد بن أبي وقاص ومن معه وجدوا أن القافلة قد مرّت بالأمس . . وكان بالامكان تعقب القافلة إلا أن أوامر الرسول القائد ﷺ واضحة ولا يجوز تجاوزها لأن مجاوزتها مخالفة للشرع وهو ما تم فعلا إذ رجع قائد السرية وجنوده ليعطي المثل الرائع في الانضباط مع أداء المهمة على أحسن وجه . .

وفي السنة الثانية من الهجرة أمر الرسول ﷺ عبدالله بن جحش على سرية تعرف بسرية نخلة^(٢) في اثني عشر رجلا من المهاجرين لاعتراض عير قريش، وكانت القافلة تحمل زيبيا وأدما وتجارة وفيها :

— عمرو بن الحضرمي

— عثمان ونوفل ابنا عبدالله بن المغيرة

— الحكم بن كيسان مولى بني المغيرة.

وكتب الرسول القائد ﷺ كتابا لأمير السرية وأمره أن لا ينظر فيه إلا بعد يومين من المسير .

وامتثل الأمير عبدالله بن جحش الأسدّي لأمر قائده رغم تشوقه الشديد لمعرفة مضمون الرسالة . وبعد يومين من المسير فتح قائد السرية الكتاب فوجد فيه ما يلي :

(١) الخرار : مكان قريب من الجحفة (رابغ حاليا).

(٢) نخلة : مكان بين مكة والطائف .

«نظرت كتابي هذا، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها غير قريش، وتعلم لنا من أخبارهم . . .»

ثلاثة أوامر واضحة لا غبار عليها ولا تحتل أكثر من تأويل لتنفيذ المهمة المناطة بعهددة أمير السرية وبعد قراءتها فهم المقصود وقال : سمعا وطاعة . وأخبر بعد ذلك أصحابه ولم يستكرههم على مواصلة السير بل خيرهم بين المضي قدما ونيل الشهادة أو الرجوع بقوله :

«فمن أحب الشهادة فلينهض ومن كره الموت فليرجع وأما أنا فناهض . . .»
فنهضوا كلهم .

ولما نزل عبدالله بن جحش نخلة كانت القافلة قد مرت بها، وكان ذلك في اليوم الأخير من الشهر الحرام رجب . . . فشاور الأمير جنده واحتاروا في الأمر لأن في القتال انتهاك للشهر الحرام، وفي عدمه تمكن القافلة من النجاة ودخولها الحرم . . . وبعد التشاور أجمعوا على تعقبهم وقتالهم ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله^(١) وأسروا عثمان والحكم^(٢) وأفلت نوفل . . . ثم قدموا بالغير والأسيرين إلى المدينة وقد عزلوا من ذلك الخمس^(٣) .

أنكر الرسول القائد ﷺ ما فعلوه لأنهم تجاوزوا حدود المهمة التي بعثوا من أجلها، وقال لهم :

« ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام »

وأوقف التصرف في العير والأسيرين، وبعد ذلك أطلق القائد الرسول ﷺ سراح الأسيرين ودفع دية المقتول إلى أوليائه .

(١) أول قتيل في الاسلام .

(٢) أول أسير في الاسلام .

(٣) أول خمس في الاسلام .

وهذا الدرس استوعبه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حينما أمره الرسول على سرية مكونة من ثلاثين رجلا من الصحابة الكرام وأمرهم بالتوجه إلى عجز هوازن بترية في السنة السابعة للهجرة .

ولما سمع الأعداء بمقدمه ولّوا هاربين ، ولما قرر أمير السرية عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الرجوع إلى المدينة ، أشار عليه دليله في الطريق بأن يتوجه إلى جمع آخر من خثعم بما أنه لم يقاتل ولم يلق كيدا وحقق انتصارا بهذه السهولة فأجابه عمر بقوله :

«لم يأمرني رسول الله ﷺ بهم إنما أمرني بأن أعمد لقتال هوازن بترية» . انتهى كلام عمر ليوضح مدى الالتزام المطلق والانضباط التام في تنفيذ أوامر القائد محمد ﷺ ولم تأخذه نشوة الانتصار السهل ليتجاوز المهمة التي حددت له ، ولم يغره قط كلام الدليل .

تلك هي الوصايا والأوامر القيادية النبوية التي كان يوجهها رسول الله ﷺ إلى قادة السرايا ليعلمهم الانضباط ويربهم على عدم تجاوزها ويعدهم لما هو أكبر ، وإن لم يقع في معظمها قتال ، إلا أن نتائجها عظيمة تحقق خوف المشركين وتجسد أمامهم الخطر الحقيقي إذ تيقن الأعداء أن المسلم المقيم في المدينة قادر على العودة إلى مشارف مكة ليقتل ويأسر ويأخذ المال ويرجع سالما غانما .

أهم السرايا على الإطلاق «غزوة مؤتة»^(١)

أ — أول معركة بين المسلمين والروم :

في جمادي الأولى من السنة الثامنة للهجرة دارت معركة مؤتة وهي أول معركة يخوضها المسلمون ضد الروم خارج الجزيرة العربية وسميت بالغزوة وإن لم يحضرها رسول الله ﷺ لكثرة المحاربين فيها إذ بلغ عدد المسلمين المشاركين فيها ثلاثة آلاف وعدد المشركين من الروم مائتا ألف .

ب — سبب المعركة :

لم تكن النية متجهة إلى قتال الروم ولم يكن الظرف ملائماً للصدام ولكن غدر الروم وتعددهم وتحديدهم للمسلمين دفع بالرسول القائد ﷺ إلى قتالهم وسبب ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى^(٢) عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني^(٣) - وكان عاملاً على البلقاء^(٤) من أرض الشام من قبل قيصر - وقتله . وكان هذا الجرم الشنيع الذي ارتكبه عامل قيصر كافياً لإعلان الحرب عليهم لأنه عمل عدائي لا يدل على حسن الجوار . وبمجرد وصول الخبر إلى القائد عليه السلام بمقتل رسوله اشتد ذلك عليه وجهز جيشاً جرّاراً لينذر الروم وسادتهم بقوة الدولة الإسلامية واستعدادها للدفاع عن نفسها حتى لا يفكر أي كان بالعدوان عليها مستقبلاً .

(١) مؤتة : قرية على مشارف الشام تسمى الآن بالكرك .

(٢) بصرى : مدينة من أعمال دمشق .

(٣) شرحبيل : أمير عربي نصراني من أمراء قيصر على الشام .

(٤) البلقاء : الأردن حالياً .

ج - القائد يهيء الجند للغزو ويعين الأمراء :

حضَّ الرسول ﷺ أصحابه على القتال وأعلمهم بنيته لغزو الروم فأسرع الصحابة رضوان الله تعالى عنهم وعسكروا بالجرف^(١) ينتظرون الأوامر من قائدهم الأعلى محمد ﷺ ، فقال :

« أمير الناس زيد بن حارثة ، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب ، فإن قتل فعبداً بن رواحة ، فإن قتل فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم » .

هكذا قدر الرسول القائد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم بعمق دقة وأهمية سرية مؤتة وأهمية المعركة التي يخوضها المسلمون مع الروم وخطورتها على حاضريهم ومستقبلهم لذلك جعل على هذه السرية ثلاثة قادة من أبرز قواده وألمعهم . وما ولى النبي ﷺ قبل سرية مؤتة ولا ولى بعدها ثلاثة قادة أو قائدين على سرية واحدة ولكن بعد نظره عليه الصلاة والسلام وتقديره لأهمية هذه السرية وخطورتها هو الذي جعله يولي ثلاثة قادة على سرية واحدة مرة واحدة فقط في حياته العسكرية كلها^(١) .

د - الوصايا النبوية :

أوصى الرسول القائد ﷺ جنده بقوله : «أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله وفي سبيله من كفر بالله . . لا تغدروا ولا تغلوا (لا تسرقوا الغنائم ولا تستحذوا عليها) ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ولا منعزلاً بصومعة . . ولا تقربوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناءً» .

(١) الجرف : موضع على ثلاث أميال من المدينة المنورة باتجاه الشام .

(١) قادة النبي . محمد شيت خطاب .

ومن جملة الوصايا التي أوصى بها رسول الله ﷺ :

«أن تأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن تدعوا من هناك إلى الاسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم».

وخرج الرسول ﷺ يشيع الجنود بنفسه حتى بلغ ثنية الوداع^(٢) وذلك لتشجيعهم ورفع معنوياتهم والدعاء لهم .

وعاد الرسول القائد ﷺ ومن معه من المسلمين المشيعة إلى المدينة متمنين للمجاهدين في سبيل الله كل التوفيق والنجاح في المهمة الجسيمة الملقاة على عاتقهم .

هـ - استشهاد الأمراء الثلاثة ونعي القائد لهم :

مضى الجيش الاسلامي حتى وصل مُعان^(١) ولما علم هرقل بقدم المسلمين نزل مآب^(٢) بأرض البلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضم إليه من نصارى العرب مائة ألف فتشاور المسلمون يومين متتاليين على الكتابة إلى رسول الله ﷺ وإخباره بعدد العدو ليرسل إليهم المدد أو يأمرهم بما يراه إلا أن عبدالله بن رواحة شجع الجند على القتال بقوله :

«يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنها هي إحدى الحسينين إما ظهور وإما شهادة»^(٣).

فاستجاب الحاضرون له ومضوا إلى القتال . فكان القتال عنيفا وشديدا

(٢) ثنية الوداع : ثنية مشرفة على المدينة سميت لتوديع المسلمين.

(١) مُعان : مدينة بطرف بادية الشام .

(٢) مآب : قرب عمان اليوم .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧٥ .

أدّى إلى استشهاد الأمراء الثلاثة ليأخذ الراية بعد ذلك خالد بن الوليد حتى لا يستسلم الجيش أو يضعف. وبدهائه وحنكته في الشؤون العسكرية أدخل خالد تغييرا في صفوف الجيش وكثرت تحركاته فظن الأعداء أن مددا وصل إلى المسلمين فامتلأت قلوبهم رعبا ولم يجرؤ أحد منهم على ملاحقة المسلمين وهم عائدون إلى المدينة. . وقد ثبت في كتب السنن أن الرسول ﷺ قد نعى زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال :

«أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم» .

و - الرسول القائد يستقبل جفده :

حرص الرسول القائد ﷺ على استقبال جنوده البواسل ليوضح للناس ما خفي عنهم لأن أهل المدينة لما سمعوا بجيش مؤتة قادمين تلقّوهم بالجرف مكان تجمعهم عند الانطلاق وجعلوا يحثون على وجوهم التراب ويقولون : يا فرار ، فررتم في سبيل الله ! فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله»

ز - تقييم القائد لنتيجة المعركة :

اقتضت المصلحة كما رآها خالد بن الوليد أن لا يستمر المسلمون في القتال نظرا لقلّة عددهم وكثرة عدوّهم وأن الهدف من المعركة قد تحقق وهو تأديب الصليبيين لقتلهم سفير رسول الله ، فقتلوا منهم آلافا وإن استشهاد المسلمين ثلاثة عشر .

ورغم هذا الانسحاب - المخطط له - فإن الرسول صلى الله عليه وسلم عدّه فتحاً وليس فراراً بقوله عليه السلام : «حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم». وقوله : «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله» .

ومن الأهداف التي تحققت من خلال هذه المعركة انهيار معنويات العدو إذ لم يجرؤ على اللحاق بجيش المسلمين حينما قرّر العودة .

ومهما تكن الخاتمة التي آلت إليها سرية مؤتة فإن نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى، وإن خفيت على عامة الناس، إلا أنها كانت واضحة لدى الرسول القائد ﷺ، ومنها التطلع إلى فتح الشام، وهذا ما حدث فعلاً إذ قاد النبي ﷺ بنفسه غزوة تبوك في العام التالي وأظهر قوة المسلمين وعاد إلى المدينة منتصراً .

ومن آثار هذه المعركة أن أصبحت للمسلمين سمعة طيبة لدى الأعداء الذين أصيبوا بالدهشة إذ من عجائب الدهر في نظرهم أن يصمد جيش صغير قوامه ثلاثة آلاف رجل أمام جيش عرمرم قوامه مائتا ألف مقاتل وأن لا تلحق في صفوف المسلمين خسائر فادحة في حين يخسر الرومان آلافاً من رجاله وهو أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض في ذلك الزمان .

فتأكد المواليون للروم من العرب من خلال هذه المعركة أن المسلمين مؤيدون ومنصورون من عند الله وأن قائدهم رسول الله حقا مما أدى إلى إسلام البعض منهم، فأسلمت قبائل بني سليم وأشجع وغطفان وذبيان وفزارة وغيرها، وفتحت بلدان رومانية أخرى بعد ذلك وانتشرت دعوة الإسلام واتسعت رقعة الدولة الإسلامية بفضل من الله ومنتته .

إن هذه الآثار والنتائج التي أسفرت عنها معركة مؤتة كانت بحق فتحاً، كما أخبر بذلك القائد الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

جدول لأهم السرايا التي أمر بها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم

م	أمير السرية	تاريخ وقوعها	المهمة	النتيجة	الملاحظات
١-	حمزة بن عبد المطلب (سيف البحر)	رمضان سنة ١هـ	اعتراض قافلة قريش وفيها أبو جهل	لم يقع قتال	- لواء حمزة أول لواء عقدته رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبيض .
٢-	عبدة بن الحارث بن عبد المطلب (رايع)	شوال سنة ١هـ	اعتراض قافلة قريش وفيها أبوسفيان	تراشق بالنبال ولم يقع قتال	- من جنود الأمير سعد بن أبي وقاص . - انضم رجلا من قافلة مكة الى المسلمين .
٣-	سعد بن أبي وقاص (الخرار)	ذو القعدة سنة ١هـ	اعتراض غير قريش وعلم تجاوز الخرار	لم يقع قتال إذ مرت القافلة بالأمس	- الخرار : موضع قريب من الجحفة . - انضباط في تنفيذ أوامر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم .
٤-	عبدالله بن جحش الأسدي (نخلة)	رجب سنة ٢هـ	اعتراض قافلة قريش	قتل وأسر وغنائم	- أول قتيل من المشركين في الاسلام وأول أسيرين في الاسلام وأول خمس في الاسلام

الملاحظات	النتيجة	المهمة	تاريخ وقوعها	أمير السرية	م
- من جنود الأمير : * عباد بن بشر * وأبونائلة سلكان بن سلامة * (أخو كعب بن الأشرف من الرضاع) * والشارث بن أوس * وأبو عيس بن حبر	قتل كعب وأصيب الشارث بن أوس	قتل عدو الله اليهودي كعب بن الأشرف	ربيع الأنوار سنة ٣ هـ	محمد بن مسلمة	٥-
- القردة : ماء بأرض نجد .	- الاستيلاء على القافلة وفرار من كان فيها - أسر الدليل فرات ابن حيان	مهاجمة قافلة قرش وفيها صفوان بن أمية	جمادي الآخرة سنة ٣ هـ	زيد بن حارثة (القردة)	٦-
	غنائم من الإبل والشيء وفرار جماعي	تأديب بني أسد بن خزيمه لمحاولتهم الهجوم على المدينة	محرم سنة ٤ هـ	أبوسلمة بن عبد الأسد	٧-

الملاحظات	النتيجة	المهمة	تاريخ وقوعها	أمير السرية	م
	تم قتل خالد بن سفيان	القضاء على خالد بن سفيان الهذلي الذي يعد لحرب المسلمين	محرم سنة ٤هـ	عبدالله بن أنيس	٨-
- أمير السرية يتقن العبرية ، كسرت رجله في المعركة فمسح عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يشك منها قط.	قتل اليهود ونفذ الأمير المهمة بكل دقة .	قتل أبي رافع سلام ابن أبي الحقيق من أكابر مجرمي يهود خيبر ، كان يعين الأعداء بالمؤن والأموال .	ذو القعدة سنة ٥هـ	عبد الله بن عتيك	٩-
- ثمامة بن أثال الحنفي كان ينوي اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر من مسيلمة الكذاب .	فر سائر الأعداء وغنم المسلمون نعما وشاء وأسر ثمامة بن أثال الحنفي الذي أطلق الرسول سراحه فأسلم بعد ذلك .	تأديب بني بكر بن كلاب	محرم سنة ٦هـ	محمد بن مسلمة (القرطاء)	١٠-

الملاحظات	النتيجة	المهمة	تاريخ وقوعها	أمير السرية	م
الغمر : ماء لبني أسد	فر القوم وأصاب المسلمون مائتي بعير	الذهاب الى الغمر	ربيع الأنور سنة ٦ هـ	عكاشة بن محصن (الغمر)	١١-
- عدد من كان مع بني مسلمة عشرة رجال .	خطط الأعداء للمسلمين كميناً ولما ناموا غدر بهم الأعداء فاستشهدوا جميعاً ولم يفلت منهم الا الأمير ابن مسلمة جريحاً .	أرسل الأمير الى ديار بني ثعلبة	ربيع الآخر سنة ٦ هـ	محمد بن مسلمة (القصة)	١٢-
	فر الأعداء الى الجبال وأصاب المسلمون رجلاً واحداً أسلم بعد ذلك وغنموا نعماً وشاء .	بعثه النبي صلى الله عليه وسلم علي إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة ليناروا لهم من بني ثعلبة .	ربيع الآخر سنة ٦ هـ	أبو عبيدة عامر بن الجراح (القصة)	١٣-

م	أمير السرية	تاريخ وقوعها	المهمة	النتيجة	الملاحظات
١٤-	زيد بن حارثة (الجموم)	ربيع الآخر سنة ٦هـ	قتال بن سليم	غنم المسلمون نعما وشاء وأسرى	الجموم : ماء لبني سليم في مر الظهران .
١٥-	زيد بن حارثة (العيص)	جمادي الأولى سنة ٦هـ	اعتراض قافلة قریش وفيه أبو العاص بن الربيع ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم	رجع الأمير سالما غانما فضة كثيرة لصفوان بن أمية وأسروا أناسا فيهم قائد القافلة أبو العاص بن الربيع	- أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم وهاجر فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بالنكاح الأول .
١٦-	زيد بن حارثة (الطرف)	ربيع الآخر سنة ٦هـ	تأديب بني ثعلبة	هرب الأعراب وغنم المسلمون عشرين بعيرا .	
١٧-	زيد بن حارثة (جسمى)	ربيع الآخر سنة ٦هـ	تأديب بني جذام	غنم المسلمون ألف بعير وخمسة آلاف من الشياه ومادة من الأسرى .	

ملاحظات	النتيجة	المهمة	تاريخ وقوعها	أمير السرية	م
	هجم سكان وادي القرى على المسلمين واستشهد منهم تسعة ونجا ثلاثة منهم الأمير .	استكشاف تحركات الأعداء من بني فزارة بوادي القرى .	رجب سنة ٦هـ	زيد بن حارثة (وادي القرى)	١٨-
الخط : ورق الأشجار .	أصاب المسلمين جوع شديد حتى أكلوا الخط	اعتراض قافلة قریش	رجب سنة ٦هـ	أبو عبيدة عامر بن الجراح (الخط)	١٩-
	أسلم القوم وتزوج الأمير ابنة ملكهم غماض بنت الأصبح	دعوة ديار بني كلب بدومة الجندل الى الاسلام	شعبان سنة ٦هـ	عبد الرحمن بن عوف	٢٠-
	هربت بنو سعد وغنم المسلمون خمسمائة بعير والفئ شاة	منع بني سعد بن بكر من أن يساعدوا اليهود	شعبان سنة ٦هـ	علي بن أبي طالب	٢١-

الملاحظات	النتيجة	المهمة	تاريخ وقوعها	أمير السرية	م
	قتل الثلاثون فارسا وأسرت أم قراقة وابنتها .	تأديب بني فزارة لتفكيرهم في اغتيال الرسول (ص) إذ جهزت أم قراقة ثلاثين فارسا للقيام بالمهمة .	رمضان سنة ٦ هـ	أبوبكر الصديق (وادي القرى)	٢٢ -
- أمير هذه السرية كان قد أغار على سرح المدينة قبل بدر في غزوة سفوان ثم أسلم واستشهد يوم فتح مكة .	دعا عليهم الرسول (ص) فقطعت أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم جزاء وقصاصا بما فعلوا	معاينة العرنيين على ارتدادهم وقتلهم راعي رسول الله (ص) واستيلاذهم على الإبل	شوال سنة ٦ هـ	كرز بن جابر الفهري	٢٣ -
	قام الأمير بما هو مطلوب منه	إرهاب أعراب نجد ومنعهم من النهب والسلب	صفر سنة ٧ هـ	أبان بن سعيد	٢٤ -

الملاحظات	النتيجة	المهمة	تاريخ وقوعها	أمير السرية	م
	تمكن المسلمون من قتل البعض منهم وساقوا النعم إلا أن جيشا كبيرا من الأعداء طاردهم فأنزل الله سيلا عظيما حال بين الفريقين لينجو المسلمون .	الأخذ بالثأر من بني الملوح بقتلهم أصحاب بشير بن سويد	صفر سنة ٧هـ	غالب بن عبدالله اللبني	٢٥-
	قتل وسمي من الرجال والنساء	تأديب بني كلاب بنجد	شعبان سنة ٧هـ	أبوبكر الصديق	٢٦-
	هرب الأعداء قبل أن يصل إليهم عمر	تأديب هوازن بترية	شعبان سنة ٧هـ	عمر بن الخطاب	٢٧-

الملاحظات	النتيجة	المهمة	تاريخ وقوعها	أمير السرية	م
- عدد الشهداء ثلاثون .	استشهد جميع من شارك في هذه السرية من المسلمين ولم ينج إلا الأمير فأقام عند يهود حتى برأت جراحه وعاد الى المدينة	قتال بني مرة بفدك	شعبان سنة ٧هـ	بشير بن سعد الأنصاري	٢٨-
- في هذه السرية قتل أسامة بن زيد مرداس بن نهيك بعد أن نطق بالشهادتين فلامه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : (هل شققت على قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب .	هاجم المسلمون ديارهم وقتلوا من أشرف لهم وغنموا أموالهم وساقوا الأنعام والشيء .	قتال بني عوال وبني عبد بن ثعلبة	رمضان سنة ٧هـ	غالب بن عبدالله الليثي	٢٩-

الملاحظات	النتيجة	المهمة	تاريخ وقوعها	أمير السرية	م
- عدد من قتل من الأعداء ثلاثون - وعدد المشاركين من المسلمين ثلاثون ومنهم عبد الله بن أنيس .	تم قتل العدو ومن معه وأُفُلت منهم رجل واحد وجرح عبد الله بن أنيس	قتل بشير بن رزام من يهود خيبر إذ كان يجمع غطفان لغزو المسلمين .	شوال سنة ٧ هـ .	عبد الله بن رواحة	٣٠-
يمن : أرض لغطفان وقيل لفزارة وعذرة .	هرب الأعداء وأصاب القائد نعمًا كثيرة وأسِر رجُلين أسلما فيما بعد .	منع القاطنين بيمَن وجبار من الإغارة على أطراف المدينة .	شوال سنة ٧ هـ	بشير بن سعد الأنصاري	٣١-
- وقعت قبل عمرة القضاء . - الغابة : مكان قصدَه رفاعَة لجمع قيس على محاربة المسلمين . - نصيب القائد من الفَيء ثلاثة عشر بعيرا ، استعان بها على الزواج .	هزم العدو هزيمة نكراء وقتل رفاعَة بن قيس واستاق المسلمون إبلا وغنما .	قتل رفاعَة بن قيس الجشمي لمحاولته جمع الناس لمحاربة المسلمين .	شوال سنة ٧ هـ	أبو الحدرد الأسلمي (الغابة)	٣٢-

الملاحظات	النتيجة	المهمة	تاريخ وقوعها	أمير السرية	م
	دار قتال شديد جرح فيه أبو العوجاء وأسروا رجلاً من العدو	دعوة بني سليم إلى الإسلام	ذو الحجة سنة ٧هـ	ابن أبي العوجاء	٣٣-
	قتل عدد كبير من الأعداء واستاق المسلمون نعماً وعاد الأمير سالماً غانماً.	الأخذ بالثأر من بني مرة بفدك وقتلهم الشهداء أصحاب بشير بن سعد	صفر سنة ٨هـ	غالب بن عبدالله الليثي	٣٤-
عدد المشاركين من المسلمين في هذه السرية خمسة عشر .	ترافق بالنبال واستشهد كل من شارك في السرية إلا رجلاً واحداً	منع بني قضاة من الإغارة على المسلمين ودعوتهم إلى الإسلام .	ربيع الأنور سنة ٨هـ	كعب بن عمر الأنصاري (ذات أصلح)	٣٥-
	استاق المسلمون النعم ولم يلقوا كيداً	منع بني هوازن من مساعدة الأعداء بالمدد .	ربيع الأنور سنة ٨هـ	شجاع بن وهب الأسدي (ذات عرق)	٣٦-

الملاحظات	النتيجة	المهمة	تاريخ وقوعها	أمير السرية	م
- السفير هو الحارث بن عمير الأزدي . - السرية الوحيدة التي يعين فيها ثلاثة أمراء . - تسمى هذه السرية بالغزوة لكثرة عدد المقاتلين فيها .	- استشهاد الأمراء الثلاثة ونفر من المسلمين - تولي خالد بن الوليد القيادة - الذي عاد بالجيش الى المدينة بعد ان قتل الآلاف من الأعداء . - تمهيد لفتح الشام . - والبلدان الرومانية .	انذار وتحذير للروم الذين قتلوا سفير رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم ودعوتهم الى الاسلام اولاً وان ابوا استعانوا بالله وقتلواهم .	جمادي الأولى سنة ٨هـ	زيد بن حارثة جعفر بن أبي طالب عبد الله بن رواحة (مؤنة)	٣٧-
- طلب الأمير المدد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث اليه مائتي رجل يتقدمهم أبو عبيدة غامر بن الجراح وفيهم أبو بكر وعمر .	حمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا بعد وصول المدد .	تأديب القبائل العربية التي تقطن مشارف الشام لاجتماعهم الى الرومان ضد المسلمين في معركة مؤنة ولاستلافهم .	جمادي الآخرة سنة ٨هـ	عمرو بن العاص (ذات السلاسل)	٣٨-

الملاحظات	النتيجة	المهمة	تاريخ وقوعها	أمير السرية	م
	- قتل نفر من الأعداء - سبي وغنائم	منع بني عطفان من ان يحتشدوا لقتال المسلمين في خضرة بنجد	شعبان سنة ٨هـ	أبو قتادة	٣٩-
	نفذ القائد المهمة بكل دقة .	هدم العزى أعظم اصنام قريش وكنانة بنخلة	رمضان سنة ٨هـ	خالد بن الوليد	٤٠-
	أمر أصحابه بتكسيره وهدم بيت خزائنه فأسلم السادن	هدم سواع صنم لهذيل	رمضان سنة ٨هـ	عمرو بن العاص	٤١-
	هدم الصنم وكسر	هدم مناة صنم الأوس والخزرج وغسان	رمضان سنة ٨هـ	سعد بن زيد الأشجعي	٤٢-

م	أمير السرية	تاريخ وقوعها	المهمة	النتيجة	الملاحظات
٤٣-	خالد بن الوليد	شوال سنة ٨هـ	دعوة بني جذيمة الى الاسلام	- قتال شديد واسر وقتل . - أمر خالد بقتل الأسرى فاستجاب بنو سليم وأبى المهاجرون والأنصار	- مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم صنيع المهاجرين والأنصار ولأم خالد لأنه بعثه عليه السلام داعيا لا مقاتلا .
٤٤-	عينة بن حصن الفراري	محرم سنة ٩هـ	تأديب بني تميم لحثهم القبائل العربية على الامتناع عن أداء الزكاة	- ولي الأعداء مدبرين وأسر المسلمون احد عشر رجلا واحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيا وساقوهم الى المدينة	- أسلم رؤساء بني تميم وفيهم الأقرع بن حابس بن يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد عليه نساءهم وأبناءهم .
٤٥-	قطبة بن عامر	صفر سنة ٩هـ	بعث القائد الى حمى بن خثعم بناحية تبالة بالقرب من تربة	قتال شديد واستشهاد للقائد وسوق للنعم والشاء والنساء	

م	أمير السرية	تاريخ وقوعها	المهمة	النتيجة	الملاحظات
٤٦-	الضحاك بن سفيان الكلابي	ربيع الأنور سنة ٩هـ	دعوة بني كلاب الى الاسلام .	انهزم الأعداء وقتل منهم رجل .	
٤٧-	علي بن أبي طالب	ربيع الأنور سنة ٩هـ	تخطيط صنم بطيء يقال له القلس	حطم الصنم وغنم المسلمون نعما وشاء وسوا	- من بين السبايا أخت عدي بن حاتم الطائي .
٤٨-	علقمة بن مجزز المدلجي	ربيع الأنور سنة ٩هـ	منع رجال من الحبشة يقومون بالقرصنة ضد أهل مكة	فر الأعداء لما سمعوا بمسير المسلمين اليهم	- القرصنة بسواحل جدة .
٤٩-	علي بن أبي طالب	سنة ١٠هـ	دعوة مذحج باليمن	قاتلهم وانتصر عليهم وعاد سالما غنائم غنائم كثيرة من النساء والأسرى والنعم	- أسلموا بعد ذلك وأعلنوا إسلامهم .
٥٠-	أسامة بن زيد	صفر سنة ١١هـ	إرهاب الروم ووطء الخيل تخوم البلقاء والداروم بفلسطين	- تجمهر الناس وأجلو الأمر لوفاة رسول الله (ص)	- أنفذها أبو بكر في خلافته تنفيذا لوصية رسول الله صلي الله عليه وسلم .

القيادة العسكرية للرسول ﷺ

غزوة بدر الكبرى

جيش المسلمين :

القائد : رسول الله ﷺ

التاريخ : شهر رمضان السنة الثانية للهجرة

عدد المسلمين : ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً

العدة : فرسان : — فرس للزبير بن العوام

— فرس للمقداد بن الأسود الكندي

سبعون بعيراً.

الجيش المكي :

القائد : أبو جهل عمرو بن هشام

العدد : بين تسعمائة رجل وألف.

العدة : مائة فرس

الجمال كثيرة بحيث لا يعرف عددها

النتيجة :

— النصر للمسلمين

— استشهد أربعة عشر رجلاً

ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار

— هزيمة المشركين

— قتل سبعون وأسر سبعون

أغلبهم من القادة

غزوة بدر الكبرى

تمهيد :

كانت غزوة بدر منطلق الصراع الحاسم بين المسلمين والمشركين ، وقد سمي الله تعالى يومها «يوم الفرقان يوم التقى الجمعان» فكانت مفرق الطريق بين الناس في الدنيا وعلى مدى التاريخ البشري وفي الآخرة .

فهي الحلقة الأولى من حلقات الجهاد في الاسلام بعد أن مهد لها الرسول القائد بعدد من السرايا والغزوات الصغيرة والخاطفة التي تؤمن الأرياف المحيطة بالمدينة .

أقام الرسول ﷺ بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويأمر بالكف والصبر والصفح ، ثم أذن له ربه بالهجرة ، ثم جاء الاذن بعدها بالجهاد ، وكان الناس آنذاك ثلاثة أقسام :

أ - أهل صلح وهدنة : وهي القبائل المنتشرة بين مكة والمدينة والتي وادعها الرسول ﷺ وصالحها .

ب - أهل حرب : وهم كفار قريش الذين ناصبوا الرسول ﷺ العداء وصمموا على الانتقام .

ج - أهل ذمة : وهم اليهود الذين تتضمنهم بنود الوثيقة فأمر الرسول القائد ﷺ أن يتم لأهل العهد عهدهم متى استقاموا على ذلك ولم يخونوا العهد . وأمر أن يقاتل من نقض العهد إلى أن نزلت سورة براءة وشرع الله لرسوله قوانين الجهاد النهائية .

السبب المباشر للغزوة :

أصدر الرسول القائد ﷺ لأصحابه نداء الخروج للملاحقة عير قريش لمن أراد منهم ذلك ، وهي عير ضخمة لم يبق قرشي واحد إلا وساهم فيها ، وفيها من الأموال الشيء الكثير بحيث لو وقعت في أيدي المسلمين لحققت أمرين في غاية الأهمية :

أحدهما : إلحاق ضربة موجعة لقريش تهد كيائها وتضعف من سطوتها .
الثاني : استرداد حقوق المهاجرين التي نهبها الكفار بعد هجرتهم من مكة ، وفي ذلك تقوية للمسلمين ورافد مادي هام لهم .

لذا فقد أطلق النداء بالخروج فقال عليه السلام :

«هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها»^(١) .
وقبل الخروج نظم الرسول القائد شؤونونه فجعل على المدينة أميرا أثناء غيابه ، كما استعمل عبدالله بن أم مكتوم^(٢) على الصلاة بالناس .
تجمع مع الرسول القائد ﷺ كل من أمكنه الخروج للتصدي للقافلة وانطلق بهم صوبها ، ولما تبين له أن القافلة توشك على النجاة أسرع في تعقبها لكن أبا سفيان استطاع بمهارته أن يفلت بها بعيدا عن أنظار الناس ومخاطر الطريق .

ولما علم عليه السلام بذلك وبلغته أخبار قريش وما تنويه من الخروج للحرب بقيادة أبي جهل توقف عليه السلام بأصحابه ليعيد تنظيم صفوفهم ، فدفع اللواء الأبيض إلى مصعب بن عمير ، ودفع الرايتين

(١) السيرة النبوية . ابن هشام ج ٢ ص ٦٠٧ .

(٢) ويسمى أيضا عمرو بن أم كلثوم أخا بني عامر بن لؤي .

السوداوين، أحدهما لعلي بن أبي طالب، والثانية لسعد بن معاذ .

وزع عليه السلام السبعين بعيرا وهي كل ما كان بحوزة المسلمين على أصحابه، كل ثلاثة يتناوبون واحدا منها، ولم يكن لهم من الخيول سوى اثنين .

وعند الاقتراب من بدر بعث الرسول القائد ﷺ اثنين من الجند ليتحسسا الأخبار عن قافلة أبي سفيان، ثم انطلق بجيشه في أعقابها ليكون الجنود عن كذب منها وليقوموا بواجب الحماية لهما والنجدة عند الحاجة .

وبعد المسير ليلا كَوَّن الرسول القائد فرقة استكشاف يقودها ثلاثة من الفرسان الأبطال، هم : علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص مهمتهم جمع الأخبار عن القافلة وعن تحركاتها، فكانت النتيجة أن أمسكوا باثنين من أتباع قريش اللذين أكدا لهم أن جيش قريش مشرف عليهم وهم يعسكرون بالقرب منهم، وهذه معلومة هامة جدا غيرت مجرى الأمور .

استفاد الرسول القائد من الرجلين حيث علم منها موقع الجيش، وقدر عدد أفرادها بما ينحرون من الابل كل يوم، وهذا دليل على خبرة الرسول القائد في تقدير الأمور والاستفادة من الأخبار .

والآن تبينت الأمور للرسول ﷺ فهم الآن في مواجهة مع جيش يفوقهم عددا وعدة .

إذن ضاع الهدف الأقرب وهو القافلة فلا مناص من التوجه إلى الهدف الأبعد وهو القتال وخوض غمار المغامرة الأولى في حقل الجهاد المسلح .

وتوقف الرسول القائد بالجند ليقرر ما يراه صالحا بعد فحص الأمور من كل جوانبها .

— القائد يستشير أصحابه :

رأى القائد الأعلى للمسلمين أن الرجوع إلى المدينة دون مناجزة القوم معرة ستلحق بجيشه ، وفرصة لعدوه كي يستصغروهم ويلحق بهم الأذى ، وهذا ما يمكن أن يكون . كما ظهر له أيضا أن الاقدام على المعركة مخاطرة صعبة قد تعرض جيشه إلى المحق والتدمير ، خاصة وأنه لا يحمل من السلاح إلا السيوف وعدة السفر ، والعدو مقبل بجحافل وعدده وعدته ، يدفعه الشيطان إلى الانتقام ويزين له الحرب وسفك الدماء .

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ ﴾

(الأنفال / ٤٨)

عندما عدل الجيش عن التقدم وبدأ الرسول القائد مشاورته مع أصحابه ليرسم خطة واضحة يمكن من منطلقها صناعة القرار واتخاذ التدابير اللازمة للمواجهة .

استشار عليه السلام أصحابه الأوفياء في جو من حرية الرأي ومسؤولية القرار فكان ما كان من المهاجرين من الوفاء والاقدام ، وكان ما كان من الأنصار من عزم وثبات .

استشار عليه السلام أصحابه في القتال ، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن الكلام ، وقام الفاروق فقال مثل ذلك ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : «يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ،

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . . فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه» .

ثم قال عليه السلام : «أشيروا علي أيها الناس» وهي لفظة ذكية يريد بها توسيع دائرة المشورة وأن يكون للأنصار في المسألة رأي واضح ، وقد كانوا بايعوه على نصرته في المدينة ، فلعلهم يرون رأيا في مناصرته خارجها وهو عليه السلام يريد أن يقف عند حدود المعاهدات ولا يكره الناس على شيء لم يلتزموا به من قبل . عندئذ تفتن سعد بن معاذ لذلك فقال : «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله . قال : «أجل» . فقال : لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة لك فامض لما أردت فنحن معك . . فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن نلقي عدونا غدا . . إنا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله» .

فسر القائد بما سمع من جنده المخلصين ، فقال عليه السلام : «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم» .

ومن هذه الجلسة الطارئة التي عقدها الرسول القائد مع أصحابه يبرز جليا أنه عليه السلام يعطي الفرصة لأصحابه حتى يدلوا بآرائهم ، ويشعر كل فرد منهم أن له مكانة في الجيش المسلم لا يُستهان بها تتحد كلمتهم وتقوى صفوفهم .

كما برز موقف الشورى بوضوح أيضا في مكان إقامة الجيش ، حيث نزل

الرسول ﷺ بجيشه منزلا ، رأى بعض أصحابه أنه ليس بمنزل ، فأشار الحباب بن المنذر على الرسول ﷺ برأيه فقال : أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » فقال : يا رسول الله هذا ليس بمنزل فامض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من الآبار ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فلما رأى القائد صواب الرأي سارع إلى الأخذ به وتنفيذه في الحال .

— تعبئة الجيش ووصايا الرسول القائد عليه السلام :

تحرك الرسول القائد بين كتائب جيشه يبعث فيهم روح الجهاد ويبشرهم بالنصر مشيرا بيده وقائلا لهم :

« هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله ».

وبات الرسول ﷺ يصلي متضرعا إلى ربه يرجوه النصر والتمكين ، وبات المسلمون في ليلة هادئة حيث أنزل الله عليهم سكينته ونالوا من بركات المطر ما يطهر أجسامهم ونفوسهم ، وأخذوا قسطا من النوم ليكون لهم عونا. ^(١)

قال تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجَزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (الأنفال / ١١)

(١) كانت هذه الليلة الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة المباركة.

وفي الغداة بعدما تفقد الرسول القائد جنده أدلى إليهم بأوامره :
— ألا يبدأوا القتال حتى يتلقوا منه الأوامر .

— البدء بالرمي بالنبال والحفاظ على السيوف إلى وقت الضرورة .

— لا تسل السيوف حتى يلتحم الجيش .

قال عليه السلام : «إذا أكثبوكم (يعني كثروكم) فارموهم واستبقوا
نبلكم، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم» .

— القائد يرشح أقرباءه للقتال :

في بداية المعركة انطلق ثلاثة من فرسان قريش : عتبة وأخوه شيبة ابنا
ربيعه، والوليد بن عتبة، فانبرى إليهم ثلاثة من فرسان المسلمين : عوف
ومعوذ ابنا الحارث، وعبدالله بن رواحة، فأبوا لقاءهم داعين محمدا أن يخرج
إليهم غيرهم، فلم يتوان الرسول القائد من إرسال أقرب الناس إليه، فقال
عليه السلام :

«قم يا عبدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي» .

وهذا يعطي الرسول القائد نموذجا رائعا في التضحية بأقرب الناس إليه
عمه وابني عمه، ويتحمل تبعة الغرم قبل التفكير في الغنم . . وفي هذا ما
يزيد أصحابه ثقة بقائدهم واندفاعا نحو الاستجابة لأوامره وتنفيذ قراراته .

— التحام الجيشين :

— الرسول القائد يحرض على القتال :

لما كانت بداية المعركة نكبة على جيش المشركين بفقدهم ثلاثة من خيرة
فرسانهم استشاطوا غيظا وأقبلوا بجموعهم على المسلمين، فبادرهم جند

الاسلام بالنبال يرمونهم بها ويحصدونهم حصدا متبعين في ذلك أوامر قائدهم بكل دقة . ولما التقى الجمعان والتحم الجيش سلّ المسلمون سيوفهم وفقا للخطة المرسومة من قبل رسول الله ﷺ وكروا عليهم كرة رجل واحد يحدوهم الأمل في النصر أو الفوز بالجنة .

في هذه الأثناء خرج الرسول القائد ﷺ إلى صفوف المسلمين يحرضهم على القتال ويعدّهم بالنعيم الذي أعدّه الله للشهداء منهم وهو يقول :
«والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» .

ثم قال : «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» .

فكان لتحريض الرسول ﷺ الأثر الرائع على نفوس المسلمين المجاهدين ، حيث أقبلوا بكلّيتهم على الجهاد وجعلوا مطمحهم الشهادة والفوز بالجنة .

فهذا عمير بن الحمام الأنصاري يلقي تمرات كانت في يده ثم ينطلق قائلا : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، وأنشد وهو يقاتل :

ركضا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة للنفاد
غير التقى والبر والرشاد

وما زال يقول حتى قتل شهيدا^(١) .

— الرسول ﷺ يناشد ربه النصر :

الالتجاء إلى الله تبارك وتعالى بالدعاء ومناشدته النصر عنصر ضروري

(١) الإصابة في تاريخ الصحابة ج ٣ ص ٣١ .

للمسلم الواثق بربه، وهي صفة المرسلين في كل حين فكان عليه السلام إذا حزنه أمر أو اشتد عليه شيء سارع إلى ربه يناجيه ويدعوه ويرجوه ويناشده تفريج الكربات.

وفي غزوة بدر الكبرى بعد تحريض المؤمنين على القتال وعند اشتعال الحرب بين الفريقين سارع الرسول القائد إلى مناجاة ربه، يستمد منه المدد ويرجوه النصر والتمكين قائلاً: «اللهم انجز لي ما وعدتني.. اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد».

وما زال يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر فرده على منكبيه ثم قال: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

فتأتي البشارات ترى الواحدة تلو الأخرى، وتأخذ الرسول ﷺ سنة ثم يتبته، فيعد أصحابه بالمدد والنصر من الله تعالى، يقول لأبي بكر: «أبشر يا أبا بكر فقد أتاك نصر الله. هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثنایا النقع».

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِ
فِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

(الأنفال / ٩ - ١٠)

ويقول أيضا :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا
سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ
الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾
(الأنفال / ١٢)

— الرسول القائد يشارك بنفسه في المعركة :

لم يكتف الرسول القائد صلوات الله عليه وسلامه بتحريض الجند على القتال ورسم الخطط وإصدار الأوامر ، بل لم يرغب بنفسه عن المشاركة في القتال ، فخرج عليه السلام لابسا درعه وخاض المعركة يقود أصحابه إلى النصر ، ويضرب أروع الأمثال في البطولة والاقدام والخبرة بفنون الحرب والنزال .

كان عليه السلام يتقدم أصحابه صوب العدو ، وكان أصحابه يقتدون به ، وكانوا أحيانا يتقون النبل بقائدهم الأعلى ، وهذه شجاعة نادرة وقيادة صادقة لا يقدر عليها كل الرجال ، إلا من أوتي اخلاصا لمبادئه وولاء لقيادته وحبا لربه ورغبة في جنته .

عن علي كرم الله وجهه قال : لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله وهو أقربنا من العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا .^(١)

ومما زاد أصحابه نشاطا وبأسا في القتال أن رأوا قائدهم يثبت في المدرع يقاتل المشركين ويقول في جزم ويقين :

(١) رواه الامام احمد بسنده عن علي . انظر : أبوشهبة - السيرة النبوية - دار القلم ج ٢ ص ١٤٣ .

﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونُ الدُّبْرَ ﴾ (٢)

(القمر / ٤٥)

بطولة فائقة يديها الرسول القائد ، ويقين بالنصر من الله تعالى وهو عامل قوي جدا لدفع الجنود إلى النصر والاخلاص في الجهاد .
— الرسول القائد يصدر أمره باستثناء بعض القرشيين من القتل، وموقف الجند من ذلك :

كان رسول الله ﷺ ذا نظرة ثابتة ورأي شديد ، وهو يعلم أن أناسا لم يخرجوا إلى محاربتة عن رغبة نفس ، بل خرجوا مكرهين ، إضافة لما لهؤلاء من مواقف في مكة إزاء المسلمين تؤخذ بعين الاعتبار والتقدير .

فالعباس بن عبدالمطلب لم يؤذ المسلمين في مكة أبدا ، بل كان يسعى وراء ابن أخيه يحوطه ويحميه ، حتى حضر معه بيعة العقبة خشية أن يصيبه مكروه . . خرج العباس مع الجيش مكرها ولعله لم يستطع مخالفة قومه حفاظا على نفسه من طيش سفهاء قريش .

وكذلك أبو البختري ، فقد كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة ، فكان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه ، وكان ممن قام في نقض الصحيفة .

أصدر الرسول القائد ﷺ أوامره بقوله :

«إني قد عرفت أن رجالا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها ، لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي منهم أحدا من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي

(٢) هذه الآية مكية قطعاً ولكن وقع مصداقها يوم بدر وهذا مما سبق نزوله معناه . ولما نزلت الآية بمكة قال ، عمر : أي جمع هذا ؟ فلما كان يوم بدر رايت رسول الله يثبت في الدرع وهو يقول : «سيهزم الجمع ، ويولون الدبر» فعرفت تأويلها يومئذ . (الاتقان ج ١ ص ٤٦) .

أبا البختری بن هشام بن الحارث بن أسد فلا یقتله^(١) . ومن لقی
العباس بن عبدالمطلب - عم رسول الله ﷺ - فلا یقتله ، فإنه إنما أخرج
مستكرها .

ورغم أن هذه الأوامر الصارمة قد لا يفقه المغزی منها ناس كثیرون من
الجیش إلا أنهم قبلوها برحابة صدر لعلمهم بنزاهة قائدهم وبعد نظره في
سیاسة الأمور ، إلا ما حدث من أبي حذيفة من معارضة في بداية الأمر
سرعان ما تراجع عنها وندم على ما قاله فيها .

قال أبو حذيفة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا - وفي رواية وإخواننا -
وعشيرتنا ونترك العباس ؟ والله لئن لقيته لأجمنه السیف^(١) .

فلما علم الرسول القائد عليه السلام بمقالة حذيفة لم يأبه لها ، بل اكتفى
بقوله : «أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف» ولعله أراد بذلك إطفاء جمرة
الغضب من نفس حذيفة بكلمات رقيقة بعيدة عن الانتقام أو إنزال العقاب
بصاحبه من جراء كلمة قالها صاحبه تحت تأثير الغضب أو العجلة في الأمر .

لذا ندم أبو حذيفة وشعر بفداحة مقالته فكان يقول باستمرار : ما أنا
بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفا إلا أن تكفرها
عني الشهادة . فقتل يوم الیامة شهيدا .

(١) قُتل أبو البختری في غزوة بدر ، قتله المجذر بن زیاد البلوي ، وهو كاره لذلك .. لكن أبا البختری أبی
إلا النزال دفاعا عن زمیل له جاء معه من مكة ، حاول المجذر أن یأسره دون قتل ، لكنه أمام إصرار
أبي البختری على النزال قتله ، ثم جاء إلى رسول الله ، وقال : والذي بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن
یستأسر فأتيتك به فأبى إلا أن یقاتلني فقتلته (ابن هشام ج ٢ ص ٦٢٠) ولا يعد هذا مخالفة لأمر
القائد .

(٢) قال ابن هشام : ویقال لأجمنه السیف .

وهذا استطاع الرسول القائد ﷺ أن يقتل بذور الفتنة في مهدها وذلك بالقدرة الفائقة على معالجة أمثال هذه الأمور الخطيرة التي تفاجئ القائد من حين لآخر، وتنغص صفوف الجو الجهادي الذي يعيشه الجند، ولولا حكمة القائد في التصرف لتطورت الأمور إلى مالا تؤمن غائلته، ولا يحمد عقباه .

— الهزيمة الساحقة تلحق بجيش المشركين :

تداعت صفوف المشركين وتهافت هواه الخائرة أمام هجمات جند الله وضرباتهم القوية، فاندحر المشركون وسقطوا بين قتيل وجريح وأسير وفار يرجو لنفسه النجاة. وصرع في هذه الغزوة صناديد قريش وزعمائها، كل في الموطن الذي حدده الرسول القائد بإلهام من ربه عز وجل . . فقد لقي سبعون مصرعهم ، منهم :

— أبو جهل بن هشام

— أمية بن خلف

— العاص بن وائل أبو البختري

— عبدالله بن الجراح (والد أبي عبيدة) . . وآخرون .

ولما توقفت الحرب أقبل الرسول القائد حتى وقف على القتلى فقال : «بئس العشيرة كنتم، كذبتُموني وصدقني الناس، وخذلتُموني ونصرني الناس، وأخرجتُموني وآواني الناس» .

ثم أمر بهم فسحبوا إلى القليب فطرحوا فيه ثم أهيل عليهم التراب، ثم قال عليه السلام مخاطبا أهل القليب : «هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا» ولعل في ذلك إشارة إلى اغترارهم بوعود الشيطان الذي قاد بهم الركب إلى الحرب وأوغر صدورهم حقدا على المسلمين ولما جد الجدد نكص على عقبيه .

قال تعالى :

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ

الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ

النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِئَتَانِ نَكَصَ

عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ

إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿

(الأنفال / ٤٨)

وقد قال عليه السلام كلمته مقيما عليهم الحجة ، فقد جاهد طويلا في سبيل دعوتهم إلى الاسلام وألح في الدعوة يريد هدايتهم فينكصون على أعقابهم حتى عاتبه ربه قائلا له :

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

(فاطر / ٨)

ولعل في مقالته هذه عبرة وذكرى لأولئك الأسرى الذين وقعوا بين يدي القائد المظفر وجنده الأبطال ينتظرون مصيرهم عسى أن تنفذ هذه الكلمات إلى عقولهم فتخبت لها قلوبهم وليكونوا في صف المسلمين بعد أن كانوا أعداء لهم .

— المدينة تتلقى بشائر النصر :

لما انتهت المعركة وقد كسب فيها المسلمون مكاسب جمة من نصر وغنائم وأسرى رأى الرسول القائد أن يزف البشرى لأهل المدينة الذين جلسوا يترقبون ما تأتي به الأيام من أخبار في أول التحام بين جنود الايمان وجنود الكفر والطغيان خاصة بعد ارجاف اليهود والمنافقين في المدينة أن محمدا قد قتل .

أرسل الرسول القائد عليه السلام عبدالله بن رواحة بشيرا إلى أهل العالية، وزيد بن حارثة إلى أهل السافلة. ولما بلغ الخبر أهل المدينة عمت الفرحة وخرج الناس يستقبلون القائد المظفر وجنده الميامين خارج المدينة .

— الجيش يتحرك نحو المدينة والرسول القائد يصدر قراراته :

بعد أن أقام الجيش ببدر ثلاثة أيام ليسد باب الرجعة على فلول الجيش المهزوم وليأخذ قسطا من الراحة أصدر القائد العام للجند أوامره لجنده بالتحرك إلى المدينة .

— مسألة الغنائم وحلها :

طرحت هذه المسألة على الجند قبل الرحيل من بدر حيث وقع الخلاف في مسألة الغنائم واشتد الخلاف فيها، فقد تسابق بعض الجند إلى حيازة ما غنمه في المعركة والاستئثار به، فقال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها، وليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو، لستم أحق بها منا، نحن نحينا منها العدو وهزمناه، وقال الذين أهدقوا برسول الله : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا بها .

أمور بدرت من الصحابة ما كانت لتقع خاصة بعد حلاوة النصر على العدو لكن إذا رجعنا إلى الوراء قليلا نجد أنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم وعضهم الفقر والفاقة وضحووا في سبيل الله بأنفسهم وأولادهم فلا ضير أن يسعوا إلى استرداد ما ضاع منهم سابقا، لكن الأمر شائك خاصة في هذه اللحظة التي عقب النصر . وإذا بالرسول القائد عليه الصلاة والسلام أمر أن يرد الجميع ما بأيديهم حتى يصدر الله حكمه فيها عندها لا يبقى للمؤمنين إلا الرضا بما قسمه الله لهم فنزل قوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ
وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴾

(الأنفال / ١)

فقسمها رسول الله بين المسلمين بما أراه الله تعالى .

هذا فقد كان الرسول القائد يولي حالة الخصاصة التي كان عليها أصحابه
باهتمام كبير ويتألم لحالهم ويسأل الله أن يكشف كرباتهم .

عن عبدالله بن عمرو قال : خرج رسول الله ﷺ يوم بدر في ثلاثمائة وخمسة
عشر رجلاً من أصحابه ، فلما انتهى إليها قال : « اللهم إني جياع
فأشبعهم ، اللهم إني حفاة فاحملهم ، اللهم إني عراة فاكسهم » ففتح الله
له يوم بدر ، فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بحمل أو حملين
واكتسوا وشبعوا .

— معاقبة المجرمين :

رأى الرسول القائد أن يقتص من بعض المجرمين الذين ناصبوه العدا ،
وكالوا له ولأصحابه أصنافاً من الأذيات ، بل كانوا السبب الرئيسي لكل ما
نزل بالمسلمين من ويلات ، وفي طريق العودة إلى المدينة أمر عليه السلام
بالقصاص من :

١ - النضر بن الحارث ، وكان من أكابر مجرمي قريش ، أمر علياً أن يضرب
عنقه ، فقتله في منطقة اسمها الصفراء .

٢ - عقبة بن أبي معيط ، عدو الرسول الألد ، ألقى سلا جزور على رأسه
عليه السلام وهو يصلي ، وخنقه بردائه وكاد يقتله لولا تدخل أبي بكر ،

وسلسلة جرائمه كثيرة وسجله ملوث بدماء المستضعفين من المسلمين .
قتله عاصم بن ثابت الأنصاري ، بمكان اسمه عرق الظبية^(١) وقيل
قتله علي بن أبي طالب .

وهذا الاجراء الحازم من الرسول القائد تنفيذ لأمر الله تعالى وإرهاب لكل
من تحدّثه نفسه النيل من الاسلام وأهله من المشركين أو المنافقين الذين بلا
شك لم يذوقوا برد العيش منذ أن نصر الله رسوله والمؤمنين .

— الرسول القائد يدخل المدينة قبل الأسرى :

دخل الرسول ﷺ المدينة قبل الأسرى بيوم واحد ليعطي الفرصة
للمهثئين ، وهو يعلم أن أفواجا من الناس ستقبل عليه إما للتهنئة بالنصر ،
وإما لاعلان إسلامهم بعدما رأوا من الآيات المؤيدة لرسول الله عليه السلام ،
فقد جاءت الآيات ترى من نصر وتمكين في الأرض وإرجاف للأعداء
الكافرين ، فأسرع الناس من مختلف القبائل يعلنون الولاء للرسول القائد
ويشهرون إسلامهم بين يديه عليه الصلاة والسلام .

— تقسيم الغنائم وتوصية الرسول القائد بالأسرى خيرا :

سبق أن رأينا أن الرسول ﷺ لما رأى اختلاف أصحابه في الغنائم يتعقد
حتى ليكاد يفسد على الناس فرحتهم بالنصر أمر بردها إليه دون مساس أو
غلول حتى يحكم الله فيها فأنزل المولى عز وجل حكمه فيها . . قال تعالى :

﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ (الأنفال / ٤١)

(١) ابن هشام . السيرة النبوية ج ٢ ص ٦٤٤ .

فأقبل رسول الله ﷺ حتى إذا خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب فقسم هنالك النفل الذي أفاء الله على المسلمين على السواء، ثم أوصى عليه السلام بالأسارى خيرا وأمر أصحابه أن يحسنوا إليهم. . قال: «استوصوا بالأسارى خيرا» فسارع الصحابة الكرام رضوان الله عليهم إلى العمل بوصية قائدهم، فكانوا يحسنون لأسراهم ويخصونهم بأحسن الطعام .

قال أبو عزيز بن عمير : وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر .

وقال : ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها . قال : فأستحي فأردها على أحدهم فيردها عليّ ما يمسّها .

إنه خلق رفيع ، ونفس أبيّة عالية تربت على يد المعلم والمربي الأول للأمة الاسلامية . أمرهم عليه السلام بالاحسان إلى أسراهم فسارعوا إلى ذلك، وتسابقوا فيه ، وما كان ذلك ليتم لولا الأثر البالغ للتربية الناجحة التي تلقاها الجند من قائدهم الأعلى .

— الرسول القائد يستشير أصحابه في الأسارى :

لم يتصوف الرسول القائد عليه الصلاة والسلام في الأسارى بمفرده، ولو فعل ذلك فإنه جدير به وأهل لكل رأي سديد، لكنه عليه السلام كعادته عود أصحابه إشراكهم الرأي في كل المهمات .

فاستشار أبا بكر فكان رآيه قبول الفدية، قال: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا .

واستشار عمر فكان رآيه الحزم في الأمر والانتقام من المجرمين وأعداء

الدين . قال : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكنني من فلان - قريب عمر- فأضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هودة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم .

لكن الرسول القائد ﷺ مال إلى تصويب رأي أبي بكر لأنه يمثل الأغلبية ويحقق مصلحة للاسلام وأهله ، ورأى أن يأخذ الفدية . لكن القرآن الكريم جاء موافقا لرأي عمر ، ومعاتبا لرسول الله ﷺ .

ولعل العتاب من السماء لأمرين اثنين : لعدم الاثخان في القتل ، وقبول الفداء . . قال تعالى :

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ
لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخِصَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦٧)
﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ
اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(الأنفال / ٦٧ / ٦٨)

لم يكن تصرف القائد في أخذ الفداء خطأ ؛ لأنه يعلم أن الله تعالى سبق أن أعطاه الاختيار في الأسرى ، المن أو الفداء ، حيث قال :

﴿ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾
(محمد / ٤)

ولكن الرسول القائد عليه السلام بعد استشارة واسعة رأى أن يأخذ باللين والرفق ، ليحقق بذلك فائدتين :

١ - امكانية دخول الأسارى أو البعض منهم في دين الله تعالى ، وهؤلاء زعماء

قريش قد يكون من رواء إسلامهم دخول أتباعهم في الإسلام فيحرز الإسلام بذلك نصرا كبيرا .

٢ - تقوية صفوف المسلمين بما ينالونه من فداء يذهب عوزهم ويمحو فقرهم ، وهؤلاء زعماء قريش تدفع قبائلهم المال الكثير من أجلهم ولا تبالي . . فهذا مصعب بن عمير - رضي الله تعالى عنه - يرى أخاه في الأسر فيأمر صاحبه الذي أسره أن يغالي فيه ويطلب المزيد من المال . وهذا أبو عزيز يقول : مرّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني^(١) ، فقال : شد يدك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك . ففدته بأغلى ما فدي به أسير ، فدته بأربعة آلاف درهم .

لكن إرادة الله غالبية فنزل العتاب من السماء على رسول الله ﷺ يلومه على الأخذ باللين في وقت لا ينفع فيه إلا الأخذ بالشدة والاثخان في القتل خاصة وإن الإسلام لا يزال في بداية طريقه الطويل في الجهاد .

وهذا تقدير من الله عز وجل حتى يشرع للمسلمين جواز أخذ الغنائم في الحرب ، وكانت محرمة في الديانات قبلهم على أتباع الرسول ، وهي منة من الله وفضل على عباده المؤمنين .

(١) الأنصاري : هو أبو البسر (انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٤٥) .

غزوة أحد

(شوال سنة ٣ هـ)

- قائد المسلمين: رسول الله ﷺ
- قائد المشركين: أبو سفيان بن حرب
- المشاركون من المسلمين: ٧٠٠ مقاتل
(١٠٠ دارع + ٥٠ راميا + فارس واحد + ٥٥٠ مشاة)
- المقاتلون من المشركين: ٣٠٠٠ مقاتل
(٧٠٠ دارع + ١٠٠ رام + ٢٠٠ فارس + ٢٠٠٠ مشاة)
- النتيجة:
استشهد: ٧٠
قتل من المشركين: ٢٣

غزوة أحد

— استعدادات القرشيين للغزو :

لا أحد ينكر النصر الساحق الذي حققه المسلمون في غزوة بدر ضد أعدائهم رغم قلة عددهم فإن الهزيمة النكراء للقرشيين جعلتهم يفكرون في الأخذ بالثأر من محمد ﷺ وأصحابه ليستعيدوا هيبتهم وسمعتهم عند العرب، وها هو أحد قادتهم صفوان بن أمية يحثهم على ذلك بقوله :

«يا معشر قريش إن محمدا قد وترككم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربته، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا» .

وهو يشير إلى أموال القافلة التي نجت في بدر بأرباحها الطائلة لتكون ممولا لحربهم ضد المسلمين خاصة أن هذه الأموال لا تزال موجودة لم توزع ولم تقسم ولم ينقص منها شيء .

بالإضافة إلى عزم القرشيين على فك الحصار الاقتصادي الذي ضربه المسلمون على تجارتهم وذلك عن طريق السرايا المكثفة التي كان يرسلها محمد ﷺ لاعتراض غير قريش والاستيلاء على أموالها استردادا للحقوق ولا يتم ذلك إلا بالقوة فكان الاستعداد لغزو المسلمين ومفاجأتهم في عقر دارهم، ولكن الله أراد أن يكشف أمرهم وأن يسخر أحدا منهم ليقدم الاسلام والمسلمين وقائدهم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، بأن قام العباس بن عبدالمطلب بتبليغ الرسول ﷺ بعزم قريش على المسير إلى المدينة .

— وصول الخبر إلى القائد بخروج المشركين للغزو :

إذا كان خروج العباس بن عبدالمطلب عم الرسول ﷺ في غزوة بدر على مضض لأنه يكره أن يواجه ابن أخيه والمسلمين فإنه تمكن من عدم الخروج في غزوة أحد وأقدم على عمل خطير لو تفتنت إليه قريش لقتلته بسببه ، لأنه يعد خيانة عظمى في نظر العسكريين إذ أرسل رسالة إلى القائد محمد ﷺ يُعلمه فيها بخروج قريش لحربه ومباغتته وليفوت الفرصة على المشركين ويمكن الرسول القائد ﷺ ولو في ظرف وجيز من أن يعد العدة حتى لا يؤخذ على غرة إذ يقول له فيها :

«اصنع ما كنت صانعا إذا وردوا عليك وتقدم في استعداد التأهب» .

وكان العباس - رضي الله عنه - حريصا على أن يتسلم ابن أخيه هذه الرسالة قبل أن تصل قريش إلى مشارف المدينة ، إذ أرسلها مع رجل من بني غفار واشترط عليه أن يوصلها إلى الرسول نفسه ﷺ بعد ثلاثة أيام ، ومعلوم أن تحرك الأفراد أسرع بكثير من تحرك الجماعات .

وفعلا وصلت الرسالة إلى القائد محمد ﷺ مختومة ففك ختمها ودفعها إلى أبي بن كعب ليقرأها عليه ولم علم الرسول ﷺ بفحواها استكتمه على ذلك .

— القائد يستشير أصحابه :

ولما تأكد خبر خروج القرشيين لمحاربة المسلمين جمع رسول الله ﷺ أصحابه ليعلمهم بما أقدمت عليه قريش من السير إلى قتالهم وليستشيرهم في اختيار ميدان المعركة ، وأعلمهم بأنه يرى التحصن في المدينة وانتظار العدو وعدم الخروج إليه لقتاله فإن اختار الأعداء إقامته في المعسكر فإن مقامهم مقام شر ولا فائدة فيه ولا جدوى ترجى منه ، وإن حاولوا الدخول

إلى المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة وساعدتهم الصبيان والنساء برمي الحجارة على الأعداء من فوق الأسطح ، وقد وافقه على هذا الرأي عبد الله بن أبي بن سلول بصفته أحد زعماء الخزرج ، وكان يرمي من موافقته هذه إلى الابتعاد ما أمكن عن القتال ، إلا أن الأكثرية من الصحابة وخاصة الشباب منهم والذين فاتهم شرف المشاركة في بدر كانوا مندفعين إلى القتال وفضلوا الخروج إلى العدو حتى لا يستهين بهم ولا يفكر مرة أخرى في قتالهم .

ولما كان الأمر شوري بينهم تنازل الرسول القائد ﷺ عن رأيه وأخذ برأي الأغلبية وليس لأمرته وقاد المسلمين إلى موقع المعركة «أحد» .

— إعلان حالة الطوارئ وحراسة المدينة لتأمينها :

١ - حراسة المدينة :

لما وصل خبر مسير قريش إلى رسول الله ﷺ واقترابها من المدينة المنورة استنفر الرسول القائد ﷺ الناس وأعلن حالة الطوارئ ليتجهز الجميع إلى القتال وأمضوا ليلتهم في حذر شديد كل يصحب سلاحه ولا يفارقه حتى عند نومه .

واختار الرسول القائد ﷺ خمسين رجلاً من أشداء المسلمين ومحاربيهم بقيادة محمد بن مسلمة الأنصاري لحراسة المدينة . وهذا الاجراء يوفر الأمن العسكري لسكان المدينة عامة وللمقاتلين خاصة الذين يحتاجون إلى الراحة والنوم ولا يتسنى ذلك إلا بالحراسة الشديدة التي تدخل الطمأنينة على النفوس لتهدأ وتهدأ وتنام .

واهتم جمع من الصحابة بحراسة الرسول ﷺ فبات سعد بن معاذ وسعد بن عباد وأسيد بن حضير وآخرون ليلة الجمعة مدججين بالسلاح

يحرصون رسول الله ﷺ عند باب المسجد .

ب - إرسال العيون للاستطلاع :

ولما عسكر أبو سفيان وجنوده بالقرب من المدينة أرسل القائد محمد ﷺ رجلين من الصحابة هما أنس ومؤنس ابنا فضالة الظفرين ليأتياه ببعض المعلومات عن العدو من حيث المكان الذي اختاره وبعض أفعاله وتحركاته وبعد ذلك أرسل عليه السلام أحد القادة العسكريين المحنكين من الأنصار وهو الحباب بن المنذر بن الجموح ، وقال له :

«إذا رجعت فلا تخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى في القوم قلة» .

فذهب الحباب مستخفيا متنكرا حتى تخللهم ودخل في صفوفهم دون أن يتفطن إليه أحد أو يشعر به أحد وعاد سالما إلى قائده عليه السلام يرد الخبر بقوله :

«رأيت عددا حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا ، والخييل مائتي فارس ، ورأيت دروعا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع» .

قال عليه السلام : «هل رأيت ظعنا ؟»^(١)

قال الحباب : رأيت النساء معهن الدفوف والأكبار . فقال رسول الله ﷺ : «أردن أن يخرضن القوم ويذكرنهم قتلى بدر» .

ولما كان عدد الأعداء كبيرا قال رسول الله ﷺ : «لا تذكروا من شأنهم حرفا حسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم بك أجول وبك أصول» .

— الحزم وصدق العزيمة :

ولما استقر الرأي على الخروج إلى العدو ، صلى الرسول القائد ﷺ بالناس

(١) الظعن : جمع ظعينة وهي المرأة .

ووعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد والتهيز والاستعداد للعدو فخطب فيهم
يخرضهم على القتال ويحضهم على الثبات والصبر ويبشرهم بالنصر إن هم
صبروا واتقوا ربهم ، ويأمرهم بالطاعة .

وبما جاء في خطبته صلى الله عليه وسلم ، قوله :
«أوصيكم بما أوصاني به ربي في كتابه من العمل بطاعته والتناهي عن
محارمه ، عليكم بتقوى الله والصبر عند اليأس إذا لقيتم العدو وانظروا ماذا
أمركم الله فافعلوا» .

وفرح الناس بذلك ولما صلى الرسول ﷺ بالناس العصر احتشدوا وتجمعوا
وكلهم استعداد لما يأمر به قائدهم عليه السلام ، ثم دخل الرسول ﷺ بيته
ومعه صاحبه أبو بكر وعمر فعمّاه وألبساه لباس الحرب إذ لبس درعين وتقلد
السيف ثم خرج على الناس ، وكان الناس ينتظرون خروجه ، وقد قال لهم
سعد بن معاذ وأسيد بن حضير :

«استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج ، فردوا الأمر إليه» .
فندموا جميعا على ما صنعوا وتوجهوا إلى رسول الله ﷺ قائلين له :
«يا رسول الله ، ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت إن أحببت أن
نمكث بالمدينة فافعل» .

فرد رسول الله ﷺ بكل حزم وإصرار : «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته^(١)
أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه» .

واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم وأذن بالرحيل فتحرك الجيش
نحو الشمال .

(١) لأمته : درعه .

— القائد يتفقد جنده :

لما وصل الجيش إلى مقام يقال له «الشيخان» استعرض الرسول القائد ﷺ جنده ورد من استصغره ولم يره مطيقا للقتال وأجاز عليه السلام رافع بن خديج وسمرة بن الجندب على صغر سنهما، وذلك أن رافعا كان ماهرا في رماية النبال، وأما سمرة فكان أقوى من رافع لأنه صرعه، وهذا دليل على عزمهما وإصرارهما على الخروج إلى جانب قائدهما رسول الله ﷺ .

وفي هذا المكان أدركهم المساء فصلى الرسول القائد ﷺ بجنده المغرب ثم صلى العشاء وبات هنالك لأخذ قسط من الراحة تحت حراسة مشددة قام بها خمسون من المقاتلين الأشداء يتقدمهم محمد بن مسلمة، وتولى ذكوان بن عبد قيس حراسة النبي ﷺ خاصة، وحراسة المقاتلين لقائدهم - ولو كان رسولا - أمر يفرضه الموقف وتحتمة الرغبة في نجاح المعركة وعلى القائد أن يقبل ذلك لأن في حياته حياة للدعوة وفي فقدانه خسارة للمعركة . ولم ينكر الرسول ﷺ ذلك مع شجاعته وعصمة الله له، وإنما عدّه عليه السلام من باب الأخذ بالأسباب وحسن الظن بالله .

— موقف القائد من تخاذل المنافقين :

لما كان الجيش الاسلامي على مقربة من العدو بحيث يراهم ويرونه وأصبح القتال لا محالة، عندها تمرد عبدالله بن أبي بن سلول المنافق وانسحب بنحو ثلاثمائة مقاتل متعللا ومتظاهرا بالاحتجاج بقوله :
«أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس» .

فرجع بمن اتبعه من أهل النفاق والريب، وكان الهدف الرئيسي من هذا التمرد في هذا الظرف الدقيق إحداث البلبلة والاضطراب في جيش المسلمين

على مرأى ومسمع من الأعداء .

وحاول عبدالله بن حرام والد جابر بن عبدالله تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم فتبعهم وهو يوبخهم ويحضهم على الرجوع ، ولما لم يمتثلوا إلى أمره دجا عليهم بقوله :

«أبعدكم الله ، أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه» .
وقد فضحهم القرآن بقوله تعالى :

﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَّاكُمْ هُمُ لِلْكَفْرِ
يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ
فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِهِمْ
وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتِلُوا قُلْ فَادْرَأْهُ وَعَنْ أَنْفُسِكُمْ
الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

(آل عمران / ١٦٧ / ١٦٨)

هذا الخذلان وهذا التراجع قابله الرسول القائد ﷺ بكل صبر وحكمة ،
وأهمله ولم يعره اهتماما حتى لا يعلي من شأن هؤلاء المنافقين ، وواصل سيره
نحو العدو متجنباً المرور المباشر أمامهم ومتخذاً مسلكاً صغيراً بين البساتين
للتمويه على الأعداء متجنباً الاصطدام المباشر في هذا الظرف الدقيق ،
ويظهر ذلك في قوله عليه السلام :

«من يخرج بنا على القوم من كتيب - أي من طريق قريب - لا يمر بنا
عليهم ؟» .

فقال أبو خيثمة : أنا يا رسول الله .

وسار الجيش بين البساتين بعيدا عن أنظار العدو ، وقد أمر الرسول ﷺ جنده بخفض الصوت وتجنب الحركات العنيفة حتى لا يفطن إليهم العدو . وهذه الاحتياطات الأمنية العسكرية وصل بقية الجيش الاسلامي وعدده سبعمائة مقاتل إلى مكان المعركة دون أن يشعر بهم أحد أو يتعرض لهم أحد .

— التعليمات والأوامر العسكرية :

اختار الرسول القائد ﷺ معسكره في الوادي قريبا من جيش قريش وجعل ظهر الجيش الاسلامي إلى جبل أحد ووضع على الجبل خمسين راميا بقيادة عبدالله بن جبير ، وهكذا احتل القائد عليه السلام أفضل موقع من ميدان المعركة رغم وصوله بعد العدو ، إذ حمى ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل ، ثم إن الموضع المختار مرتفع عن موضع الأعداء .

واختار عليه السلام ثلاث رايات فأعطى :

— راية الخزرج إلى الحباب بن المنذر

— راية الأوس إلى أسيد بن حضير

— راية المهاجرين إلى مصعب بن عمير

ليكون التنافس على أشده .

كما اختار الرسول القائد ﷺ شعارا للمعركة «أَمِتْ أَمِتْ» أي اقتل اقتل ، ليرفع من معنويات المسلمين في القتال ويهرب بذلك المقاتلين المشركين .

— تخصيص الرماة بأوامر قاطعة وجازمة :

خص الرسول القائد ﷺ الرماة الذين اختارهم بأوامر صارمة نظرا للمهمة الجسيمة والخطيرة الموكلة إليهم ، ونظرا لأن موضعهم دقيق وحساس ، فقال : «لا تبرحوا حتى أذن لكم ، لا يقاتلن أحد حتى أمره بالقتال» .

وتوجه عليه السلام إلى أمير الرماة عبد الله بن جبير قائلاً :

«إذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل في عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم . .
وإذا رأيتمونا نُقتل فلا تغيثونا ولا تدافعوا عنا وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا
تقدم على النبل . . إنا لا نزال غالبين ما مكثتم مكانكم . . اللهم إني أشهدك
عليهم» .

— القائد يتابع المبارزة أولى جولات المعركة :

اشتعل فتيل المعركة بتقدم طلحة بن أبي طلحة العبدى أحد المشركين،
وهو راكب جملة يحمل اللواء ويدعو إلى المبارزة الفردية وكان من أشجع فرسان
قريش، فتقدم إليه الزبير بن العوام ولم يمهله، بل وثب إليه حتى صار معه
على جملة وألقاه أرضاً وذبحه بسيفه .

جرى كل ذلك على مرأى ومسمع من رسول الله ﷺ ، وقد سر بهذا
الصراع الرائع والشجاعة النادرة التي أظهرها أحد أبطال المسلمين، فكبر وكبر
المسلمون معه وأثنى على الزبير .

واندلعت نيران المعركة بين الفريقين في كل نقطة من نقاط الميدان، وكان
ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين، فكلما حمل اللواء مشرك إلا وانقض
عليه بطل مسلم يرديه قتيلاً . . فتمكن حمزة بن عبدالمطلب من عثمان بن أبي
طلحة، وسعد بن أبي وقاص من أبي سعيد بن أبي طلحة، وعاصم بن ثابت
من مسافع بن طلحة بن أبي طلحة، والزبير بن العوام من كلاب بن
طلحة بن أبي طلحة، وطلحة بن عبيد الله من الحلاس بن طلحة بن أبي
طلحة . . ثم حمل اللواء أرطاة بن شرحبيل من بني عبدالدار ، فقتله علي بن
أبي طالب . . حتى قتل جميع من حمل اللواء من المشركين ولم يتقدم أحد
لحملة إلا غلام حبشي اسمه صواب، وقتل كذلك رغم ما أبداه من شجاعة

فائقة ، ليسقط لواء المشركين على الأرض ولم يتجرأ أحد على حمله .

وفي أماكن أخرى من ميدان المعركة دار قتال عنيف أظهر فيه المسلمون شجاعة نادرة وهم يرددون شعار المعركة «أمت أمت» وهكذا يتضح أن الجيش الاسلامي سيطر على الموقف وكسب المعركة من جميع جوانبها وخارت عزائم المشركين ففروا ، فتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم .

— أثر مخالفة الرّماة لأوامر القائد :

لما رأى الرماة أن المسلمين حققوا انتصارا باهرا وبدأوا يجمعون الغنائم ، قال بعضهم لبعض : الغنيمة الغنيمة ، ظهر أصحابكم فماذا تنتظرون ؟

فانسأقت الأغلبية وراء الرّغبة في الاستيلاء على الغنائم وعددهم أربعون ونسوا ما أمر به قائدهم رسول الله ﷺ فما كان من عبد الله بن جبير إلّا أن ذكرهم بأمر رسول الله ﷺ إلّا أنهم أصرّوا على الالتحاق بالجيش وأخذ نصيبهم من غنائم العدو فتركوا موقعهم من الجبل ولم يبق إلّا قائدهم عبد الله بن جبير وتسعة من أصحابه الذين التزموا مكانهم مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يبادوا عن آخرهم .

وبنزول الرّماة من موقعهم انكشف ظهر الجيش الاسلامي أمام خالد بن الوليد - أحد قواد المشركين في ذلك الوقت - ليصل إلى مؤخرة الجيش الاسلامي بسرعة خاطفة وليقتل مفرزة الرماة وقائدها ولينقض على المسلمين من الخلف . . عندها تمكنت إحدى الشركات من رفع اللواء من جديد وليطوق المسلمون وفيهم رسول الله ﷺ .

مخالفة كبيرة ارتكبها أغلب الرماة لتقلب الوضع تماما ، فبعد أن كان الموقف لصالح المسلمين ، صار الموقف محرجا لهم وكاد يتسبب في مقتل

قائدهم رسول الله ﷺ . هذه الغلطة التي تركت أسوأ الأثر على نفوس المسلمين وعلى سمعتهم بعد الهيبة التي كانوا يتمتعون بها بعد معركة بدر .

— موقف الرسول القائد ﷺ من التطويق :

كان الرسول ﷺ - عند مباغته خالد للمسلمين - في مفرزة صغيرة من أصحابه الأشاوس ، فخطر الرسول القائد عليه السلام بنفسه ودعا أصحابه للتجمع وتكوين جبهة قوية تشق طريق الجيش المطوق ، ونادى بأعلى صوته للثبات في هذا الظرف الدقيق :

«هلم إليّ أنا رسول الله» .

فتفطن إليه المشركون وبدأوا يصوبون ضرباتهم نحوه .

— ثبات القائد وشجاعته في الفترات الحرجة من المعركة :

سمع المشركون صوت رسول الله ﷺ وعرفوه فكروا إليه وهاجموه ومالوا عليه بثقلهم وطمعوا في الوصول إليه والقضاء عليه ، إلا أنه عليه السلام أثبت للجميع أنه المثل الأعلى في الشجاعة والثبات والصبر وثبت معه قليل من الصحابة الذين تمكنوا من الاستماتة في القتال يتقدمهم رسول الله ﷺ .

ومر الرسول القائد ﷺ بفترات حرجة للغاية إذ كسرت رباعيته وشج رأسه وجعل يسלט الدم عنه رغم ما أبداه طلحة بن عبيدالله وسعد بن أبي وقاص من شجاعة نادرة إذ قاتلا ببسالة منقطعة النظير للذود عن رسول الله ﷺ ولم يمكنا المشركين من تحقيق هدفهم الدنيء ، إذ كانا من أمهر رماة العرب القرشيين .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

«إن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد ، وشج في رأسه فجعل يسלט

الدم عنه». ويقول :

«كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله» . .

وتذكر كتب السيرة أن الرسول القائد ﷺ أصيب في ركبتيه بجروح ووقع في حفرة حفرها المشركون وسال دمه الزكي من شجرة في جبهته حتى اخضل الدم لحيته، كما جرحت شفته السفلى وكسر أنفه، ولقد أنهك جسم الرسول ﷺ من شدة ما ألم به حيث لم يستطع أن يصلي واقفا فصلى جالسا بالمسلمين، ولم يستطع أن ينهض إلا بإعانة من طلحة بن عبيدالله الذي احتضنه حتى استوى قائما .

وقعت كل هذه الأحداث في لحظات خاطفة وأغلب الصحابة الأخيار في مقدمة الجيش، ولما شعروا بالتطورات المفاجئة جاؤوا للذود عن رسول الله ﷺ، ولما وصلوا أقاموا حوله سياجا من أجسادهم وسلاحهم لحمايته من ضربات العدو ورد هجماتهم وفيهم : أبو دجانة - مصعب بن عمير - علي بن أبي طالب - سهل بن حنيف - مالك بن سنان (والد أبي سعيد الخدري) - قتادة بن النعمان - عمر بن الخطاب - حاطب بن أبي بلتعة - أبو طلحة - وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية .

ومن الأحداث الدالة على عزم الكفار قتل محمد ﷺ ما قام به أحد زعمائهم أبي بن خلف حيث أقبل على فرسه التي ربّاها لهذا الأمر، وكان كلما يلتقي برسول الله ﷺ في مكة يقول له : «لأقتلنك عليها يا محمد» .
فيقول رسول الله ﷺ : «بل أنا قاتلك إن شاء الله» .

ولما حمي وطيس المعركة دنا من رسول الله ﷺ وهو يزجر قائلا : أي محمد لا نجوت إن نجوت . فاعترضه المجاهدون ليقتلوه . . فقال لهم رسول الله ﷺ : «استأخروا عنه» وقام وحرته في يده^(١) فرماه بها لتستقر في عنقه،

(١) وقيل أخذ الحربة من الحارث بن الصمة .

فتدحرج من على فرسه وكسر ضلع من أضلاعه ، فنجا الرسول محمد ﷺ ولم يتمكن العدو الكافر من تحقيق هدفه ، ومات عدو الله بسرف^(١) والقرشيون قافلون به إلى مكة .

ومن بين الشجعان الذين صمدوا أمام الأعداء مصعب بن عمير حتى قتل على يد أحد المشركين وهو ابن قمئة الذي ظن أنه قتل محمدا لشبهه به فانصرف إلى المشركين وهو يصيح : لقد قتلت محمدا .

فشاع خبر موت القائد عليه السلام ، وانهارت معنويات بعض المسلمين ، وارتبكوا ارتباكا شديدا وتزعزعت صفوفهم فسادها الاضطراب وعمتها الفوضى وظن المشركون أنهم نجحوا في تحقيق هدفهم ونالوا مبتغاهم .

ومن المسلمين من ألقى السلاح تأثرا بخبر موت رسول الله ﷺ وجلس وفيهم عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله فجاءهم أنس بن النضر فقال لهم : ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ﷺ . قال : فماذا تصنعون من بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لقد وجدنا بأنس بن النضر يومئذ سبعين ضربة فما عرفه إلا أخته ، عرفته بينانه^(٢) .

ولما قتل مصعب بن عمير أعطى الرسول ﷺ اللواء إلى علي بن أبي طالب ، فقاتل قتالا شديدا مع بقية الصحابة حتى تمكن الرسول ﷺ من أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق فأقبل إليهم فعرفه كعب بن مالك فنادى بأعلى صوته : « يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ » فأشار إليه أن

(١) سرف : موضع على ستة أميال من مكة .

(٢) سيرة ابن هشام ، ٢م ص ٨٣ .

اصمت لئلا يعرف المشركون موضعه . إلا أن هذا الصوت بلغ إلى مسامع المسلمين ، فتجمعوا حول الرسول ﷺ وشقوا الطريق بين المشركين بنية الانسحاب المنظم والقتال متواصل ، كل يترصد بعدوه .

وبدأت حدة الهجومات تنخفض وكأن المشركين اقتنعوا بمقتل رسول الله ﷺ فهاؤوا أنفسهم للرجوع إلى مكة ، إلا أن أبا سفيان أراد التأكد من مقتل القائد عليه السلام وهو الهدف الرئيس الذي كان يسعى إليه فصرخ بأعلى صوته قائلاً : «أفيكم محمد ؟ أفيكم ابن أبي قحافة ؟ أفيكم ابن الخطاب ؟ فلم يجبه أحد بأمر من رسول الله ﷺ فظن عدو الله أن هؤلاء قتلوا جميعاً فلو كانوا أحياء لأجابوا .

— اهتمام القائد بالعقيدة في قلب المعركة ورده على أبي سفيان :

لم يهتم القائد صلى الله عليه وسلم في بداية الأمر بكلام أبي سفيان ومحاولته التأكد من موته عليه السلام وموت صاحبيه ، وأمرهم بعدم إجابته والرد عليه . . إلا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يتمالك نفسه من مقولة أحدهم : «إن هؤلاء قد قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا» .

فأجاب عمر أبا سفيان بقوله : «كذبت يا عدو الله ، أبقى الله عليك ما يحزنك» . قال أبو سفيان اعل هبل . .

ولما ذكر العدو آلهته أمر رسول الله بإجابته والرد عليه ، فقال الصحابة : ما نقول ؟ فقال : «قولوا : الله أعلى وأجل» .

فقال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم .

فردوا عليه بعد أن أذن لهم رسول الله ﷺ بقوله :

«قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم» .

قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر .

فرد عمر بأمر من الرسول ﷺ : لا سواء قتلاتنا في الجنة وقتلاككم في النار .
وتواعد الطرفان على اللقاء عندما قال أبوسفیان «إن موعدكم بدر العام
القابل» . فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه ، قل : «نعم هو بيننا وبينك
موعد» .

— نهاية المعركة وتعقب القائد لآثار العدو :

اتفقت جلّ الروايات على أن قتل المسلمين كانوا سبعين أكثرهم من
الأنصار ، فقد استشهد منهم خمسة وستون والبقية من المهاجرين . ولم تكن
هذه الخسارة متوقعة من أحد بعد الاستعدادات الكبيرة التي قام بها الجيش
المسلم ، ولم يكن العدو نفسه يتوقعها أيضا إذ لمجرد شعوره بالانتصار خرج
مسرعا من أرض المعركة متجها نحو مكة ومخلفا وراءه ثلاثة وعشرون قتيلًا .
فأرسل الرسول القائد ﷺ عليا بن أبي طالب ليراقب العدو ، وقال له :
«اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون؟ فإن هم جنبوا
الخيّل وامتطوا الابل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الابل
فإنهم يريدون المدينة ، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم ثم
لأناجزنهم فيها» .

وفي قول رسول الله ﷺ دلالة على أن :

- ركوب الابل يدل على أن الجيش عازم على قطع مسافات طويلة .
- ركوب الخيل يدل على أن الجيش عازم على قطع مسافات قصيرة ، وأنه
قد اقترب من هدفه وأن الجيش جاهز للإغارة والمباغطة إذ الخيل معروفة
بالإغارة .

قال علي بن أبي طالب : فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون فوجدتهم

قد جنّبوا الخيل وامتطوا الابل ووجهوا إلى مكة .

ثم عاد الرسول القائد ﷺ وجنّوده إلى المدينة وقد أنهكهم التعب وبات القائد عليه السلام يفكر في الموقف ولم يهدأ له بال إذ من المحتمل جدا أن يغيّر العدو رأيه ويغيّر على المدينة مرة أخرى ، ولذلك أمر عليه السلام بحراسة المدينة ومداخلها حتى لا يفاجئهم العدو الذي لم يحقق هدفه ولم يستفد شيئا من النصر والغلبة التي حققها على ساحة القتال .

ولم يتوقف الرسول ﷺ عند هذا الحد بل واصل الأخذ بالحيلة والحذر لأنه لا يطمئن أبدا إلى المشركين المعروفين بالغدر والمكيدة ، ولذلك أخذ يتحسس أخبارهم ويسأل عن تحركاتهم . . فالتقى عليه السلام برجل من أهل مكة قدم إلى المدينة لساعته ، فسأله الرسول القائد ﷺ عن أبي سفيان وأصحابه ، فقال :

« نازلتهم فسمعتهم يتلاومون ويقول بعضهم لبعض لم تصنعوا شيئا أصبتم شوكة القوم وحدّهم ثم تركتموهم ولم تبتروهم ، فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم»^(١) .

ولذلك صمّم الرسول القائد ﷺ أن يقوم بمطاردة الجيش المكي وتعقب آثاره . . وفي صباح الغد من يوم المعركة أمر عليه السلام أن ينادى في الناس ، وندبهم إلى المسير للقاء العدو ، وقال :

« لا يخرج معنا إلا من شهد القتال » .

واستجاب المسلمون على ما بهم من جراح وقالوا : سمعنا وطاعة .

وسار رسول الله ﷺ وجنّوده حتى بلغوا حمراء الأسد على ثمانية أميال من

(١) المدرسة النبوية العسكرية ، ص ٧٤ .

المدينة، فعسكروا بها، بينما كان المشركون ينوون العودة بعد مسافة ست وثلاثين ميلا فتلاوموا فيما بينهم لأنهم لم يستأصلوا شأفة المسلمين، وبعد أخذ ورد نصحهم صفوان بن أمية أحد زعمائهم بمواصلة الطريق إلى مكة على هذا الانتصار أفضل من الدخول في حرب غير مضمونة النتائج وعلل ذلك بقوله :

«يا قوم لا تفعلوا ، فإني أخاف أن يجمع عليكم من تخلف عن الخروج فارجعوا والدولة لكم . . .» .

وأقام الرسول القائد ﷺ بحمراء الأسد أربعة أيام ثم رجع إلى المدينة . تلك هي نتيجة غزوة أحد إذ لم يحقق أي طرف انتصارا ساحقا على الآخر ، فلا المشركون حققوا الهدف الذي جاؤوا من أجله ، ولا المسلمون انهزموا . . إذ لو كانوا كذلك لما تمكنوا من تعقب آثار العدو وأظهروا عزمهم على القتال مرة أخرى ، وما غزوة حمراء الأسد إلا امتداد لمعركة أحد . . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

غزوة بني المصطلق
المريسيع
(شعبان - السنة الخامسة للهجرة)

المسلمون : سبعمائة رجل بقيادة رسول الله ﷺ
بني المصطلق : من خزاعة بقيادة الحارث بن ضرار
النتيجة : استشهد من المسلمين رجل واحد هو
(هشام بن صبابه) قتل بالخطأ.
قتل من بني المصطلق عشرة.
أسر الباقي
غنم المسلمون : ألفي بعير وخمسة
آلاف شاة وسببت النساء.

غزوة بني المصطلق

تمهيد :

خرج مع الرسول القائد إلى غزوة المريسيع - وهو ماء لبني المصطلق - سبعمائة رجل ، فيهم عدد كبير من المنافقين ، خرجوا لأول مرة مع رسول الله ﷺ طمعا في الغنائم ، ولأن المسافة قريبة .

أما بنو المصطلق فقد كان قائدهم الحارث بن ضرار ، جمع قومه من خزاعة - وهم حلفاء لبني مدلج - ليواجه رسول الله ، وطمع في غزو المدينة ، وظن أن المسلمين بعد أحد أصبحوا ضعافا ، وكان هؤلاء الأحابيش قد شاركوا في أحد مع المشركين ، واستطاع أن يقنع جموعا من العرب فانضموا إلى قواته وجهزهم بالخيول والسلاح .

إرسال القائد للعيون :

استخلف القائد على المدينة أبا ذر الغفاري وأرسل بريدة بن الخصيب الأسلمي يستطلع أخبارهم ، فاندس بينهم متظاهرا بمشاركتهم في حرب محمد فوجدهم مغرورين واطلع على أخبارهم ورجع إلى النبي فأخبره بأمرهم وحشدهم ، فندب الرسول الناس إلى الخروج . . وانطلق يسير ليلا حتى لا ينكشف ، وأعطى لواء المهاجرين لأبي بكر ولواء الأنصار لسعد بن عباد ، وأمسكت دورية بعين لبني المصطلق ، فدعاه الرسول ﷺ إلى الاسلام فأبى فضرب عنقه لأنه جاسوس محارب ورفض الاسلام .

القائد في طريقه إلى المعركة :

لما بلغ الخبر الحارث خاف وانفض كثير ممن معه ، ووصل الرسول القائد

إلى المريسيع ودعا القوم إلى الاسلام فرفضوا فأمر القائد بالحملة عليهم فما أفلت منهم أحد، وكان شعار المسلمين «يا منصور أمت أمت» وأسفرت الغزوة عن استشهاد صحابي واحد هو هشام بن صبابه، قتل خطأ، ظن قاتله الأنصاري أنه من الأعداء، فكان له دية مسلمة إلى أهله، وقد جاء أخوه مقيس بن صبابه من مكة مظهرا الاسلام وطالب بالدية فأعطاهها له القائد وأقام مع المسلمين حتى تمكن من قتل قاتل أخيه ثم ارتد وعاد إلى مكة، فما كان من القائد مقابل هاتين الجريمتين:

— القتل بعد أخذ الدية (والقتل خطأ فلا قصاص).

— الردة بعد اظهار الاسلام .

إلا أن يهدر دمه ولو تعلق بأستار الكعبة . وقد قتل بعد فتح مكة، وهكذا يكون الموقف من المرتد .

صبر القائد على المنافقين :

لم تكن نتائج غزوة بني المصطلق من الناحية العسكرية مكلفة، فقد قتل من جانب بني المصطلق عشرة، وأسر الباقي، وغنم المسلمون ألفي بعير وخمسة آلاف شاة وسبيت النساء، وقد قسم الرسول القائد أربعة أخماس الغنيمة على المقاتلين: للفارس سهمان وللراجل سهم .

لكن الأحداث الجسام التي وقعت في هذه الغزوة وفتن المنافقين التي اقترفوها أثناءها كادت أن تعصف بوحدة الصف المسلم، فقد أحدث المنافقون إرباكا وأحيوا فتنة العصبية وأسأوا إلى مقام الرسول بنشر القالة حول عرضه . . وصدق الله العظيم حيث قال :

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ

مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ

الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾
لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٤٨﴾

(التوبة / ٤٧ / ٤٨)

ولولا مصابرة الرسول القائد ﷺ وحكمته في معالجة مؤامرات النفاق لكان
لكيدهم الأثر العظيم لكن لينه صلى الله عليه وسلم وتلطفه وبعد نظره أحبط
كيدهم وأطفأ فتنهم وفضح أمرهم .

أثر زواج القائد بجويرية على بني المصطلق :

كان بنو المصطلق من أعز العرب دارا وأشرفهم نسبا ، فلما انتهت المعركة
بأسر نسائهم كان لذلك وقع شديد على نفوسهم ، ولو استمر الأسر لترك
جراحا لا تندمل وحزازات لا تنسى ، فالمال على العربي يهون إن فقد لكن لا
يهون عليه أن ينال من عرضه أو تخدش كرامته .

لذلك لم يرتح القائد لما أسفرت عنه الغزوة من سبي واسترقاق ففتق عقله
على تصرف حكيم ، فقد كانت جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من
السبايا ، ف وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس ، فكاتبته على نفسها
وأنت النبي وقالت : «أنا جويرية . . وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك
ف وقعت في السهم لثابت ، فكاتبته على نفسي ، وجئت أستعينك على
مكاتبتني» فوجد القائد الفرصة سانحة لتخليص بني المصطلق من الأسر
الذي وقعوا فيه ، فقال لها : «هل لك في خير من ذلك؟» قالت : وما هو يا
رسول الله ؟ قال : «أقضي عنك كتابتك وأتزوجك» قالت : نعم .

وفشا خبر زواج القائد بجويرية ، وكان المسلمون عند حسن ظن نبهم وبعد نظره ، فقالوا : أصهار رسول الله يسترقون ، فأطلقوا من في أيديهم ، فأعتق بالزواج مائة بيت من بني المصطلق ، وقالت عائشة : « ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها » .

وبفضل هذا التصرف الحكيم من النبي القائد جاء الحارث وعدد من قومه مسلمين طوعية وصاروا أعوانا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم .

لقد نجت جويرية من السبي وأعتقت قومها من الأسر وسلمت أموالهم ونسأؤهم وذرائعهم ببركة الزواج الميمون وانتظمت نفوسهم لنصرة الاسلام . وبعد إسلام بني المصطلق أرسل القائد إليهم الوليد بن عقبة بن أبي معيط ليجمع زكاتهم ، فلما سمعوا بقدومه ركبوا إليه لاستقباله فخاف منهم وزعم أنهم هموا بقتله ومنعوه الزكاة . . لكن الرسول القائد أراد أن يتأكد من الخبر فبعث خالد بن الوليد وأوصاه أن يترث قبل مهاجمتهم حتى يتأكد من الأمر فوجدهم خالد ثابتين على الاسلام ومستعدين لأداء الزكاة فاعتذر لهم من تصرف الوليد بن عقبة الذي نزل فيه قوله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ مِّنْ بَنِي فَتَبَيَّنُوا

أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (الحجرات ٦)

فتنة العصبية :

أطلق المنافقون في هذه الغزوة سهاما فتاكة إلى قلب المجتمع الاسلامي كادت أن تستنزف الكثير من دمه . . لقد بدأت ظاهرة النفاق معسكرا ضخما قبيل أحد وبلغت ذروتها قوية في أحد إذ انفصل ابن أبي بثلث الجيش ، ثم أخذت في الانحسار بتصدي الرسول لها ومعالجته الحكيمة لارجافها ، فعجز المنافقون عن نصرة حلفائهم من بني النضير ، وبم يتجاوز دورهم في غزوة الأحزاب التشكيك في النصر ويوم بني المصطلق رغم الدعوة في وقاحة إلى

تمزيق الصف والتمرد على القيادة والتهديد بالثورة عند الرجوع إلى المدينة، لكن هذا الحديث لم يثبت إلا بين عشرة من الأتباع يطمأن إلى نفاقهم، ولم يعر اهتماما للغلام الحديث الذي أصغى إلى القول ونقله إلى القائد فأطفأ لهيب الفتنة .

أراد ابن أبي أن ينغص على المسلمين نصرهم في هذه الغزوة فاستغل خلافا بين غلام من المهاجرين وآخر من الأنصار حول ماء المريسيع ليشعل الفتنة، فقد صرخ جهجاه الغفاري أجير عمر بن الخطاب : «يا معشر المهاجرين» ، وصاح سنان الجهني حليف الأنصار : «يا معشر الأنصار» وكثر الازدحام واللفظ، فسمع الرسول القائد بالخصومة فسارع إلى حسم الأمر وقال : «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم !! دعوها فإنها منتنة» .

واستطاع عليه السلام أن يزيل ما بين المهاجرين والأنصار من شحنة وتدارك الأمر ونيم الفتنة ببعد نظره ورجاحة عقله . لكن رأس النفاق عاد فأيقظها وأذكى نارها ونهض مغضبا، فقال لرهط قومه وفيهم زيد بن أبي أرقم : «أو قد فعلوها؟! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما نحن وجلابيب قريش إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» .

وتنادى في عتابه لرهطه فقال : «هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم» وقال : «لا تنفقوا على من عند النبي حتى ينفضوا» ، فأخبر زيد بن أرقم قائده بما سمع .

حكمة القائد في معالجة الفتنة :

لما علم الرسول بالأمر وكان عند عمر بن الخطاب اقترح هذا الأخير أن

يقتل المنافق ابن أبي ، فأجابه القائد : «كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، ولكن آذن بالرحيل» .

فمشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم حتى أمسوا وليلتهم حتى أصبحوا ، وصدر يومهم الثاني حتى آذتهم الشمس ، فنزل بهم ، فما مست جنوبهم الأرض حتى ناموا ، واستطاع القائد أن يشغلهم عن مقولة المنافق ، ومنع تأجج الفتنة وعالج الأمر بحكمة ورحابة صدر ، برحيله في ساعة لم يكن يرحل فيها حتى سأل أسيد بن حضير عن رحله في ساعة منكرة ، فقال له عليه الصلاة والسلام : «أو ما بلغك ما قاله صاحبكم ؟ زعم أنه رجع المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» فقال أسيد : يا رسول الله أرفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه فإنه يرى أنك استلبته ملكا . ثم قال أسيد : فأنت تخرجه يارسول الله إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز .

أما ابن أبي فلما علم أن زيد بن أرقم بلغ الخبر ، جاء إلى الرسول القائد وحلف أنه لم يقل ولا تكلم به . وقال من حضر من الأنصار : عسى أن الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قاله الرجل .

وأما زيد فقد أصابه هم عظيم ، فجلس في بيته حتى أنزل الله سورة المنافقين ، فأرسل إليه النبي يبشره بأن الله صدّقه . . قال تعالى :

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ
لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۚ
وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ
﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ

مِنْهَا الْأَذَلُّ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُتَفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

(المنافقون / ٧ ، ٨)

ولما اقترح عمر قتل ابن أبي فرفض رسول الله انضبط عمر والتزم بالأمر ، لكن عبدالله بن عبدالله بن أبي عرض على القائد أن يتولى قتل والده ، إذ لا يمكنه أن يرى قاتل والده فيقتل مؤمنا بكافر ، فقال عليه السلام بسماحة القائد الحكيم : «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا» .

ولما وصل الناس المدينة وقف عبدالله الابن في وجه أبيه ومنعه الدخول إلى المدينة حتى يأذن له رسول الله العزيز ، فأذن له ودخلها ابن أبي ذليلا .

وقد كان لهذا التسامح مع الأب رغم استعداد الابن لقتله أبعاد الأثر في كشف النفاق ، فأصبح كلما أحدث ابن أبي حدثا عاتبه قومه وعنفوه ، وعرضوا على القائد قتله . . كل ذلك بفضل المعالجة الحكيمة للفتنة .

قال عليه السلام لعمر : «كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» فقال عمر : «قد والله علمت لأمر رسول لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري» .

لقد استعمل رسول الله أسلوبا عمليا لعلاج الموقف ولم يجابهه بالأقوال التي لا تزيده إلا تعقيدا فطلع على راحلته في الحر الشديد وكان لا يروح حتى يبرد ، وأجهد من معه وتكفل التعب والنسيان بامتصاص ما أفرزه الموقف من سموم في نفوس المسلمين . فما هو إلا أن خذهم السهر والتعب بالمسير فنزلوا وما يسمع لقول ابن أبي في أفواههم ذكر . وبذلك وأد القائد الفتنة قبل أن تستفحل .

كما أعطى رسول الله بمعالجته هذه الفتنة دروسا في سياسة النفوس ومعاملتها، فمن خلال لقائه بالقيادات وجد تيارين :
أحدهما يرى الرفق برأس المنافقين، والآخر يرى قتله، واختار القائد الرفق به فأصحاب هذا الرأي هم الأنصار أوثق الناس عنده وحفاظا على سمعة الاسلام ومنعا للعدو من النفاذ من ثغرة الانشقاق إلى الصف الداخلي الملتحم « فكيف إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه » « ما أردت قتله وما أمرت به » .

لكن لن تمر الوقاحة دون عقوبة حتى لا يتماذى الحاقدون في التمرد، وقد جاءت عظمة المعالجة النبوية في جعل من يحمل راية العقوبة لهذا المجرم ابنه عبدالله، ورغم جواب النبي القائد له : « بل نترفق به » ورفضه صلى الله عليه وسلم أن يأتيه برأسه فإن الابن أشعر أباه بالصغار وأبقاه رهينة على باب المدينة حتى أذن له الرسول بالدخول بعد أن أعلن الابن على ملا الدنيا أنه ينتظر إشارة من القائد ليضرب عنق أبيه، وبذلك لن يجرؤ أحد أن يتعاطف معه ما دام ابنه هو المنفذ للعقوبة .

عندها خنقت الفتنة في المهدي وبدل أن يتحول زعيم المنافقين إلى بطل شهيد ترعف أنوف لقتله تحول إلى مجمع للسخرية والمذلة . وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه .

لقد صبر القائد صلى الله عليه وسلم على المجرم حتى افتضح أمره ونبذ، ولم يستمر الرسول القائد ﷺ في مكان الفتنة لأن الكلام لا ينقطع، فقطع دابر الفتنة بالمسير مسافة طويلة أنهكت الأجسام وشغلت الألسنة .

عودة القائد من بني المصطلق :

— إيذاء الرسول القائد في شرفه وأهله :

لم يجد رأس المنافقين فرصة ينشر فيها حقه إلا من خلال حادثة الإفك، حيث استغل تأخر عائشة عن الجيش بحثا عن عقدها الذي سقط منها بعد قضاء الحاجة، ثم مجيئها مع صفوان بن المعطل، لينشر مقالة السوء ويشوه عفة عائشة ويطعن في عرض الرسول القائد وصاحبه أبي بكر الصديق. وما كان المنافقون ليجرؤوا على بث حديث الإفك والخوض فيه بعد الفضيحة التي نالتهم والتعرية التي نزلت بزعيمهم لولا انتشار الحديث في الصف المسلم مما جعل المجال رحبا ليدسوا أنوفهم فيه ويرسلوا ما في جعابهم من سهام وأفاض الناس في الحديث والقائد ساكت والأذية شديدة الوقع على نفسه لأنها مفاجئة وشائعة، لو صحت لكانت طعنة في العرض والشرف، وتأخر الوحي فلم يكشف الحقيقة ويفضح المنافقين مما زاد في معاناة القائد أكثر من شهر.

وقد ضاع دور ابن أبي في تولى كبر الإفك بسبب مشاركة المسلمين في الخوض فيه . قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾

(سورة النور/ ١١/ ١٢)

وتأثر القائد من هذه الاشاعة وصعد المنبر يعلن تأذيه من الحادثة، وقد

كان ابن أبي يسعى إلى ترويج خبر الإفك مما جعل أسيد بن حضير يعلن استعداداه لقتل المنافق . وأخذت الحمية سعد بن عبادَةَ الخزرجي فجرى بينهما كلام وكادت تحصل فتنة بين الأوس والخزرج لولا تهدئة الرسول القائد للحيين .

وبينت الحادثة الجانب الانساني في الرسول القائد فقد شك وقلب الأمور وشاور أصحابه فهو لا يطلع على الغيب ولا يعلم القصد الملق الكاذب . إنها هو بشر يوحى إليه والوحي لا يتنزل حسب رغبة الرسول وإلا لانتهدت المشكلة من أول يوم وحى عرضه وقطع لسان الأفاكين . وعندما استشار أصحابه ، منهم من نصح بالمفارقة ومنهم من أشار بالإمساك ونزه عائشة التي كانت مريضة لا تعرف ما يجري ولما علمت إزدادات حالتها سوءا . والرسول القائد يصرح أنه لا يعلم عن أهله إلا خيرا ، ويزكي صفوان بن المعطل ، فيشهد أيضا أنه لا يعلم عنه إلا خيرا ، وينادي من على المنبر :

«من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ، والله ما علمت على أهلي إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي» .

ورغم معاناته صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يخرج في معالجته لآثار القذف عن طوره وحافظ على هدوئه ، بل تدارك الأوس والخزرج قبل اقتتالهما بسبب الحية الرقطاء التي نفثت سمها وافتضح أمرها ، فبعد أن كان ابن أبي الشريف الذي لا يكذب ولا يمس ، غدا المجرم الذي يدافع عنه ألا يقتل . وحتى يمسح رسول الله ﷺ آثار فتنة الهم بالاعتقال بين الحين مكث أياما ثم أخذ بيد سعد بن معاذ في نفر ، وخرج يقوده حتى دخل به على سعد بن عبادَةَ ومن معه فتحدثا عنده ساعة وقرب سعد بن عبادَةَ طعاما فأصاب منه

رسول الله وسعد بن معاذ ومن معه، ثم خرج القائد من عند سعد ومكث أياما وفعل نفس الشيء في بيت سعد بن معاذ ليذهب ما كان في أنفسهم من قولها الذي تبادلاه بسبب زعيم المنافقين، وتخلي سعد بن عباد عن موقفه الانفعالي من ابن أبي الذي أصبح في خزي لا يؤيه له . . وذلك قبل نزول براءة عائشة .

وازدادت بذلك حركة النفاق ضعفا وانحسارا وعجزا عن المواجهة، ورغم ذلك حذر النبي القائد من موالاتهم . قال الله تعالى :

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتْ أَلْبُغَضَاءُ مِّنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(آل عمران / ١١٨)

من تطورات حادثة الإفك :

لم ينج منها حسان بن ثابت وتدخل فيها ونال من صفوان الذي غضب فضرب حسان بسيفه فوثب الأنصار وأوثقوه وأسروه أسرا قبيحا، فساقهم عمارة بن حزم إلى الرسول القائد ﷺ وتكلم حسان فاتهم صفوان بالتهجم عليه، وقال : « لا أراي إلا ميت من جراحتي » فتغيظ الرسول عليه السلام وسأله : « لم حملت عليه السلاح ؟ » فرد صفوان : إنه آذاني وهجاني وسفه علي وحسدني على الاسلام . فلام الرسول القائد حسان ثم قال : « احبسوا صفوان فإن مات حسان فاقتلوه به » .

وتداركت بذلك يد النبوة العظيمة هذا الأمر رغم الجراحات التي يقاسيها القائد من النيل من أهله ، وخرج سعد بن عبادة متراجعا عن الجدل عن المنافقين ، فقال لما علم بما فعل صفوان :

«عمدتم إلى رجل من أصحاب رسول الله تؤذونه وتهجون به بالشعر وتشتمون به . . ثم أسرتموه أقبح الأسار ورسول الله بين أظهركم ! وإن رسول الله ﷺ ليحب أن يترك صفوان ، والله لا أبرح حتى يطلق» . فاستحى القوم وأطلقوه .

ثم جاء حسان بأمر سعد فقال لرسول الله : «كل حق لي قبل صفوان فهو لك يا رسول الله» فقال القائد صلى الله عليه وسلم : «قد أحسنت وقبلت ذلك» .

ولم يسم من أهل الإفك إلا حسان ومسطح بن أثانة وحمئة بنت جحش فحدوا ، بينما الذي تولى كبره ابن أبي كان يتحدث عنده فيقره ويستحكيه ويذيعه فلم يقم عليه الحد .

ثم أنزل الله براءة عائشة وفضح المنافقين فأمسكوا عن إشاعة الفاحشة والتلاعب بالأعراض وعوقبوا بما يستحقونه .

ولو أحسن المسلمون الظن بعضهم البعض لكان خيرا لهم ولما انطلت عليهم مؤامرات النفاق والتي لم يسلم من أذاها أطهر بيت . . بيت النبي القائد ﷺ .

وبنزول براءة عائشة انقشعت سحابة الارتياب والاضطراب عن جو المدينة وافتضح رأس المنافقين فلم يستطع رفع رأسه بعد ذلك .

غزوة الخندق

الأحزاب

(شوال - السنة الخامسة للهجرة)

المسلمون : ثلاثة آلاف بقيادة رسول الله ﷺ

المشركون : عشرة آلاف بقيادة أبي سفيان

— ٤٠٠ فرس

— ١٥٠٠ بعير

النتيجة : — استشهد من المسلمين ثمانية

كلهم من الأنصار

— قتل من المشركين اثنا عشر

— (اثنان بالسيف

— عشرة بالمرامة)

— فشل الأحزاب

غزوة الأحزاب (الخدق)

الاستعداد للمعركة :

بعد إجلاء بني النضير عن المدينة توجه اليهود إلى خيبر ، ثم خرج منهم وفد يضم زعماءهم إلى مكة يدفعهم حقدهم وذلك للاتصال بقريش والتحالف معها لحرب محمد واستئصال الاسلام . وقد شهد اليهود زورا أن المشركين أهدى من الرسول محمد ﷺ ، وقد فضحهم القرآن . . قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا
مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾
(النساء / ٥١)

ثم اتصل وفد اليهود بغطفان يدعونها للتحالف معهم ووعدوها بتمر خيبر لسنة فوافقت غطفان ، وخرجت قريش والأحابيش في أربعة آلاف ومعهم من الظهر ألف وخمسمائة بعير وأربع مائة فرس . ووافقت غطفان ومن تبعها من بني سليم وبني أسد وبني مرة وبني فزارة وأشجع في ستة آلاف ولهم من الخيل ثلاث مائة .

ولما خرجت قريش لحربه فندب الرسول القائد ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم وشاورهم في أمر الجهاد ووعدهم بالنصر إن اتقوا وصبروا على هذا العدد الهائل من الأحزاب المتألبة الحاقدة .

التشاور حول خطة المواجهة :

أرسل الرسول القائد سليطا وسفيان بن عوف ليرصدا تحركات الأحزاب

ويزوداه بأخبار العدو ، فوقعا في قبضة المشركين ، وقتلا وأتي بهما إلى النبي ﷺ فدفنا معا شهيدين قرينين .

اقتضت خطة الرسول القائد بعد مشاورة الصحابة في كيفية مواجهة الأحزاب أن يتحصن في المدينة ويتبع أسلوب القتال الدفاعي في المعركة لضخامة عدد المشركين وعدتهم ، فالمدافع المتحصن - عسكريا - أفضل موقفا من المهاجم المقاتل المكشوف الذي تسهل إصابته .

ثم أشار سلمان الفارسي بحفر الخندق في الجهة المكشوفة من المدينة ، وقال : « يا رسول الله إنا إذا كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل خندقنا علينا . . فهل لك يا رسول الله أن نخندق ؟ » فأعجب رأي سلمان المسلمين ، وذكروا حين دعاهم الرسول القائد أن يقيموا ولا يخرجوا ، فكره المسلمون الخروج وأحبوا الثبات في المدينة .

وقد كان لسلمان الفارسي دور بارز في الخندق ، وتسابق عليه الأنصار والمهاجرون كل يعتبره منهم ، فقال القائد صلوات الله عليه « سلمان من أهل البيت » .

وكان من خطة الرسول القائد أن يعسكر أمام جبل سلع ليحمي ظهره ويحفر الخندق أمامه ليصد هجمات الأحزاب ، وكان صلى الله عليه وسلم يوجه السؤال لأهل الاختصاص من العسكريين : « أشيروا علي أيها الناس ، فإذا كان الجيش قليل العدد ، والعدو قويا فيجب الأخذ بالمكيدة في مواجهته ، ولا يسوغ التعرض له فذلك بمثابة إثارة الحية من جحرها » .

وفي هذه الغزوة لم يسأم الرسول القائد من مطاولة العدو ، فالانتظار انتهاز للفرص ولا يطلب الظفر باللقاء ما وجد إلى الظفر بالحيلة سبيلا لأن الخروج

العصيب من تألب الأحزاب وغدر اليهود وتبشيط المنافقين بالتعويق والدعوة إلى الفرار .

فلما جاء خبر نقض العهد من بني قريظة أراد الرسول القائد التأكد من صحة الخبر فاختار - قطعاً لدابر الشك - أن يرسل سعد بن معاذ وأُسَيد بن حضير سيدي الأوس ، وسعد بن عبادَة سيد الخزرج ، ولم يكن الاختيار عرضاً بل قصد به القائد ﷺ - إن كان الخبر صحيحاً - أن يثني حلفاء بني قريظة من الأوس اليهود عن غدرهم وينهونهم عن نقض العهد ويحملونهم مغبة الغدر . وفي إرسال سيد الخزرج ضمن الوفد دلالة على أن صف المسلمين واحد خلف الرسول القائد فلا يطمع اليهود بشقه بعدما نقل إليهم المنافقون ما حصل بين السعديين في قضية الإفك وليكون السعدان رائدين لقومهما في مواجهة اليهود السفهاء المتسفلين في شتمهم .

وقد اعتمد القائد ﷺ الكتمان فأوصى مبعوثيه إلى اليهود بأن يلحنوا له لحناً إن تأكد الخبر عن نقض قريظة للعهد ، وحسب توجيهات الرسول القائد كانت كلمة السريهي «عضل والقارة» حتى لا يفت الخبر في عضد المسلمين ويحطم نفسياتهم فينهاروا قبل استكمال الاستعداد العسكري .

وفهم الرسول القائد لحن أصحابه وأن الغدر وقع من يهود قريظة مثلما غدر بخبيب وصحبه ، لكنه صلى الله عليه وسلم قال : «الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين بنصر الله وعونه» . وأما المنافقون فقد نالوا من الرسول القائد وصحبه لاضعاف الهمم فكانت أخبارهم تنقل إلى الرسول ﷺ فيحتاج أن تؤثر في جنده ويبطل كيدهم .

التوجه إلى الله بالدعاء :

بعد أن زاغت الأبصار يوم الخندق من فرط الهول ، وبلغت القلوب

الحناجر ، ولولا أن الحلو ضاقت عنها لخرجت ، وتوجه الرسول القائد إلى ربه يدعوه ، وأوصى أصحابه بإخلاص الدعاء ، فكان صلى الله عليه وسلم يقوم الليل ويدعو «اللهم ادف عنا شرهم وانصرنا عليهم واغلبهم لا يغلبهم غيرك» وكان يوجه أصحابه فيقول : «قولوا : اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا». ويردد صلى الله عليه وسلم : «اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم». ويقول أيضا : «يا صريخ المكروبين ويا مجيب المضطرين اكشف همي وغمي وكربي فقد ترى حالي وحال أصحابي» .

وقد استجاب الله لدعاء الرسول وصحبه فشئت شمل الأحزاب وردهم خائبين لم ينالوا خيرا .

يقظة الرسول القائد وجنده تتكامل مع الشورى :

طال الحصار على المؤمنين وعلى الأحزاب ومزقت بنو قريظة صحيفة العهد ونقضته ، ولما نفذت المؤونة من القبائل المحاصرة للمدينة أرسل اليهود عشرين جملا محملا بالمؤن لإعانة الأحزاب على المسارعة باستئصال محمد وصحبه وأتباعه ، لكن اليقظة الدائمة للطلائع الراصدة لتحركات العدو من داخل المدينة أو حولها تمكنت من التعرض للقافلة وصادرتها الاستخبارات العسكرية المسلمة وغنمتها وحرمت الأعداء من الاستفادة منها .

كما حاول القائد صلى الله عليه وسلم أن يحدث شرخا في جبهة الأحزاب ويشق صفهم فاستدعى زعيم غطفان : عيينة بن حصن والحارث بن عوف ، وعرض عليهما أن يعطيها ثلث ثمار المدينة بشرط أن يرجعا بمن معهما ، وقبل أن يلتزم الرسول القائد نجوهما بشيء استشار زعيم الأوس والخزرج : سعد بن معاذ وسعد بن عباد لأن النخيل لهم ، فقالا بكل أدب :

«يا رسول الله : أمرا تحبه فنصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لابد من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟»

قال : «بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما» .

فقال سعد بن معاذ : «يا رسول الله : قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان ولا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قرى أو بيعا!! أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ ما لنا بهذا من حاجة . : والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم» .

فقال الرسول القائد : أنت وذاك . وتنازل صلى الله عليه وسلم عن رأيه وأخذ برأي سعد .

ولم تكن اليقظة خاصة بالرجال المرابطين في الميدان ، بل تعدتهم لتشمل النساء المتحصنات داخل المدينة حيث حاول يهودي التسلل إلى حصن النساء وبمجرد طوافه بالحصن استطاعت صفية بنت عبدالمطلب أن تكمن له عند باب الحصن وتقتله وتنقذ المسلمات من شره . وقد اعجب الرسول القائد بشجاعتها ويقظتها .

الالتزام المخلصين يقلل من شأن تثبيط المنافقين :

يصطبغ الصف المسلم عموما بالالتزام والطاعة وعدم مجاوزة الأمر أو معصيته ، ويتمثل الالتزام في استغراق الجند في حفر الخندق رغم الجوع والبرد ، وقد لبثوا ثلاثة أيام لا يذوقون ذواقا ، فلا يتحرك الجندي إلا بإذن ولا

يمضي إلى بيته إلا بإذن . وقد كان الالتزام بأوامر الرسول القائد ﷺ ممزوجا بالحب والفداء والتضحية من الأبطال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمن كلف بالحراسة سهر على الثغر حتى لا يؤتى المسلمون من قتله وهو يؤمل أن لا تمس النار عينه لأنها باتت تحرس في سبيل الله ، ومن حددت له أمتار الحفر أنجزها دون تبرم وهو يردد «هذا ما وعدنا الله ورسوله» .

في مقابل هذا الالتزام لم يخل الصف المسلم من مرضى القلوب الذين فضحهم القرآن فوصفهم بأنهم يتسللون لوإذا دون أمر الرسول القائد أو إذنه ويتعللون بأن بيوتهم عورة . . قال الله تعالى في حقهم :

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۖ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ
مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ
مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا
فِرَارًا ۖ﴾ (١٣)

(الأحزاب / ١٢ - ١٣)

ويجرو بعضهم فيقول في وقاحة : «قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم وقد حصرنا هنا حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته . . ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا» .

وقد كان موقف القائد الرسول ﷺ من المنافقين حاسما وفاضحا سواء منهم الذين يدعون إلى الفرار أو الذين يعوقون ويشبطون ، فأبطل صلى الله عليه وسلم ما أرجفوا به .

الحرب خدعة :

لما انضم بنو قريظة إلى الأحزاب قصد القضاء على الدولة المسلمة، ونقضوا عهدهم مع المسلمين أرسل أبو سفيان إليهم عكرمة يحثهم لبدء القتال . وقد كان لنقض العهد من اليهود شديد الوقع على نفوس المسلمين، إذ كان يمكنهم التسلل إلى نساء وأطفال الصحابة وهم يعرفون مسالك المدينة، وهذا يؤثر على معنويات الجيش المسلم الذي لا يطمئن على مصير أهله وماله وذريته . . لكن القيادة الحكيمة وظفت نعيم بن مسعود هذا الذي أسلم حديثاً ولم يعلم أحد بإسلامه فوجهه القائد ﷺ إلى التخذيل وأذن له أن يقول بما يشاء فالحرب خدعة وإنما هو واحد، فقال عليه السلام : «ما استطعت أن تخذل الناس فاخذل، قل ما بدالك فأنت في حل» .

فنهض نعيم بالمسؤولية على أحسن وجه، إذ اتصل ببني قريظة وقد كان نديماً لهم في الجاهلية فقال : يا بني قريظة قد عرفتكم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم . قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم . فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ! البلد ببلدكم فيه أموالكم وأولادكم ونسائكم ، لا تقدروا أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشا وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهروهم عليه وبلدهم وأموالهم ونسائهم بغيرة فليسوا كأنتم فإن رأوا نهزة أصابوها فإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشrafهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تنجزوه . فقالوا له : قد أشرت بالرأي .

ثم جاء نعيم إلى أبي سفيان ومن معه فقال لهم : إني قد بلغني أمر قد رأيت علي حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتبوا عني، فقالوا : نفعل . قال :

تعلمون أن معشر اليهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين (قريش وغطفان) رجالا من أشrafهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على ما بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم ، فإن بعثت لكم اليهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلا واحدا .

ثم جاء نعيم غطفان فقال لهم ما قال لقريش وحذرهم من إعطاء قريظة رهائن من رجالهم ، وصدقته غطفان لأنه منها . وقد ساهمت هذه المعلومات في هدم الثقة بين الأحزاب وأدت إلى التفرق بعد الاتفاق والعجز عن تنفيذ هدف استئصال شأفة المسلمين .

إن ما قام به نعيم من تخذيل وخدعة لا يعنيان الغدر والخيانة بل هي قمة الذكاء في استغلال وتوظيف الامكانيات لهزم العدو .

فلما أرسل أبو سفيان إلى اليهود ثانية يستعجلهم الهجوم على المدينة وذلك ليلة السبت ، قالوا له : غدا السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ، ولا نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم ، فإننا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنسحبوا إلى بلادكم وتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا لذلك منه . فلما وصل الجواب دب الخلاف بين اليهود والأحزاب فقالت قريش وغطفان : إن ما حدثكم به نعيم لحق .

فأرسلوا إلى بني قريظة : إنا والله لا ندفع لكم رجلا واحدا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا . فقال اليهود : إن الذي ذكركم نعيم الحق ، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهبوها وإن كان غير ذلك انسحبوا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل . فأجابوهم ثانية : إنا والله لا نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا .

فأبوا عليهم وخذل الله بينهم ، فتشتت شمل الأحزاب وتفرقوا وانتهت
مؤامرة اليهود بالفشل رغم غدرهم وهزم العدو بعد طول حصار دون قتال مع
الظروف الطبيعية القاسية مما زاد في تبرم الأعراب وتدميرهم من البقاء فتسارعوا
إلى الرحيل .

الانضباط طريق النصر :

دب الذعر في نهاية غزوة الأحزاب في صفوف المشركين وساد الاضطراب
بعد أن هبت رياح شديدة قلعت الخيام وقلبت القدور ، فأرسل الرسول
القائد أمين سره حذيفة بن اليمان ليستطلع خبر القوم ، وكان النبي ﷺ قد
طلب أن يأتيه أحد بخبر العدو ووعدته بالرفقة في الجنة ، وأمام الخوف والبرد
لم يقيم أي واحد من الصحابة لأن الرسول القائد لم يحدد ، فلما صدر الأمر
صراحة لحذيفة لم يكن له بد أن يقوم بعد أن فاجأه القائد باسمه ، واشترط
عليه فأوصاه أن يستطلع الخبر ولا يحدث شيئا في صفوف العدو . ومما قاله
صلى الله عليه وسلم :

« اذهب فأتني بخبر القوم ولا تدعهم عليّ . . يا حذيفة قم فادخل في
القوم فانظر ماذا يصنعون ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا» .

فانطلق حذيفة حتى أتاهم فرأى أبا سفيان يصلي ظهره بالنار ، فوضع
سهما في كبد القوس وأراد أن يرميه . قال ولورميته لأصبته ، لكن ذكرت قول
رسول الله « لا تدعهم علي » فأحجمت ، ولولا عهد رسول الله إلي « أن لا
تحدث شيئا حتى تأتيني » لقتلته بسهم .

وهنا تظهر قمة الانضباط من حذيفة فقائد الأحزاب في مرمى سهمه ولن
يكلفه شيئا ، وقتل أبي سفيان يعد هزيمة للأحزاب لكنه الالتزام بالأوامر .
ودخل حذيفة في القوم والريح وجنود الله المرسله تفعل ما تفعل ، لا تقر لهم

قدور ولا نار ولا بناء، وأحس أبو سفيان بحركة حذيفة فقال : يا معشر قريش لينظر امرؤ من جلسه ؟ قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذي على يمين فقلت : من أنت؟ قال : معاوية بن أبي سفيان . ثم أخذت بيد الرجل الذي على شمالي فقلت من أنت؟ قال : عمرو بن العاص .

ثم قال أبو سفيان : إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع ، وأخلفتنا بنو قريظة ، بلغنا منهم الذي نكره ، ولقينا من هذه الرياح ما ترون . . والله ما تطمئن لنا قدور ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل . فقام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه وضربه فوثب على ثلاث فما أطلق عقله إلا وهو قائم ، فرجع حذيفة ينتفض من البرد وأخبر الرسول القائد بخبر القوم .

وقد يقول قائل : لو تخلص حذيفة من أبي سفيان فهو صيد ثمين ، وقد لا تواتي الفرصة وهو قائد العدو ، ولكن من يدري العواقب المترتبة على مخالفة أمر الرسول القائد وعدم الانضباط به؟ لعل الأحزاب لو قتل قائدها تؤجج نار الحرب وتحكم الحصار وتبغي الانتقام له ، والرسول القائد ﷺ في أمس الحاجة إلى فك الحصار فقد بلغ الجهد من المسلمين مبلغه وضافت الأرض وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ؛ لذلك كانت المصلحة في عدم إثارتهم وفي الانضباط بأمر القائد الذي مهد الطريق للنصر وكفى الله المؤمنين القتال فارتحل الأحزاب مخذولين تاركين متاعهم خلفهم وما نالوا من المسلمين شيئاً .

نهاية الغزوة :

يئس المشركون من استئصال المسلمين ، بل حتى من النيل منهم ، وحاولوا التسلل إلى الخندق فلم يفلحوا وفقدوا فارسهم عمرو بن عبد ود ،

قتله علي بن أبي طالب، وكذلك سقط نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي في الخندق، فسلم الرسول القائد جثته للأحزاب وقال بعد مساومته عليها: «لا نأكل ثمن الموتى».

وأخفق عكرمة وخالد في الوصول إلى المسلمين المتحصنين، وباءت محاولاتهم بالفشل الذريع ورغم عددهم الهائل (عشرة آلاف) فإن جمعهم متفرق الكلمة منخزل مهزوز الثقة. وعلى عكس الأحزاب كان الصف المسلم متماسكا ملتحما ملتزما تحت قيادة موحدة حازمة، بتعبئة جديدة ومعنويات مرتفعة وأسلوب جديد في القتال ومفاجئ، فحضر الخندق لم يعرفه العرب والمبادأة التي اعتمدها الرسول القائد وهي السبق بالعمل لإجبار العدو على تبديل خطته والاحتفاظ بهذا السبق.. كل ذلك أسهم في هزيمة الأحزاب.. إلى جانب الجنود التي أرسلها الله عليهم فملوا الحصار وانقلبوا خائبين.

ورغم أن قتلى الفريقين يعدون على الأصابع لكن الغزوة كانت من أحسم المعارك في تاريخ الاسلام، إذ مصير الرسالة كان مهددا فيها وقد حشد لها ما يحقق استئصالها لكن الله كفى المؤمنين القتال وهزم الأحزاب وحده ونصر عبده وأعز جنده.

وانتقل الرسول القائد بعد هذه الغزوة من دور الدفاع عن المدينة إلى دور الهجوم لذلك تعتبر غزوة الخندق فاصلة بين المرحلتين، إذ كانت آخر وقعة تشن فيها قريش حربا هجومية على أرض المسلمين ويدافع فيها الرسول القائد وجنده الميامين عن المدينة وأهلها.

وقد أعلن الرسول القائد ﷺ عن هذا التحول فقال: «الآن نغزوهم ولا يغزونا. . نحن نسير إليهم» .

وبعد عودة المسلمين إلى ديارهم بالمدينة ظافرين جاءهم النداء لتأديب ومعاقبة بني قريظة الغادرين الذين نكثوا العهد ومزقوا صحيفته، واستجاب الصحابة لنداء الرسول القائد صلى الله عليه وسلم .

صلح الحديبية (ذو القعدة - السنة السادسة للهجرة)

عدد المسلمين : ألف وأربعمائة رجل
من الأنصار والمهاجرين.
الهدى : سبعون بدنة
أمير المدينة : نميلة بن عبدالله الليثي
عدد المشركين : حوالي ثمانية آلاف مقاتل
النتيجة : عقد الصلح وكتابة الوثيقة لاقرار
الهدنة .

صلح الحديبية (١)

(ذو القعدة ٦ هـ)

تخطيط الرسول القائد عليه السلام :

— التوجه إلى مكة المكرمة لأداء مناسك العمرة :

بعد غزوة الأحزاب بلغ الرسول القائد خبر مفاده أن تحالفا عقد بين قريش - جنوب المدينة - واليهود في خيبر - شمال المدينة - الغاية منه جعل الرسول ﷺ وجنده ومدينته بين طرفي كهاشة .

فكر عليه السلام مليا في إيجاد سبيل للخروج من هذا الحصار الذي حاول الأعداء إحكامه عليه من الشمال والجنود . وفي الوقت الذي كان فيه الرسول القائد صلى الله عليه وسلم يفكر في تنفيذ خطة كسر فكي الكهاشة بطرق دبلوماسية ، ويقلب الأمور من مختلف جوانبها لضمان أوفر الحظوظ لنجاحها ، جاءته إشارة ربانية تثبت فؤاده وتؤيد عزمه على ما نوى وقرر .

رأى عليه السلام رؤيا وهو بالمدينة أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام وأخذ مفتاح الكعبة ، وطافوا واعتمروا ، وحلق بعضهم وقصّر بعضهم ، فأخبر بذلك أصحابه ، ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم هذا .

خرج الرسول القائد بأصحابه وهم يتمتعون بمعنويات عالية ، وآمال واسعة بالطواف بالكعبة ورؤية البلد الذي أخرجوا منه منذ سنين .

تامين المدينة من الداخل :

لم يتحرك المسلمون صوب مكة إلا بعد توفير الأمن للمدينة وأخذ الحيطة

(١) الحديبية : قرية متوسطة ليست بالكبيرة ، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي تمت تحتها البيعة ، بينها وبين مكة مرحلة ، وبينها وبين المدينة تسع مراحل (عن معجم البلدان) .

من كل ما من شأنه أن يعكر حياة الناس فيها أثناء غياب الرسول القائد عليه السلام وأصحابه رضوان الله عليهم ، وكسر شوكة الأعداء داخل المدينة وخارجها .

أما في الداخل فقد أنزل الضربة القاصمة بخونة يهود بني قريظة بعد اندحار جيش الأحزاب . .

وأما خارج المدينة فقد ألحق بيهود خيبر ضربات موجعة أضعفت قوتهم وزعزعت فيهم عزمهم على إيقاع الشر بالمسلمين ، فانهارت معنوياتهم بعد أن تمكن الفدائيون المسلمون من قتل ملكين من ملوك خيبر الواحد بعد الآخر داخل منطقة خيبر نفسها وهما :

— أبو رافع سلام بن أبي الحقيق ملك اليهود وكبير مجرميها^(١) .

— أشير بن زرام^(٢) .

— وكان قد سبق للفدائيين أن قتلوا كعب بن الأشرف وذلك قبل أحد .

وبعد مقتل هذين الخصمين الخطيرين استولى العرب على قلوب اليهود ولم يبق يهودي إلا وهو بخائف على نفسه ، فتلاشت من أذهانهم فكرة غزو المدينة التي كانت تراود أحلامهم ، واكتفوا بالبقاء داخل حصونهم للدفاع عن أنفسهم .

أما قريش فقد بات من المؤكد عجزها عن الخروج إلى المدينة على الأقل في الوقت الراهن ، بعد أن تبذد جمعها أثر غزوة الأحزاب ، وخابت آمالها العريضة التي كانت تحلم بها .

وبعد هذه الخطوات الجريئة عين الرسول القائد أميرا على المدينة وهو

(١) انظر تفاصيل الحادثة ، ابن هشام . السيرة النبوية ج ٣ ص ٢٧٥ .

(٢) محمد أحمد باشميل ، صلح الحديبية ، دار الفكر ص ١٠٧ .

نُميلة بن عبدالله الليثي (٣) .

وبعد أن توفرت كل عوامل الأمن والسلام للمدينة قرر الرسول القائد الخروج برجاله إلى مكة المكرمة لأداء مناسك العمرة .

الرسول القائد يحدد الهدف ويعلن عنه :

ولتحديد المهمة من الخروج إلى مكة أعلن الرسول القائد ﷺ الهدف من ذلك ليسمع به الناس ويصل إلى أهل مكة ألا وهو زيارة البيت الحرام وأداء مناسك العمرة .

واستنفر الرسول ﷺ أصحابه فنشطوا للخروج وتخاذل المنافقون والأعراب لظنهم أن الرحلة محفوفة بالمخاطر ولا مغنم فيها . ولا تمام الأمر أبلغ الرسول القائد عليه السلام قريشا - رسميا - أن خروجه ليس للحرب وإنما للعمرة فقط ، وطلب منهم أن يتركوه وأصحابه يؤدون مناسكهم ثم يعودون إلى المدينة قافلين .

وقريش تعلم أن زيارة البيت الحرام والطواف به حق مشاع لجميع العرب مهما تباينت آراؤهم واختلفت طوائفهم ، فليس لها أن تمنع من جاء معظما للبيت .

الاستعداد للطوارئ المحتملة :

إن القائد الناجح يخطط لأعماله كلها بدقة ، ويكون في الوقت نفسه شديد الحذر خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالناحية العسكرية ، فرغم عزم الرسول القائد عليه السلام على مسيرته السلمية فقد أدخل في حسبانته ما قد يفاجئه

(٣) هو من قبيلة كلب اليمنية الواقعة ديارها في شمال شرق الجزيرة .. صحابي جليل شجاع ، شهد فتح مكة . استعمله النبي « واليا على خيبر بعد فتحها .

من أحداث في طريقه إلى مكة المكرمة ، قد تعترض قريش سبيله وتصدّه عن البيت العتيق بالسلاح ، وقد يصدر من سفهاء قريش ما يلحق الأذى بأصحابه ، وبناءً على هذا التصور قرر الرسول القائد ما يلي :

١ - ندب المسلمين حاضرة وبادية للخروج معه في هذه الرحلة التي يتوقع أن تحفّها بعض المخاطر ، مع العلم أنه في حالة حرب مع قريش ، وكل شيء ممكن ووارد إذا لم يكن بينه وبين المشركين في مكة أي عهد أو صلح .

ورغم هذا النداء الصادر من القائد لأمته فقد تحاذل الكثيرون ومنهم .
— المنافقون الذين مردوا على النفاق .

— الأعراب الذين أظهروا الاسلام إما خوفاً أو رغبة في الغنيمة .

٢ - عدم إثارة قضية المنافقين وصنيعهم من تثبيط للعزائم وتشكيك في نصر الله لرسوله وللمؤمنين .

٣ - المسير بالصفوة المختارة التي سارعت إلى إجابة الدعوة دون تحفظ أو تردد وهي تعلم أن سعادتها في الدنيا وفلاحها في الآخرة في طاعة أمر نبيها الكريم عليه السلام .

وقدر الله تعالى ألا يخرج معه إلاّ الخلصاء من أصحابه الذين صدقوا الله ما عاهدوه عليه من إيمان به وحماية لدينه ونصرة لرسوله ووفاء بعهده .

ولعلها حكمة أرادها الله لعباده الصالحين وذلك بأن لا يُشرف بفضل بيعة الرضوان إلاّ الصادقون ولن يتم الفتح إلا على أيدي جند الله الذين باعوا حياتهم في سبيل دينه . وقد جاءت آيات فيما بعد

تفضح الأعراب والمنافقين وتعلي من شأن المؤمنين المجاهدين .
قال تعالى :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ
مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ
بِالْسِّنِّتِ هُمَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا ﴾ ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى
أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا
وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ ﴿١٢﴾

(الفتح / ١١ - ١٢)

وفي المؤمنين نزل قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ
الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح / ١٨)

٤ - الأمر بحمل السلاح تحسبا لكل طارئ واستثناسا بقول عمر الذي قال
لِلرَّسُولِ الْقَائِدِ مُتَعَجِّبًا : «تدخل على قوم هم لك حرب بغير سلاح ولا
كراع؟» .

إظهار علامات النفسك :

ولكي يظهر الرسول القائد قصده للناس بجلاء ساق عليه السلام سبعين بدنة هديا وقلدها بعلامات تعرف بها ليعلم الناس أنها هدي ، وقد استعمل عليه السلام على هديه ناجية بن جندب الأسلمي ، وأمره أن يتقدم بها إلى ذي الحليفة ميقات الاحرام لأهل المدينة . كما ساق الموسرون من الصحابة هديهم تأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا يكون الرسول القائد ﷺ قد أعلن للعرب كافة في أنحاء الجزيرة أنه لا يريد حربا بمسيره هذا ، إنما يريد أن يمارس حق العبادة والطواف بالبيت العتيق وهي حجة كافية لقريش حتى تتركه وشأنه ولا تتعرض له ، فإن منعته أو حاربتة فقد أديننت عند جميع العرب وكل القبائل وخسرت الرهان .

الرسول القائد يرسل طلائع للاستكشاف :

أعلن القائد بوضوح وصراحة أن مسيره إنما هو لأجل أداء مناسك العمرة لكن هذا القصد السلمي لا يمنع القائد من أخذ كل وسائل الحيلة والحذر ، خاصة في مثل هذه الظروف التي تنصب فيها قريش نفسها وصية على الحر دون سواها من القبائل وترصد المسلمين في كل مكان للانتقام منهم خاصة بعدما لحق بها من خسائر في غزوة الأحزاب .

أمر الرسول القائد ﷺ بئسر بن سفيان الكعبي^(١) بأن يقوم بمهمة الاستخبارات ويجمع المعلومات عن قريش وعن نواياها ، وأمره بأن يتقدم الجيش ويدخل مكة ويرصد تحركات قريش وواعده مكانا يلقاه فيه .

فاستجاب بئسر لأمر قائده ونشط لذلك ، فقام بالواجب وعاد بأخبار قريش ولقي الرسول ﷺ بعسفان^(٢) .

(١) بئسر (بضم أوله وسكون ثانيه) ابن سفيان بن عمر الخزاعي (انظر باشميل : صلح الحديبية ص ١٢٨) .

(٢) عسفان : منهلة من مناهل الطريق بين الحقة ومكة على مرحلتين (معجم البلدان) .

وفي ذي الحليفة كَوْن الرسول القائد ﷺ فصيلة من عشرين فارسا لتكون طليعة أمامه ولتقوم بأعمال الاستكشاف تحسبا للطوارئ وأمر عليها عبد بن بشر الأنصاري .

ومن هنا نرى الحس العسكري عند الرسول القائد والخبرة العسكرية واليقظة الدائمة مع اتخاذ الأسباب اللازمة لضمان السلامة والنجاح مع صدق التوكل وحسن الظن بالله عز وجل .

الطريق إلى مكة المكرمة :

قاد الرسول ﷺ أصحابه صوب مكة المكرمة تحذوهم آمال اللقاء بذوهم الذين منعوا من الخروج إلى المدينة ، والطواف بالبيت العتيق . وقد بذل عليه السلام جهده للوصول إلى غايته دون أن تراق قطرة من دم ، وخطط للأمر بحكمة وحذر ، وسعى جهده تجنب أتباعه المواجهة الدامية مع قريش ، ويبرز هذا التخطيط فيما يلي :

١ - تحديد الطريق التي سيسلكها الرسول القائد وأصحابه وروعي في ذلك كل سبل السلامة والأمان مع أخذ الحيطة لما قد يحدث من الغارات المفاجئة أو الكمائن المباغته .

٢ - عند الضرورة القصوى تم تغيير الطريق والمرور بالمسالك الوعرة لتفادي المصادمة الدموية مع قريش ، خاصة لما علم القائد أن جيوش الكفر اجتمعت لصدّه عن البيت الحرام .

٣ - عرض الاسلام على القبائل المتناثرة في الصحراء المحاذية للطريق الذي يسلكه المسلمون رجاء كسب مزيد من الأنصار وتأمين نقاط العبور ، فمن القبائل من أسلم أهلها أو بعض منهم ، ومنهم من أبى فترك

على حاله .

٤ - التعامل مع بعض الأحداث بحكمة بالغه نابعة من روح الشريعة الإسلامية السمحة . . فقد قدمت بعض القبائل للرسول القائد عليه السلام بعض الهدايا كاللبن وبعض الأغنام فلم يقبلها وأمر أصحابه بشرائها ويتحقق بذلك هدفان :

أ - تربية المسلمين على الاعتماد على النفس .

ب - إشعار المشركين أن المسلمين أقوياء، ولعل في ذلك ترغيبا لهم في الإسلام، أو على الأقل لأمن مكرهم ورد إذايتهم .

٥ - تعهد الرسول القائد ﷺ لجنده بالرعاية والمتابعة لأمرهم، فقد كان عليه السلام يتفقد أحوالهم، ويشجعهم على مواصلة السير وتحمل المشاق والصمود أمام المخاطر. كما كان عليه السلام دائما يصلهم برهم ويقوي إيمانهم بالله وثقتهم به .

قريش تعلن الحرب على المسلمين :

فهذه قریش في برلمانها تصدر القرارات بصدد الرسول ﷺ عن مكة وتنتخب لجنة للمتابعة والتنفيذ، وهي كالتالي :

١ - إعلان حالة الاستنفار القصوى لصدد المسلمين عن مكة بكل الوسائل، فوجدت كل من يقدر على الحرب .

٢ - طلب المساعدة الخارجية واستدعاء الحلفاء، فدعت الأحابيش للوقوف معها عسكريا ضد المسلمين .

٣ - جمع الأموال واعتماد ميزانية خاصة لتمويل الجند وبخاصة الحلفاء الذين ينضمون إليها .

٤ - الدعوة إلى التمرکز العسكري خارج الحدود لصدد المسلمين قبل دخولهم الحرم .

٥ - اتخاذ قرار بمصاحبة النساء والأطفال لقطع خط الرجعة عن الذين لا يرون رأي قريش في الحرب ، وهو إعلان صريح عن تصميمهم على الحرب إرجافا للمسلمين .

٦ - تكوين قوات كثيفة من الفرسان قوامها مائتا فارس بقيادة خالد بن الوليد لأجراء المناورات واستفزاز المسلمين قبل وصولهم إلى خط الحرم .

٧ - إقامة جهاز للاستخبارات العسكرية بقيادة الحكم بن عبد مناف مهمة رجاله الضرب في الأرض والتقاط أخبار الجيش المسلم ، وإبلاغ معسكر قريش بالمعلومات أولا بأول .

وخرجت قريش واستقرت بواد قبل مكة من جهة الغرب يسمى بلدح ، وعسكر الجند هناك متحفزا للانقضاض على المسلمين في أية لحظة .

الرسول القائد يستشير أصحابه في أمر قريش :

وصلت إلى الرسول القائد أخبار قريش وما تنوي فعله من صد للمسلمين ومحاربتهم ، يسوقها الغرور والطيش والتعنت والطغيان . كان ذلك والمسلمون لا يزالون يعسكرون بعسفان ، فالموقف إذن خطير جدا ، يتطلب قدرا كبيرا من الكياسة والروية وحسن التدبير .

توجه القائد لأصحابه مستشيرا إياهم قائلا :

« هذا خالد بن الوليد على خيل المشركين بالغميم » ثم وقف خطيبا في المسلمين فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« أما بعد فكيف ترون يا معشر المسلمين في هؤلاء الذين استنفروا إلى من

أطاعهم ليصدوا عن المسجد الحرام؟ أترون أن نمضي لوجهنا إلى البيت فمن صدنا قاتلناه؟ أم ترون أن نخلف هؤلاء الذين استنفروا لنا إلى أهلهم، فإن أتبعونا أتبعنا منهم عنق يقطعها الله، وإن قعدوا، قعدوا محزونين موتورين» .

فتكلم أبو بكر، وتكلم المقداد بن عمرو الكندي، وتكلم سيد الأوس أسيد بن الحضير، فتبين للرسول القائد عليه السلام أن جميع المسلمين موافقون على المضي قدما نحو غايتهم، وأنهم مستعدون للقاء العدو إذا ما ألجأهم لذلك .

وأمام هذه الأحداث الهائلة أكثر الرسول القائد ﷺ من استشارة أصحابه حتى يكونوا على بينة من أمرهم، يمضون حيث يختارون، حتى قال أبو هريرة : فلم أر أحدا كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لم لا ؟ والظرف صعب ، يقتضي الاستفادة من آراء الناس في مثل هذه الحالات الحرجة ، والرسول ﷺ يعلم أن أصحابه رجال حرب وقوة وهم رجاله الخالص الذين لن ييخلوا عليه برأي ظهر لهم .

وفي نهاية الأمر أعلن القائد مواصلة الطريق إلى مكة وأنه مستعد لمناجزة القوم إذا اعترضوا سبيله .

استعانة الرسول القائد ﷺ بالمرشدين لمعرفة الطريق :

كان المسلمون يسرون مع قائدهم صوب مكة وهم واثقون بوعد الله لرسوله بالدخول إلى مكة . . ساروا ملبين، مكبرين في طريقهم التي اعتاد أن يسلكها عامة الناس وسائر القوافل، فلا ضرورة للتخفي وقد أعلن قائدهم

الهدف السلمي من رحلتهم هذه وأبلغ قريشا نيته بزيارة البيت العتيق .

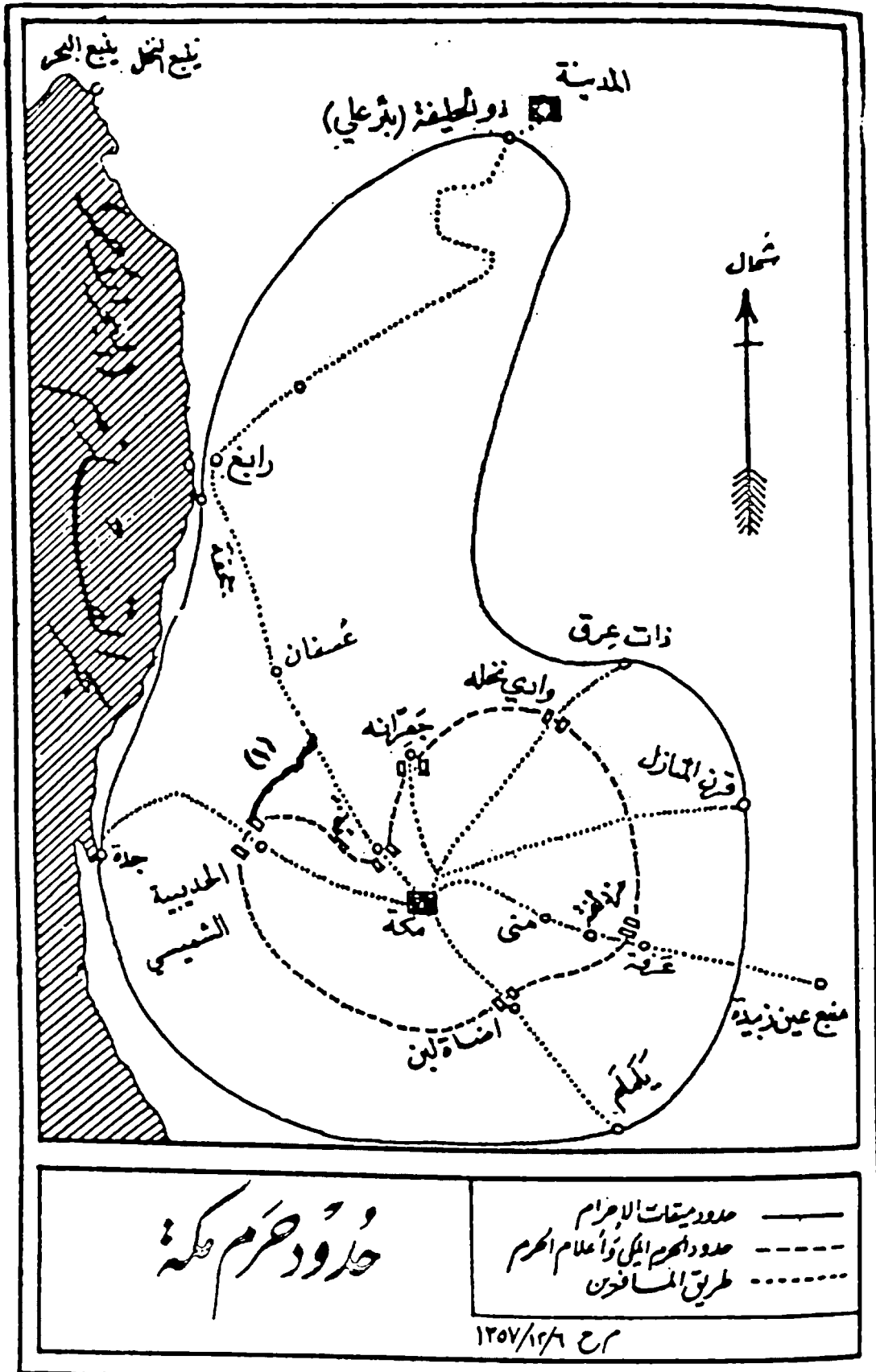
لكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن ، فقد جاء بشر بن سفيان الكعبي بالخبر اليقين وأخبر قائده وهو بعسفان عن نوايا قريش . قال : يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمر ، وقد نزلوا بذئ طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم .

فأسف الرسول ﷺ لموقف قريش المتعنت ، فقال : «يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الاسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة»^(١) .

ومشيا مع نية حب السلام وتجنب القتال ، وحقن الدماء . التفت الرسول القائد إلى أصحابه قائلا : «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟» فجاء رجل من أسلم فسلك بهم طريقا كثير الحجارة ، شق على المسلمين اجتيازه ولقوا عنتا كبيرا وكادوا يهلكون ، ثم أفضى بهم إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي انثنى المسلمون عندها يمينا ليهبطوا عند الحديبية أسفل مكة .

وكان الرسول ﷺ لما رأى أصحابه وقد شق عليهم السير في الأرض الصعبة

(١) العوذ : ج عائد ، وهي الحديثة النتاج من الابل . المطافيل : التي معها اولادها . ذو طوى : موضع قرب مكة . كراع الغميم : واد أمام عسفان بثمانية أميال . (انظر كتاب : مختصر السيرة لابن هشام ، إعداد محمد عفيفي الزغبى ، ط : دار المطبوعات الحديثة ، جدة) .
والحديث أخرجه ابن اسحاق بسند صحيح وهو قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري (ج ٥ / ٣٥١ - ٣٧١) .



(١) الطريق الذي سلكه الرسول (ص) الى الحديبية عن الوثائق السياسية
للعهد النبوي والخلافة الراشدة

ذكرهم برهم قائلاً لهم : ﴿قولوا نستغفر الله ونتوب إليه﴾ فقالوا ذلك ، فقال : «والله إنها اللحظة التي عُرضت على بني اسرائيل فلم يقولوها» أي اللهم حط عنا ذنوبنا^(٢) .

الاستقرار بسهل الحديبية وأهم المواقف القيادية :

لما أشرف المسلمون على سهل الحديبية بركت ناقة الرسول ﷺ ، فدهش المسلمون لما عراها فقالوا : خلأت القصواء ! فقال النبي ﷺ : «ما خلأت وما مولها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» ثم أمر الناس أن يحلوا حيث انتهى بالناقة المسير^(١) .

كتائب للحراسة :

استقر المسلمون في سهل الحديبية منتظرين أن تعود قريش إلى رشدها ، وتتنازل عن طغيانها فتسمح لهم بأداء مناسك العمرة ، وفي انتظار ذلك بادر الرسول القائد ﷺ بتأمين جنده لتوفير الراحة النفسية لهم رغم ما أصابهم من توتر لقاء ظلم المشركين . فقد شكل عليه السلام ثلاث كتائب للحراسة الليلية ، وأمر عليها ثلاثة قادة من أصحابه الكرام :

— عباد بن بشر

— أوس بن خولي^(٢)

— محمد بن مسلمة .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢١٠ .

(١) حديث صحيح . من حديث الحديبية عند البخاري وغيره .

(٢) أوس : كان أحد الخمسة الذين فتكوا بزعيم اليهود سلام بن أبي الحقيق في خيبر (كتبنا الاصابة).

فكانت الكتائب الثلاثة تتناوب الحراسة الليلية خشية قيام الطائشين من جند قريش بأعمال سفيهة غادرة .

الرسول القائد ﷺ يعرض على قريش خطة للتفاوض :

لم يتعجل الرسول ﷺ بالدخول إلى مكة متجنباً بذلك كل الصدمات التي يمكن أن تحدث ، بل تريث ليعطي الفرصة للمفاوضات ، فلعل في قريش بقية من رجال يحكمون عقولهم في مهمات الأمور ويستجيون لنداء العقل والحكمة .

فقال عليه السلام : «والذي نفس محمد بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» . ومن هذا الموقف يتضح أن رسول الله ﷺ يسعى إلى التسامح ويريد صلة الرحم وتحاشي الصدام حفاظاً على أصحابه ورجاء أن يكون في قريش بقية خير فيدخل أهلها في الاسلام ولو بعد حين .

وسيط السلام الأول ومقالة الرسول المؤثرة :

أقبل وفد من خزاعة^(١) برئاسة بديل بن ورقاء ، ووقف بين يدي الرسول ﷺ ناصحاً له بعدم مجارة قريش في تعنتها . وهي نصيحة رجل محايد خرج من دائرة الصراع بين المسلمين وقريش ، وهي مبادرة فردية ليس لقريش فيها يد .

فجاء الرد من الرسول القائد على بديل في كلمات تنبع منها الحكمة وحسن التدبير واستقامة الرأي ، وأعلن له أن الذي خرج من أجله إنما هو أداء مناسك العمرة فصدته قريش وبين له أنه عليه السلام لا يزال يملك من سعة

(١) خزاعة : قبيلة مجاورة للحرم موادعة للرسول ، على عدم الاعتداء ، وهي فيما يروى موضع الأمانة على سره عليه السلام .

الصدر وبعد النظر ما يعطي لقريش فرصة المفاوضات وقبول الهدنة .

قال عليه السلام : «إنا لم نأت لقتال أحد ، إنما جئنا لنطوف بهذا البيت ، فمن صدّنا قاتلناه ، وقريش قوم قد أضرت بهم الحرب وأنهكتهم ، فإن شأؤوا ماددّتهم مدّة يأمنون فيها ، ويخلون فيها بيننا وبين الناس ، والناس أكثر منهم ، فإن ظهر أمرى على الناس كانوا بين أن يدخلوا فيها دخل فيه الناس ، أو يقاتلوا وقد جمعوا ، والله لأجهدن على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتي أو ينفذ الله أمره» .

قول يحمل كل معاني الحصافة في الرأي والمرونة والاتزان مع إبداء الثقة بالنفس يعرضه القائد على الوسيط الأول المحايد ، فيتأثر بديل وأعضاء الوفد معه تأثراً بالغاً حتى قال عمرو بن سالم أحد أعضاء الوفد وكأنه يخاطب قريشاً : «والله لا تنصرون على من يعرض هذا أبداً» .

وبلغ بديل مقالة الرسول عليه السلام لقريش لكنها أغلقت عيونها عن الحق وصمّت آذانها عن نداء العقل ورفضت النداء إلى السلام . فقال بديل ناصحاً لقريش ومنتقداً لها فيما تنوي فعله : يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد ، وإن محمد لم يكن باعث حرب ، ولم يأت لقتال ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت .

فرفضوا مقالته واتهموه بالتحيز للمسلمين . وما كان لبديل أن يقول هذه المقالة لولا ما لمسه من صفاء السريّة وقصد العزم على السلم وأداء العمرة .

الوسيط الثاني :

وقف عروة بن مسعود الثقفي وسيطاً لقريش على رسول الله ﷺ وهو يعلم

أن محمدا عليه السلام على حق وأن قريشا على باطل ، ولكنه بحكم الحلف بينه وبين قريش حاول أن يلقي اللوم على الرسول ﷺ ، كما حاول أن يرجفه ويخوفه من قوة قريش وسطوتها ليخرج حلفاءه من ورطتهم ويثني عزم المسلمين على دخول مكة . فقال : « أجمعت أوشاب^(١) الناس ثم جئت إلى بيضتك لتفضها بهم ، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمر يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا . وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا » يقصد أصحاب الرسول .

فأجابه الرسول القائد ﷺ بكل هدوء وتعقل وحلم بمثل ما أجاب به بديل وأنه لم يأت يريد حربا ، فقام عنه وقد أسقط في يديه . رأى قائدا عظيما يحوطه أصحابه بكل إجلال وتقدير ويتفانون في حمايته والذود عنه ويسارعون لتنفيذ أوامره . وعاد إلى أحلافه قريش يدعوهم إلى مهادنة الرجل ويثني عزمهم عن القتال والصد .

قال : « يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا ، فروا رأيكم » .

الوسيط الثالث :

بعث قريش مكرز بن حنص بن الأخيف ، فلما رآه رسول الله ﷺ - وكان خبير بالرجال وأحوالهم - قال : « هذا رجل غادر »^(٢) فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه قال له الرسول القائد مما قاله لبديل وأصحابه فرجع إلى قريش فأخبرهم بما سمع من قائد المسلمين .

(١) الأوشاب : الأوباش والأخلاط . واحدة وشب (بكسر أولها) - القاموس المحيط.

(٢) كان مكرز قد قتل عامر بن يزيد سيد بني بكر غيلة وكادت تحصل حرب بين قريش وكنانة بسببه .

الوسيط الرابع :

بعثت قريش الحليس بن علقمة سيد الأحابيش ، فلما رآه الرسول ﷺ قال : «إن هذا من قوم يتأهلون ، فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه»^(٢) .
فلما رأى الهدى مقبلا عليه من عرض الوادي عاد من حيث جاء قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاما لما شاهد .

وهذه الخبرة الفائقة بأحوال الرجال وصفاتهم استطاع الرسول القائد عليه الصلاة والسلام أن يقنع الوسطاء بهدفه السلمي ويدين قريش أمام أهم أحلافها ، فكانت النتيجة إضعاف صفوف المشركين وفك التحالفات التي كانت تقوهم وإدخال الرعب في قلوبهم ، فهذا بديل وجماعته يزدادون يقينا من ثغرت قريش وطيشها وتزييفها الأمور للناس . . فقد أظهرت لهم أن المسلمين معتدين وأخفت عليهم قصدهم السلمي ففضحها الوسطاء بما علموه من النبي ﷺ من نية العمرة . فينسحب بديل وقومه وفي نفوسهم من الحقد على المعتدين ما يرجح كفة الانضمام إلى صفوف المسلمين رغم أنهم كانوا قبل ذلك محايدين من جهة قريش وهذا أول سهم تطعن به قريش في صميمها .

وهذا عروة بن مسعود يعود إلى أحلافه قريش ويصدع بالحق ويعلم لهم أن محمدا في منعة من قومه وأنهم يلتفون حوله كالأسود لا يسلمونه لأحد أبدا . وأنه عليه السلام يدعوهم إلى التريث في الأمور وإعمال العقل فيها . . فخير لقريش أن تترك المسلمين يؤدون مناسك العمرة وإلا فسيلاقون رجالا أشداء يحبون الموت في سبيل دينهم ويتسابقون إلى إرضاء قائدهم وحمايته . قال : ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا فروا رأيكم .

(٢) حديث صحيح رواه ابن اسحاق في حديث الحديبية .

وهذا الحليس يغضب لنفسه ولقبيلته وينسحب من الحلف الذي كان عليه لما رآه من إصرار قريش على التعنت والتهور ، يقول لهم في غضب : «يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم . . أَيْصَدُّ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مَنْ جَاءَ مَعْظَمُهَا لَهُ ؟! وَالَّذِي نَفْسُ الْحَلِيسِ بِيَدِهِ لَتُخْلَنَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ أَوْ لَأَنْفَرْنَ بِالْأَحَابِيْشِ نَفْرَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ»^(١) . وهو تهديد مباشر بإضعاف صف قريش وزعزعة أركانه .

الرسول القائد يبادر بإرسال مبعوثيه إلى قريش :

اطمأن الرسول القائد عليه الصلاة والسلام إلى أن كلمته وصلت إلى قريش وأحدثت فيها شرخا عظيما أدخل فيها الرعب وكسر شوكتها ، خاصة بعدما عرف الناس حقيقة الموقف ، لكن القائد كان شديد الحذر حيث أن سفهاء قريش لا يسمعون لنداء العقل ، فبادر بمحاولة من عنده لاستكمال الخطة مع قريش ومواصلة المفاوضات .

— خراش بن أمية موفد الرسول ﷺ إلى قريش :

انطلق خراش بن أمية الخزاعي إلى معسكر المشركين يحمل رسالة السلام للناس ، لكنه ما إن وصل إليهم حتى تعرض له سفهاء قريش بالاذاية فعقروا ناقته وحاولوا قتله لولا حماية الأحابيش له ، وتدخلهم لانقاذه . . فرجع إلى القائد الأعلى عليه السلام ليخبره بما جرى ، وكأنه يحمل بين طيات كلامه بوادر الحرب .

— المبعوث الثاني إلى قريش :

لم ييأس الرسول القائد من كسب جولات المفاوضات وهو حريص أكثر من أي وقت على حقن الدماء ، والله تعالى يثبت فؤاده ويشد أزره في المضي

(١) ابن هشام . السيرة النبوية ج ٣ ص ٣١٢ المجلد الثاني ، ط : دار ابن كثير .

قدما إلى ما هو مصمم عليه من استبعاد الحرب وابتغاء السلام ، فقرر إرسال رسول آخر ليجدد المحاولة ثانية ولتعلم قريش أن قائد المسلمين ذو عزيمة لا تنثني أمام تصلب المشركين خاصة وهم يلفظون آخر أنفاس التحمل والمقاومة بعد أن ضعفت صفوفهم وتشتت جمعهم ولم يبق لهم من رأي سوى طيش الطائشين منهم .

دعا عليه السلام عمر ليعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، وعمر رجل له خبرة كبيرة في المفاوضات ، وقد شغل مهمة السفارة لقريش في الجاهلية . . لكن عمر رأى أنه لا يصلح لهذه المهمة الشاقة فلا بد لها من رجل تكون له منعة في مكة ، فقال : «يا رسول الله ، إني أخاف قريشا على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني : عثمان بن عفان» .

رأى الرسول القائد عليه السلام الصواب في رأي عمر فأخذ به وأرسل عثمان بن عفان إلى قريش .

انطلق عثمان إلى مكة يحمل رسالة الرسول ﷺ للناس ، دخلها في جوار أبان بن سعيد بن العاص ، فلقي زعماء قريش وفي مقدمتهم أبا سفيان فبلغ الرسالة فسمعوا منه ، وقالوا له : «إن شئت أن تطوف بالبيت فطف» فقال : «ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ» واحتبسته قريش عندها . وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان بن عفان قد قتل .

إن ترشيح القائد عليه السلام لعثمان مندوبا عنه ليفاوض قريشا اختيار له ما يبرره ، ذلك أنه رجل له منعة في قومه ، وهو رجل ذو وجهة ومسالمة ومقبول عند القرشيين ، أما اعتذار عمر فكان بلباقة كبيرة فيها اخلاص في النصيحة

ووضع للأمور في نصابها حيث أن عثمان ينفع في هذه المهمة وهو ما لم يستطعه غيره .

بيعة الرضوان :

لما بلغه عليه السلام مقتل عثمان رأى عليه السلام أن كل الوسائل السلمية استنفذت مع قريش وأن هؤلاء الأجلاف لا يؤدبهم إلا القتال، فدعا أصحابه للبيعة على السمع والطاعة وتجديد العهد على الولاء التام للقائد الأعلى، فهرع أصحابه إليه وهو تحت شجرة متشابكة الأغصان، يباعدونه على الموت أو على أن لا يفروا . . ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة، فكان جابر يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقا بإبط ناقتة قد ضباً^(١) إليها يستتر بها من الناس .

فسميت ببيعة الرضوان حيث قال الرسول ﷺ لأصحابه «أنتم خير أهل الأرض». ونزل قوله تعالى يزكي هذا العمل المبارك :

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ

الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ

فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الفتح / ١٨

وبعد تمام البيعة علم المسلمون أن عثمان لم يقتل . . ولما علمت قريش بخبر البيعة دخلها الرعب فسارعت تدعو الرسول ﷺ إلى المهادنة والصلح .

وثيقة الصلح فتح للمسلمين :

بعد أن أخذ الرسول القائد ﷺ البيعة من المسلمين، وصمم على مناجزة القوم قائلا : «لا نبرح حتى نناجز القوم» ، دخل الرعب في قلوب المشركين

(١) ضباً إليها : لصق بها واستتر .

وأيقنوا بالهزيمة والدمار ، خاصة بعدما رأى سهيل بن عمرو وأعضاء الوفد التفاف الصحابة الكرام حول الرسول ﷺ يبايعونه على الموت وعلى ألا يفرّوا . وقد وقع كل هذا أمام أنظارهم ، عندئذ عاد سهيل إلى قريش يخبرها بما حدث ، وينصحها بالمسارعة إلى عقد الصلح مع محمد وأصحابه مبرزا لهم قوة المسلمين ، وشدة شوقهم للموت في سبيل نصره دين الله تعالى .

عندئذ جلس زعماء قريش للتشاور في أمرهم ، وعزموا على قبول التفاوض مع المسلمين ، وشكلوا وفدا يتكون من :

- سهيل بن عمرو (عامري) رئيسا .
 - حويطب بن عبدالعزى (عامري) عضوا .
 - مكرز بن حفص (عامري) عضوا .
- وقالوا لسهيل : أئت محمدا فصالحه وليكن صلحك : ألا يدخل في عامه هذا ، فوالله لا يتحدث العرب أنه دخل علينا عنوة .

وسهيل بن عمرو من سادات قريش ، ذو عقل وحلم وورزانة وأصالة في الرأي ، وبعد في النظر ، لذلك كانت قريش تدخره للقضايا المعقدة وتفزع إليه لحل المضلات .

الرسول القائد « يفاوض سهيل بن عمرو ^(١) :

كانت المفاوضات التي دارت بين الطرفين صعبة جدا . فقد كان وفد قريش يملئ شروطه المجحفة على الرسول ﷺ ، وكان عليه السلام يسمع من سهيل وأصحابه ويفاضهم بكل حلم ورجاحة عقل . ولعل المفاوضات تتعثر

(١) سهيل بن عمرو: رجل شهيم عف اللسان لبق في المحادثة، له منزلة عالية في دنيا الفصاحة، أسلم فيما بعد وحسن إسلامه فاستشهد في معركة اليرموك الشهيرة بالشام (انظر محمد أحمد باشميل - صليح الحديبية، دار الفكر ص ٢٤٤) .

أحيانا وتصل إلى طريق مسدود مما ينذر بقيام حرب بين الطرفين . . لكن القائد عليه السلام يجد لها حلا فيقدم لقريش تنازلات في ظاهرها تخدم المشركين ولكن في أبعادها خيرا للمسلمين إن كانوا يفقهون .

وفي هذه المفاوضات خصوصا ، لم يعط الرسول القائد ﷺ الاذن لأصحابه بالتدخل فيها ، وذلك على غير عادته ، حيث عهدوه كثير المشورة لهم في شؤون الحرب والسلم ، إذ كان كثير الرجوع إليهم ، وربما نزل على رأيهم وهو له كاره ، لكنه اليوم ينفرد بالعمل ويقرر ما يكرهون ، ولعل ذلك يعود إلى عوامل عدة منها :

١ - أنه ملهم من ربه ، مؤيد الخطى ، وقد سبق أن رأى في منامه ما يبشره بالنصر ، ورؤيا الأنبياء حق فلن يقع في خطأ بإذن الله ، وعينا الله ترعاه وتوفيقه يسد خطاه .

٢ - أن أصحابه بلغ بهم من التوتر النفسي بسبب منعهم من دخول مكة ما يجعلهم غير مستعدين للتفاوض ، واللحظات هذه حرجة جدا ، فالصحابة رضوان الله عليهم يرغبون في دخول مكة ، ولو بقتال . . وسفهاء قريش يسعون إلى الحرب ، ويتصرفون بتعنت وطيش وسفه . . والرسول القائد عليه الصلاة والسلام شديد الحرص الآن وقبل كل وقت على حفظ الدماء من أن تراق ، كما كان شديد الرغبة في السلم واغتنام الفرصة التي يظهر له من خلالها الفتح المبين ، وهو أمر قد يخفى على أصحابه الكرام .

وتم النقاش الطويل حول بنود المعاهدة ، وتم إقرارها ، ولم يبق إلا صياغتها وكتابتها . جرى كل هذا والصحابة واجمون ، صعدت الدماء إلى

رؤوسهم ، لا يعلمون ماذا سينجز عن هذه المعاهدة . . منهم من تماسك على نفسه ، ودفن أفكاره في رأسه ، ومنهم من أبدى المعارضة الصريحة ، فأنزل الله عز وجل سكينته على المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهل لها .

كتابة الوثيقة :

١ - عقيات في طريق الصياغة والرسول القائد ﷺ عاجلها بكل حكمة . دعا الرسول القائد ﷺ عليا ليملي عليه صيغة الصلح ، وقال : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فاعترض زعيم المشركين قائلا : لا أعرف هذا ولكن اكتب بسمك اللهم . فامتنع علي عن محو اسم الله الأعظم . فقال له الرسول ﷺ : أرني موضعها . فمحاها بنفسه . ثم قال لعلي اكتب : « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » فاعترض سهيل قائلا : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فأجابه الرسول ﷺ إلى ما أراد رغم ظهور علامات الامتعاض على وجوه أصحابه ولكنه أثر التنازل ليهدئ من الموقف خاصة بعد المشاورات الطويلة بين الفريقين التي سبقت صياغة الوثيقة .

٢ - بنود الوثيقة :

- هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلاحا :
- * على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض .
 - * على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم .
 - * ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه .

* وأن بيننا عيبة مكفوفة^(١) .

* وأنه لا إسلال^(٢) .

* ولا إغلال^(٣) .

* وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه .

* ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .^(٤)

* وأنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة .

* وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب : السيوف في القرب لا ندخلها بغيرها .

فلما فرغ من الكتابة أشهد عليه السلام على الصلح رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين .

أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعبدالرحمن بن عوف ،
وعبدالله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقاص ، ومحمود بن سليمة ،
ومكرز بن حفص ، وهو يومئذ مشرك ، وعلي بن أبي طالب كاتب الصحيفة .

وهكذا تصرف الرسول القائد بحكمة بالغة ونظرة فاحصة مع سائر
البنود :

— قبل الهدنة لمدة عشرة سنين رغم ما رآه من حماسة أصحابه للقتال والانتقام
ممن حرموهم مذاق الحياة في بلدهم ، ومنعوهم من دخول الحرم
الشريف ، وهو عليه السلام يعلم أن الهدنة ستكون فتحة مبيحة للمسلمين
بحيث يفتح المجال للمسلمين لنشر الدعوة بين الناس وهم آمنون .

(١) العيبة : موضع السر - مكفوفة : مطوية .

(٢) الاسلال : السرقة الخفية .

(٣) الاغلال : الخيانة .

(٤) دخلت خزاعة في حلف محمد ، ، وبنو بكر في عقد قريش .

— قبل العودة إلى المدينة دون الدخول إلى مكة على أن يعود إليها العام القادم للاعتبار ، وكانت الحكمة من ذلك الحفاظ على أصحابه من إراقة الدماء ونزولا عند رغبة قريش لحفظ ماء الوجه أمام القبائل العربية ، وهو حل وسط رضيهِ الرسول القائد ﷺ وقَبِلَهُ .

— استطاع الرسول القائد عليه السلام بحكمته وسعة صدره أن يقنع أبا جندل بالعودة من حيث جاء ، ورغم أنه وجد نفسه حزينا من هذا الموقف إلا أنه سمع وأطاع ليقينه أن الرسول ﷺ لا ينطق إلا عن حق ولا يأمر إلا بخير .

وهكذا كان الرسول القائد عليه السلام متيقظ الفكر أثناء المفاوضات لا يخطو خطوة إلا بعد علمه بأبعادها الايجابية ، ولا يقبل شرطا إلا بعد ضمان مصلحة الاسلام ، وإن كانت بعيدة ، ولا يتنازل عن رأي إلا بعد علمه بأن وراء التنازل مكاسب جمة يجنيها المسلمون .

ولا غرابة في ذلك ، فإن الرسول القائد أوتي من ربه عز وجل عقلا راجحا ، ورأيا سديدا ، وإلهاما من عنده يثبت خطاه في كل ميدان وعلى كل حال .

ولا غرو فإن هذه المواقف كانت نابعة من موقف رسمه الرسول القائد عليه السلام يوم خروجه إلى مكة من المدينة المنورة ، وهو أداء العمرة والكف عن القتال . . إذ قال •

«والذي نفس محمد بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» .

معارضة المسلمين للاتفاقية وحكمة الرسول القائد في معالجتها :

بعد الاتفاق النهائي على أهم بنود المعاهدة ظهرت معارضة شديدة من قبل الصحابة وخاصة على بعض البنود منها والتي في ظاهرها مظلمة وإجحاف مسلط عليهم . وقد كان أشد الناس معارضة لها عمر بن الخطاب ، وأُسَيد بن حضير سيد الأوس ، وسعد بن معاذ سيد الخزرج . . . علما بأن هؤلاء من أفاضل الصحابة ولا يشك أحد في حبهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

أعلن الثلاثة معارضتهم للاتفاقية بشدة . قال عمر بلهجة شديدة معبرا عن عدم رضاه بما حدث يا رسول الله . أأنت برسول الله ؟ قال : «بلى» قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : «بلى» قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : «بلى» قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟

لم يغضب الرسول القائد وهو الخبير بمعالجة المشاكل المستحدثة ولم يضجر من كلام صاحبه لكنه عليه السلام رد على عمر بحكمة بالغة ، وصدر رجب ، واتزان كبير . . قال له في يقين النبي المرسل وخبرة القائد الناجح المظفر : «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ، ولن يضيعني»^(١) .

لم يكتف عمر بهذا الجواب لأن الغضب بلغ منه مبلغا كبيرا ، بل اشتد به الغم على ما يراه غبنا في الاتفاقية فسارع إلى مناقشة أبي بكر الصديق ، فنصحه الصديق أن يترك الاحتجاج والمعارضة ، ويبن له أنه يبدو للرسول الملهم والنبي المرسل من الأشياء ما يخفى على غيره ، أو ليس عليه السلام مؤيدا بالوحي ، ألم يعده ربه بالنصر ووعد الله حق ؟ ثم قال له بكل حدة : الزم غرزه ، فإني أشهد أنه رسول الله ، وأن الحق ما أمر به ، ولن يخالف أمره

(١) تاريخ الطبري ، ج ٢ ص ٦٣٤ .

ولن يضيعه .

وفي الوقت الذي كانت المعارضة فيه صريحة من هؤلاء الصحابة بسبب ما اشتد بهم من الغم كان الحزن على ملأ قلوب المسلمين واشتد بهم الكرب ، وبدأوا يظهرون الامتعاض مما حدث وعدم الرضا به ، فاشتدت بهم الصدمة خاصة وأنهم سيعودون إلى المدينة دون الدخول إلى مكة والطواف بالبيت العتيق ، وهي أمنية غالية على نفوسهم بذلوا لها الجهد الكبير لتحقيقها . . فإذا بهم يصلون إلى مشارفها ويصدون عنها كالظمان الذي يرى الماء ولا يقدر عليه .

قال أبو سعيد الخدري يصف امتعاض الصحابة وكرههم للصلح : وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون الصلح لأنهم لا يشكون في الفتح لرؤيا الرسول ﷺ - رأى أنه خلق رأسه ودخل البيت فأخذ مفتاح الكعبة وعرف مع المعرفين - فلما رأوا الصلح دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون .

والأمر الذي زاد الطين بلة وكاد ينسف خطة الصلح ما جرى لأبي جندل بن سهيل بن عمرو كبير مفاوضي قريش . . يهرب أبو جندل من معسكر المشركين ويلجأ إلى المسلمين مستنجدا بهم وراجيا اللجوء إليهم ، فيراه والده سهيل ويسرع إليه يصفعه على وجهه ويجره من تلايبه ، ثم يرد إلى المشركين . . كل هذا يحدث والصحابة ينظرون ولا يستطيعون فعل شيء ، وهم بين يدي قائدهم عليه السلام . . وقد بلغ بهم الغم والكرب إلى درجة البكاء تألما وإشفاقا على أبي جندل الذي يُجر أمامهم ولا يستطيعون إنقاذهم وهم قادرون على ذلك .

وتشتد المعارضة للاتفاقية ، يقودها عمر الذي بلغ به الأمر بشق عصا

الطاعة ، غير أنه لم يحصل شيء من ذلك ليقينه أنه نبي مرسل ومؤيد بالوحي وأن الله ناصره لا محالة ، لذلك راح عمر يتهم نفسه ويتجرع طعم الندم المر طول حياته لما صدر عنه في ذلك اليوم العصيب .

قال عمر : ارتبت ارتيابا لم أرتبه منذ أسلمت إلا يومئذ (أي الصلح) ، ولو وجدت ذلك اليوم شيعة تخرج عنهم رغبة عن القضية لخرجت . ثم قال : مازلت أصوم وأتصدق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت يومئذ .

كل هذه الأحداث تقع بين يدي الرسول القائد وهو عليه السلام ثابت على مبدئه ، محافظ على هدوئه ، لم يجد الغضب على أصحابه إلى نفسه سبيلا . . بل كان يعالج الأمور بحكمة القائد الذي حنكته التجارب . وهو على يقين أنه على حق وأن الله لن يضيعه ، ويعلم أن أصحابه لم يصبهم الغم من جراء ما حصل إلا لأنهم راغبون في الجهاد في سبيل الله مقبلون على الله بكل اخلاص .

وهذه الحكمة البالغة والرأي السديد استطاع الرسول القائد ﷺ أن يكسب الموقف كما استطاع أن يكسب قلوب أصحابه الذين لا يشك لحظة في اخلاصهم ، فكان يردد على المعارضين بكل هدوء : «أنا رسول الله ولن يضيعني» حتى هدأت العاصفة وسكنت النفوس ، وتم ما أراده الرسول القائد ﷺ والجميع راضون ، فلا انتقام إذن ولا إبعاد أو عنف من أي شخص مهما كان . . بل الحكمة في المعالجة للأمور والتعقل والنظر إلى القضايا في أبعادها وما يسفر عنها في المستقبل القريب والبعيد .

وهنا ظهرت خبرة الرسول القائد عليه السلام فائقة في معالجة الأمور الجسيمة والقدرة على تهدئة الخواطر المؤمنة والحد من خلافات أعضاء الوفد المشارك .

وانتهت المفاوضات بسلام بعد صراعات معقدة وأحداث خطيرة كادت أن تؤدي إلى شق صفوف المسلمين لولا أن الله تعالى أنزل سكينته على الجند المجاهدين وربط على قلوبهم وألزمهم كلمة التقوى .

قال عز من قائل :

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ

الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ

فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿

(الفتح / ١٨)

وقال أيضا :

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا

فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ

عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى

وكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿

(الفتح / ٢٦)

بنود المعاهدة فتح للمسلمين :

لم تكد تمر فترة قصيرة على عقد المعاهدة حتى ندمت قريش على ما فرط منها من إملاء لبعض الشروط ، إذ ظهر لها عندئذ أنها بلية نزلت عليها ونصر للمسلمين ، منها : « أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا » وهو شرط في ظاهره كسب للمشركين ، لكن الرسول القائد عليه السلام أعلن لأصحابه أنه شرط نصر ، وذلك عندما أخبر أبا جندل بأن الله تعالى سيجعل له ولبن معه من المؤمنين فرجا ومخرجا .

أما أبو بصير عبيد بن أسيد فقد فرّ من مكة والتحق بالمدينة يريد رسول الله ﷺ ، لكن قريشا أرسلت وراءه اثنين من رجالها ليرداه إلى المشركين ، فاستجاب الرسول عليه الصلاة والسلام لهما تنفيذا لنصوص المعاهدة ، وفي الوقت نفسه أقنع أبا بصير بما يدخل على قلبه الرضا والارتياح فقال : «يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، فانطلق إلى قومك» وكرر عليه المقالة مرة ثانية لما أبدى أبو بصير حزنا لذلك .

لكن أبا بصير استجاب ورجع مع الرجلين ، وفي الطريق استطاع أن يثأر لنفسه فقتل أحد الرجلين وهرب الثاني ، ليعود أدراجه إلى الرسول عليه السلام بعد أن وفّت ذمته وأدى الذي عليه ليعلمه بما فعل ثم ينطلق إلى الساحل ليهدد قريشا في تجارتها .

ولم يطل الوقت حتى تجمع المسلمون الفارون من قريش على الطريق التجارية التي اعتاد المشركون أن يسلكوها فأصابوهم في أرزاقهم ، وعطلوا تجارتهم ، فأرسلت قريش إلى الرسول ﷺ تطلب إلغاء هذا الشرط ، حيث بعث أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ رسالة يقول فيها : «إنا أسقطنا هذا الشرط من الشروط ، من جاء منهم إليك فامسكه من غير حرج ، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا بابا لا يصلح إقراره»^(١) .

أمر المهاجرات من مكة إلى المدينة واستفادة الرسول من تفسير النصوص :
ما كاد الرسول ﷺ يستقر بالمدينة حتى قدمت عليه نسوة مؤمنات من مكة هاربات من سطوة المشركين ، منهن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط . .
فأرسل المشركون من يردهن إلى معسكر الكفر كما فعل سهيل بن عمرو بابنه

(١) عبدالله محمد الرشيد . القيادة العسكرية في عهد الرسول ، ص ٤٩٢ .

أبي جندل، لكن الرسول ﷺ لا يغلب في مثل هذه الحالات فأبى وقال: «كان ذلك في الرجال ولا في النساء» وبهذا يكون قد استفاد من تفسير نص المعاهدة برد الفارين دون النساء، حتى لا يلحق الأذى بالمسلمات مع عدم نقض الميثاق المبرم مع قريش .

ونزل القرآن الكريم بعدها يؤيده في موقفه هذا . . قال تعالى :

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَ كُُمُ الْمُؤْمِنَتُ
مُهَجِرَتٍ فَأَمَتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَتٍ
فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهْنَّ حِلُّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُهُمْ
مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانِيتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ
وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ وَسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا
ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يُخَكِّمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾

(المتحنة / ١٠)

وكانت صيغة الامتحان أن تُقسم بالله ما خرجت من بُغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، ولا عشقا لرجل ، وبالله ما خرجت إلا حبا لله ولرسوله .

فإذا قالت المسلمة المهاجرة ذلك اكتفي به في إيمانها وحرم ارجاعها إلى المشركين . ذلك حكم الله تعالى حكم به وأمر رسوله بتنفيذه ولا راد لحكمه

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَ كُُمُ الْمُؤْمِنَتُ
مُهَجِرَتٍ فَأَمَتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَتٍ
فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهْنَّ حِلُّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُهُمْ

مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ
وَلَا تُتَسَكَّرُوا بِعِصْمِ الْكَوَافِرِ وَسَلُّوْا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا
ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ (المتحنة / ١٠)

أحداث ما بعد الصلح :

— القائد يعفو ويصفح :

أبت عناصر من قريش إلا أن تعكر صفو المصالحة، فجاء فتيان منهم يستفزون المسلمين ويشتمون الرسول ﷺ سعيًا منهم إلى أن يبدأ المسلمون القتال، ويكونون بذلك قد بدأوا بنقض المعاهدة .

وفي تلك الأثناء أسر سلمة بن الأكوع أربعة من المشركين جاؤوا إليه يستفزونه ويشتمون الرسول عليه السلام، فأخذ سلاحهم وساقهم إلى قائده الأعلى ليرى رأيه فيهم . . كما جاء عمه عامر برجل يقال له مكرز يقوده إلى رسول الله ﷺ ومعه جمع من المشركين .

فهل ينتقم الرسول القائد من هؤلاء المعتدين وهو في حل من ذلك لأنهم بدأوا بالاعتداء ؟ لكن الرسول ﷺ نظر إليهم وقال : «دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه» .

— الرسول القائد عليه السلام يحل إحرامه ويأخذ برأي زوجته :

أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يحلوا إحرامهم، وينحروا بدينهم، ويحللوا رؤوسهم أو يقصروا . غير أنهم أبطأوا في بادئ الأمر ولزموا الصمت، فدخل الرسول ﷺ على زوجته غاضبا يشكو لها ما جرى من أصحابه، فلما علمت أم سلمة بالأمر أشارت عليه بأن يبدأ بنحر هديه بنفسه . قالت : «يا رسول

الله ، انطلق أنت إلى هديك فانحره فإنهم سيققدون بك» .

فاستحسن الرسول ﷺ الفكرة ، ولم يكذب يشرع في نحر هديه حتى تسابق أصحابه كل إلى هديه ينحره .

قالت أم سلمة : ثم أخذ - أي رسول الله - الحربة ينهم^(١) هديه ، فكان يأنظر إليه حين يهوي بالحربة إلى البدنة رافعا صوته «بسم الله والله أكبر» . قالت : فما إن رأوه ينحر توابوا إلى الهدي فازدحموا حتى خشيت أن يغم بعضهم بعضا .

وعند التحلل من الاحرام دعا الرسول لأصحابه بالرحمة ومغفرة الذنوب .

صلح الحديبية فتح مابين :

سبق قبل خروج الرسول ﷺ من المدينة إلى مكة بنية الاعتذار أن عقد تحالف بين قريش - جنوب المدينة - ويهود خيبر - شمال المدينة - الغاية منه جعل الرسول وجنده ومدينته بين طرفي كماشة .

فجاء صلح الحديبية فتحا مبينا حيث تم به فك الحصار من الناحية الجنوبية بطريقة سلمية - دبلوماسية - وبذلك تم للرسول القائد كسر شوكة الأعداء الجنوبيين .

وبعد الانتهاء من عملية الصلح توجه الرسول القائد وصحابته الكرام إلى خيبر لكسر شوكتها عسكريا بعد أن حمى ظهر جيشه من ناحية الجنوب .

ومن هنا توالى الانتصارات الواحدة تلو الآخر ، فدخل الناس في الاسلام بأعداد كبيرة وأقبلت وفود إلى الرسول ﷺ تعقد معه صلحا أو تعلن عن إسلامها . يقول الزهري :

(١) ينهم : نهم الرجل دابته : أي زجرها .

« ما فُتِح في الاسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس كلم بعضهم بعضا ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم تكلم أحد في الاسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك الستين - يعد الحديبية - مثل ما كان في الاسلام قبل ذلك أو أكثر .

هذا من أعظم المكاسب التي جناها المسلمون وهو تكثير عددهم وتقوية صفوفهم . ثم أنهم بعد عام دخلوا البيت الحرام واعتَمروا وهم آمنون وازداد الرسول يقينا بقوة إيمان أصحابه وثباتهم على الاسلام بحيث لم يرتد أحد منهم ولم يلتحق بقريش مسلم أبدا عزوفا عن رسول الله ﷺ . بل ازدادوا يقينا أن الرسول ﷺ لا يخطيء ، فهو مؤيد من ربه عز وجل مسدد الخطى ، فلا ضرورة للعجلة ، وتيقنوا أن رأي قائدهم أولى لهم من رأيهم لأنفسهم .

ومن دلائل الفتح المبين نزول سورة الفتح إثر العودة من صلح الحديبية مفتوحة بقوله تعالى :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۚ
وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝۳ ﴾

(الفتح / ١ - ٣)

وهي بشارة للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالنصر المبين والفتح القريب .

وفي السورة فضح الله تعالى المنافقين وكشف عن نواياهم الخبيثة كما فضح الأعراب الطامعين .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ
مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ
بِالْسِّنَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

(الفتح / ١١)

وجاء الاعلان بالرضا من رب العزة على أولئك المجاهدين الذي تحملوا كل المتاعب والأذايات في سبيل دين الله ، ورضوا وغضبوا لدين الله ونشطوا وتوقفوا من أجل نصره الاسلام إذ كانت كل حركاتهم وسكناتهم نابعة من عمق إيمانهم ، فجاءت المنحة من الله تعالى وهل من منحة أعظم من الفوز بمرضاة الله تعالى .

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ
الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ
كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

(الفتح ١٨ / ١٩)

موقف الرسول القائد « من اليهود

القائد يضمن حقوق اليهود :

من الخطوات الأولى التي قام بها الرسول القائد ﷺ بعد هجرته إلى المدينة المنورة تنظيم أمر سكانها وتحديد ما لهم وما عليهم من حقوق وواجبات ، ومن بين هؤلاء السكان اليهود وقد شملهم هذا التنظيم باعتبارهم من سكان المدينة إذ تضمنت الوثيقة بنودا تكفل لهم الحرية الدينية وتضمهم إلى الدولة ليصبحوا مواطنين بها ومن أهم بنودها :

- ١ - لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .
- ٢ - إن بين المسلمين واليهود النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .
- ٣ - إن بين المسلمين واليهود النصح والنصيحة والبر دون الإثم .
- ٤ - ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ .

وبإبرام هذه المعاهدة صار اليهود مواطنين في الدولة الفتية التي أسسها رسول الله ﷺ يدينون بالطاعة والولاء والنصيحة لقائدها عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

وهذا العمل الرائد الذي أقدم عليه القائد ﷺ منذ حلوله المدينة أرجأ قضية اليهود إلى أن يحين وقتها مع علمه بعداوتهم له ؛ حتى يتفرغ لكفار قريش الذين يلاحقون دعوتَه ويحاربونها في كل مكان لتكون من أوكد اهتماماته ، وحتى لا يقع هو وأنصاره بين عدوين شرسين أحدهما في الداخل (اليهود) والآخر من الخارج (كفار قريش) .

ولكن اليهود الذين أظهروا الاستسلام والولاء للدولة الإسلامية في البداية ما لبثوا أن كشفوا عن نواياهم الحقيقية في عداوة الإسلام والمسلمين بعد أن رأوا انتصارات المسلمين المتلاحقة وإقبال الناس على هذا الدين الجديد. ومن طبع اليهود أنهم لا يحافظون على العهد لأنهم يكرهون الإسلام والمسلمين ويضمرون الشر له ولهم وإن أظهروا الوفاق فإنهم يعتمدون على مبدأ الغدر والنفاق .

وعوض أن يفرحوا لحلفائهم في أول انتصار لهم على المشركين في غزوة بدر أظهروا عداوتهم وكشروا عن أنيابهم ومع ذلك صبر عليهم الرسول القائد ﷺ .

وواصل اليهود مكرهم وحسدهم للمسلمين على انتصارهم وأصبحت تحركاتهم واضحة للعيان مما أدى بالرسول القائد ﷺ إلى جمعهم في حي بني قينقاع فتوجه إليهم قائلاً :

«يا معشر بني قينقاع احذروا ما نزل بقريش وأسلموا فإنكم قد عرفتم بأني نبي مرسل» .

فقالوا له بلؤم وخسة : «يا محمد إنك لاقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة» .

وهذا الجواب تأكد الرسول القائد ﷺ من بداية غدرهم ونقضهم العهد، وأن أجوبتهم توحى بذلك إلا أنه صلى الله عليه وسلم لا يريد معاقبتهم على قول لم ينفذوه، فأرجأ الأمر حتى كانت الحادثة التي سمحت للرسول ﷺ أن ينتقم من البعض منهم .

التحرك المريب لكعب بن الأشرف^(١)

وفي هذه الأثناء كان كعب بن الأشرف أشد اليهود حقدا على الاسلام والمسلمين وإيذاء لرسول الله ﷺ قد صعد كيدته ضد الاسلام والمسلمين وشكك في الانتصار الذي أحرزه الرسول القائد ﷺ والمسلمون في غزوة بدر قائلا :

«والله لئن كان محمدا أصاب هؤلاء القوم - وقد وصفهم بأشراف العرب وملوك الناس - لبطن الأرض خير لنا من ظهرها». وقد كان يحرض اليهود ويحثهم على عداوة الرسول ﷺ ، بل تجرأ وذهب إلى قريش يحضهم ويبكي قتلاهم ، ونزل عند أحد زعمائهم يكيدهم للرسول القائد ﷺ وينشد الأشعار في هجائه ويبكي أصحاب القلب من قادة قريش الذين صرعوا في بدر وقفل عائدا إلى المدينة لكي ينشد قصيدة يشبب فيها بامرأة مسلمة تدعى أم الفضل بنت الحارث :

إحدى بني عامر جُنَّ الفؤاد بها ولو تشاء شفت كعبا من السقم
لم أر شمسا بليل قبلها طلعت حتى تجلت لنا في ليلة الظلم!
وتحوّل من أم الفضل إلى نساء مسلمات أخريات مشبها بهن حتى آذاهن ،
عندها كانت الفرصة سانحة كي يأمر الرسول القائد ﷺ بقتله قائلا :
«من لي من ابن الأشرف ؟ فإنه آذى الله ورسوله».

(١) كعب بن الأشرف : من قبيلة طيء من بني نبهان وأمه من بني النضير . كان غنيا مترفا معروفا بجماله في العرب ، وكان شاعرا من شعرائها ، وكان حصنه في شرق جنوب المدينة في خلفيات ديار بني النضير . كان يهجو المسلمين ويشبب بنسائهم ويمدح عدوهم .

القائد يأمر بقتل اليهودي كعب بن الأشرف :

لما قال رسول الله ﷺ مَنْ لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله . قام محمد بن مسلمة ، فقال : أنا يا رسول الله ، أتحب أن أقتله؟ قال : نعم .

عندها أمره القائد ﷺ على مفرزة فيها :

- عبّاد بن بشر
- أبو نائلة (أخو كعب بن الأشرف من الرضاعة) .
- الحارث بن أوس
- أبو عبس بن جبر .

وعند بقيع الغرقد اجتمعوا بالرسول ﷺ لتلقي التعليمات والأوامر فقال لهم : «انطلقوا على اسم الله . . اللهم أعنهم» .

ونفذ الأمير ما طلب منه وتمكن من قتل العدو بعد استعمال الحيلة ، وأعانه أصحابه عليه ، وأصيب الحارث في المعركة وعادت المفرزة إلى رسول الله ﷺ . . ولما وصلوا المدينة كبروا فسمعهم الرسول ﷺ فكبر وعرف أنهم قتلوه . . ولما انتهوا إليه قال : أفلحت الوجوه . قالوا : ووجهك يا رسول الله . فحمد الله على قتله .

ولما علمت اليهود بمصرع فارسهم وشاعرهم دبّ الرعب في قلوبهم فتظاهروا بإيفاء العهود ودفعهم الفرع إلى مقابلة الرسول ﷺ حيث قالوا له : «قد طرق صاحبنا الليلة وهو سيد من ساداتنا قتل غيلة بلا جرم ولا حدث علمناه» . فأجابهم الرسول ﷺ بقوله :

«إنه لو قرّ كما قرّ غيره - ممن هو على مثل رأيه - ما اغتيل ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان له السيف» .^(١)

(١) دراسة في السيرة . د. عماد الدين خليل ، ص ٣٢٧ .

معاقبة القائد ليهود بني قينقاع (شوال ٥٢هـ) :

لم يعاقب الرسول ﷺ يهود بني قينقاع لمجرد القول ولكن عندما ترجمت العداوة إلى فعل الاعتداء على كرامة امرأة مسلمة وجبت العقوبة وسببها كما ترويه كتب السيرة :

أن امرأة مسلمة دخلت سوق بني قينقاع وجلست عند صائغ يهودي تريد شراء الحلي ، فراودها أحد اليهود لكشف وجهها فأبت فعمد إلى طرف ثوبها فعمده وانكشفت عورتها . . صاحت المرأة ، فضحكوا منها ضحكا شديدا .

كان هذا المشهد بمحضر أحد المسلمين الذي لم يتمالك نفسه وارتمى على الجاني فقتله ، وقام يهودي وقتل المسلم .

عندها أدرك يهود بني قينقاع أنهم نقضوا العهد باعتدائهم على شرف امرأة وقتلهم المسلم ففروا وتحصنوا بحصونهم وهم أول يهود ينقضون العهد ، فغزاهم النبي ﷺ في عقر دارهم وحاصرهم خمسة عشر ليلة ، حتى أعياهم الحصار فأسلموا أمرهم إلى القائد محمد ﷺ ليحكم فيهم .

فقام المسلمون بتكثيفهم لقتلهم عقوبة لهم على خيانتهم ليعلم الجميع بأن كرامة امرأة مسلمة تعدل كرامة المسلمين جميعا وأنه من قتل مسلما كمن قتل المسلمين جميعا . عندها تقدم عبدالله بن أبي بن سلول - وكان حليفا لهم في السابق - من رسول الله ﷺ فكلمه فيهم وعدد مزاياهم في السابق ، وقد منعه من الأحمر والأسود ، فاستجاب له رسول الله ﷺ بقوله : هم لك .

فطلب من رسول الله ﷺ أن يكتفي بإجلائهم . فتم إجلائهم وغنم المسلمون ما كان لهم من مال ولم تكن لهم الأراضي إنما كانوا صاغة . . وتولى

عبادة بن الصامت بأمر من قائده صلى الله عليه وسلم إخراجهم من المدينة فتوجهوا إلى الشام ، فلم يلبثوا قليلا حتى هلكوا ونزل بهم عقاب الله تعالى .

مع العلم بأن الرسول القائد ﷺ كان متسامحا إلى أبعد الحدود ولم يأمر بإجلائهم إلا بعد أن صبر عليهم أولا ، ثم جمعهم ودعاهم إلى الاسلام وسمع ردهم ولما تحقق من نقضهم العهد عاقبهم .

هكذا تخلص المسلمون من إحدى القبائل اليهودية الرئيسية الثلاث المنتشرة منذ زمن بعيد داخل المدينة وخارجها ، فازدادت وحدة المدينة تماسكا وازداد اليهود ضعفا وكان لإجلاء يهود بني قينقاع وقع عظيم في نفوس اليهود الآخرين حيث كفوا عن المجادلة الدينية ورمي المسلمين بالآقوال المنكرة إذ دخلت هيبة المسلمين في قلوبهم وفي قلوب البطون العربية التي لم تكن قد دخلت في الاسلام ، وفسح المجال أمام الرسول القائد ﷺ لنشر دعوته .

عودة يهود بني النضير إلى المكر والخديعة :

يهود بني النضير من حلفاء القائد الرسول ﷺ مثل غيرهم من بني جنسهم وبنود الوثيقة تشملهم والمفروض أن عقاب يهود بني قينقاع يعيدهم إلى رشدهم ولكن الطبع يغلب التطبع وبما أن من طبيعتهم الغدر والمكر والحقد على الاسلام فإنه لا تمر مناسبة مفرحة كانت أو مؤلة إلا ووقفوا منها موقفا معاديا للرسول القائد ﷺ . . وقد ظهر ذلك جليا عندما تعرض المسلمون إلى محنة قاسية على يد كفار قريش إذ أصيب القائد صلى الله عليه وسلم وسقط في حفرة وكسرت رباعيته وأشيع بأنه مات ولم يحقق المسلمون نصرا ساحقا في أحد كالذي ببدر بل عدّه الأعداء هزيمة نكراء فأخذوا يطلقون الأقوال السيئة ويظهرون عداءهم وحقدهم وضعفيتهم وشماتتهم على الاسلام والمسلمين عامة وعلى النبي محمد ﷺ خاصة ، فقالوا :

«ما محمد إلا طالب ملك، ما أصيب هكذا نبي قط، أصيب في بدنه وأصيب في أصحابه».

وهذا القول كان كافيا لمعاقبتهم واستئصال شأفتهم مما دعا عمر بن الخطاب أن يستأذن قائده رسول الله ﷺ في قتل رؤوسهم، فما كان من الرسول القائد ﷺ إلا أن هداً من روعه مطمئنا إياه بقوله الحكيم :

«يا عمر ، إن الله مظهر دينه ومعز نبيه . ولليهود ذمة فلا أقتلهم . . ».

هكذا أثبت الرسول القائد ﷺ مرة أخرى أنه لا يعاقب على مجرد القول فإن تعدى القول إلى الفعل استحقوا العقوبة . . ولذلك أراد الرسول القائد ﷺ التثبت من الأمر واختبار هؤلاء اليهود فعليا للحكم لهم أو عليهم، فطلب منهم أن يعينوه ويشاركوه في الوقوف ضد عامر بن الطفيل الذي يتحرش ويستعد لحرب أهل المدينة، وفق المعاهدة .

فذهب إليهم مع نفر من أصحابه وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر وعلي، وعرض عليهم الأمر فقالوا : «نعم نعينك على ما أحببت» ثم خلا بعضهم إلى بعض وتآمروا على قتل النبي القائد ﷺ غدرا، فقال بعضهم لبعض : من يعلو هذا البيت فيلقي صخرة عليه - وهو جالس إلى جنب الدار - ويريحنا منه .

واختاروا لهذه المهمة عمرو بن جحاش بن كعب الذي قال : أنا لذلك . فصعد ليلقي عليه الصخرة .

وأخبر الرسول القائد ﷺ من السماء بمكر اليهود وغدرهم وأطلعه على نيتهم فقام وقال لأصحابه : «لا تبرحوا مكانكم حتى أعود إليكم» .

كلمات موجزة وعامة لا توحى بشيء معين ولا تفصح ولا تشير مطلقاً إلى ما ينوي القائد عليه السلام القيام به ، ولم يُطلع أحداً على إرادته حتى لا يتصرف البعض تصرفاً لا تضمن نتائجه . وقفل راجعاً إلى المدينة فلما أبطأ قام أصحابه في طلبه فأعلمهم بالخبر وأفصح لهم عن إرادته بأنه ينوي محاربتهم . . وأمر عليه السلام الصحابي «محمد بن مسلمة الأنصاري» أن يذهب إليهم ويبلغهم أمره العسكري .

«أخرجوا من بلدي فلا تسكنوني بها وقد هممت على ما هممت به من الغدر وقد أجلتكم عشرة ، فمن رأي منكم بعد ذلك ضربت عنقه»^(١) .

أوامر صارمة وواضحة لا تحتاج إلى تأويل وهي بمثابة الاعلان عن الحرب في حالة الرفض والاستمرار في البقاء مما جعل اليهود يستسلمون في بداية الأمر إلى تحذير القائد لهم ، إلا أن رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول حرضهم على البقاء في المدينة وعدم الخروج منها ووعدهم بأن يمدّهم بألفين من قومه وغيرهم يقاتلون عنهم ضدّ الرسول ﷺ . فأرسلوا إلى القائد عليه السلام يقولون له :

«إنا لن نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك» .

ولما وصل الخبر إلى الرسول القائد ﷺ قال : «حاربت اليهود» . فأمر القائد عليه السلام بالاستعداد لحربهم والسير إليهم .

ولما وصل إليهم ضرب عليهم حصاراً شديداً وشدّد عليهم المراقبة فتحصنوا بحصونهم ولم يخرجوا منها ولم يصل المدد من رأس المنافقين . . عندها أمر الله تعالى نبيه القائد بأن يحرق نخيلهم لإجبارهم على الخروج^(٢)

(١) المدرسة النبوية العسكرية ، ص ١٦٢ .

(٢) الأمر بحرق النخيل أمر إلهي لإجبار اليهود على الخروج وهو لا يتنافى مع آداب الحرب والجهاد في سبيل الله لأن الحرق خطة عسكرية يلجأ إليها القائد عند الضرورة .

قال تعالى :

﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمْ هَاقِئَةً
عَلَىٰ أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ﴾

(الحشر/ ٥)

ولما اشتد الحصار عليهم وامتلأت قلوبهم بالرعب طلبوا من الرسول القائد ﷺ أن يأذن لهم بالرحيل ومغادرة مساكنهم على أن يأخذ كل واحد منهم حمل بعير من مال ومتاع إلا السلاح ويترك الباقي غنيمة للمسلمين .

فقبل رسول الله ﷺ ذلك إذ أنه عليه السلام حقق هدفه من الغزوة ولم تكن غايته عليه السلام من حرهم قطع رقابهم ، فرحل البعض منهم إلى خيبر ورحل البعض الآخر إلى الشام .

وهكذا تم إجلاء طائفة أخرى من اليهود بسبب خرقها المواثيق ونقضها للعهد وخيانتها للرسول ﷺ ليكون هذا الانتصار مخففا عن فجائع متتالية أصابت المسلمين في غزوة أحد وحادثتي الرجيع وبئر معونة والتي كانت سببا غير مباشر لطرد هؤلاء اليهود من المدينة .

اتصالات ومؤامرات تدفع يهود بني قريظة إلى الغدر والخيانة :

— تأليب الأحزاب على المسلمين :

استقر زعماء بني النضير في خيبر وأخذوا يتدارسون أمر هزيمتهم النكراء وتوصلوا إلى أن فشلهم يعود إلى انفرادهم في قتال محمد ﷺ وعدم تضامنهم مع القبائل العربية الوثنية فكانت انتصارات المسلمين متتالية ، ولذلك سعهوا إلى تشكيل حلف يضم كافة القوى الوثنية واليهودية ليوجهوا ضربة مشتركة

للمسلمين . فقام زعماء بني النضير بالاتصال بقريش وغطفان وبقية القبائل الوثنية الكبرى لاقناعهم جميعا بحرب رسول الله ﷺ قائلين لكل من اتصلوا بهم :

«إنا سنكون معكم حتى نستأصله»

ولضمان الغلبة في نظرهم رأوا الاتصال بيهود بني قريظة لإثنائهم عن عزمهم الوقوف إلى جانب الرسول القائد ﷺ في هذه المعركة (معركة الأحزاب).

وتطوع حيي بن أخطب للقيام بهذه المهمة ، وتمكن من الدخول إلى المدينة واتصل بزعيم بني قريظة كعب بن أسد ، وأخذ يقنعه بالتمرد على محمد ﷺ وأصحابه والانضمام إلى الأحزاب والعمل سوية على توجيه الضربة القاصمة للعدو المشترك . وقد حاول كعب بن أسد التمسك بالميثاق الذي بينه وبين محمد والالتزام به قائلا :

«ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤوم وإني قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقا» . إلا أنه لم يثبت أمام مراوغات حيي فاستجاب له واشترط عليه أنه إذا ما غادرت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا دخل معه في حصنه حتى يكون مصيرهما واحدا .

وقبل حيي بذلك ونقض كعب العهد وأعلن براءته مما كان بينه وبين محمد ﷺ .

وهكذا وقع المسلمون بين عدوين شرسين : الأحزاب ويهود بني قريظة ، الذين كلفوا بحماية ظهر المسلمين فأصبحوا يشكلون خطرا جسيما على المسلمين ليطعنوهم من الخلف .

وعندما وصلت الأخبار إلى المسلمين بأن يهود بني قريظة قد نقضوا العهد كلف الرسول القائد ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عباد وآخرين للتأكد من الخبر، إذ قال لهم عليه السلام :

«انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا من هؤلاء القوم أم لا ؟»

فتوجه هؤلاء إلى حصن بني قريظة وسألوهم عما بلغهم عنهم فما كان جوابهم إلا أن قالوا: «من رسول الله ؟! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد» وعندما لامهم سعد بن معاذ وعنفهم سبوه وشتموه . وعاد الوفد يخبر الرسول ﷺ عن صحة ما بلغه من أنباء .

وقد هم يهود بني قريظة القيام بهجوم ليلي على قلب المدينة وأرسل زعمائهم حيي بن أخطب إلى معسكر قريش ليمدوهم بألفي رجل يستعينون بهم في هذا الهجوم، مما دفع الرسول القائد ﷺ إلى تجريد كتيبتين من خمسمائة فارس لحراسة المدينة والطواف في أحيائها وحماية أهلها ورفع معنوياتهم ومنع اليهود من التسلل إليهم .

وقد تمكن عشرة من أشداء اليهود من التسلل يوما إلى أطراف المدينة فتصدى لهم نفر من المسلمين واشتبكوا معهم في قتال بالنبال أسفر عن تراجع اليهود واحتمائهم بحصونهم^(١)

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه :

«لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطفان . . فكان مما ردّ الله به بني قريظة عما أرادوا أن المدينة كانت تحرس» .

ولما فرج الأمر وأيد الله جنده وتفككت عرى الأحزاب التي عادت إلى ديارها خائبة وبقيت بنو قريظة وحيدة مكسورة الجناح، كانت الفرصة مواتية

(١) دراسة في السيرة . د. عماد الدين خليل .

لمعاقبتها على غدرها وخيانتها في أخطر وأحرج ساعة عاشها المسلمون .

— القائد يأمر بالمسير إلى بني قريظة :

أمر الرسول القائد ﷺ مناد ينادي في الناس :

«من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة» .

فلبى أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل النداء وتوجهوا نحو بني قريظة لحصارها . هذا الحصار الذي أجبر يهود بني قريظة على الخروج من حصونهم والاستسلام لأمر الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه .^(١)

فاقترح الأوس على الرسول القائد ﷺ بأن يكون مصير مواليتهم من يهود بني قريظة كمصير موالي الخزرج من يهود بني قينقاع ، أي إجلاؤهم من المدينة ، إلا أن القائد عليه السلام تدخل بحكمته المعهودة قائلا :

«ألا ترضون بحكم سيدكم سعد بن معاذ ؟» قالوا بلى .

فأتاه قومه واحتملوه على حمار وأقبلوا معه على رسول الله ﷺ وسألوه أن يحسن إلى مواليتهم . عندها قال :

(١) يلاحظ أن الرسول القائد « استعمل الحصار ثلاث مرات مع اليهود ، وقد عمد عليه السلام إلى هذه الخطة العسكرية لفوائدها الجمة ومنها : إرهاب العدو - شعوره بالخوف - إعطاؤه مهلة للتفكير . مناسبة لراحة الجنود المسلمين - إجبار العدو على الخروج منهك القوى - عدم استعمال الأسلحة والمحافظة على الأرواح (بتصرف.. المدرسة النبوية العسكرية) .

«لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم». ولم يفكر سعد بن معاذ كثيرا وأصدر حكمه العادل والراوع في مواليه، فأمر بـ :
 - قتل كل من يقدر على القتال وحمل السلاح من الرجال.
 - سبي الذراري والنساء.
 - تقسيم الأموال بين المسلمين.

فقال له رسول الله ﷺ :
 «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة (أي سبع سماوات)» .

قال تعالى : ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۖ ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْثُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۖ ﴿٢٧﴾﴾ (الأحزاب / ٢٦-٢٧)

هكذا أقر الرسول القائد ﷺ حكم سعد بن معاذ، وسره بأن حكمه كان موافقا لحكم السماء، واطمأن القائد عليه السلام إلى اختياره الموفق - وهو أعلم بجنده - فكان القرار حازما وحاسما في حق بني قريظة، وقد أدرك سعد خطورة الجريمة التي ارتكبها حلفاؤه في الجاهلية بحق الدولة الإسلامية وكيان الأمة ومؤسساتها.

ونفذ الحكم في الحال إذ أمر الرسول القائد ﷺ بحفر خنادق في سوق المدينة فضربت أعناق مقاتلي يهود بني قريظة وأهيل عليهم التراب وقد بلغوا سبعمائة وخمسين مقاتلا ، وكان بينهم كعب بن أسد وحبي بن أخطب .
 وهكذا تخلص المسلمون من آخر تجمع يهودي يحيط بالمدينة .

غزوة خيبر

(محرم سنة ٧ هـ)

سبب الغزوة :

قضى الرسول القائد ﷺ على فلول اليهود المحيطة بالمدينة وأصبح ينتظر الفرصة المواتية لضرب التجمع اليهودي الخطير في خيبر والمواقع المجاورة لها، خاصة وأن خيبر غدت ملجأً يتجه إليه اليهود المبعدون من المدينة ليفكروا سوية في الانتقام من الرسول ﷺ وصحبه واسترداد مواقعهم ومصالحهم التي جردهم منها القائد رسول الله ﷺ .

ولما وصل نبأ فشل الأحزاب وهزيمة بني قريظة والعقوبة الصارمة التي حلت بهم اتصل بعض اليهود بزعيمهم سلام بن مشكم وسأله الرأي فأجابهم بقوله :

«نسير إلى محمد بما معنا من يهود خيبر فلهم عدد ونستجلب يهود تيماء وفدك ووادي القرى، ولا نستعين بأحد من العرب»^(١) ثم نسير إليه في عقر داره .

ف قالت اليهود : هذا هو الرأي .

ثم إن يهود خيبر ومن معهم من يهود بني النضير يعدّون العدة للسطو على المدينة، ويهددون أمن الدولة الإسلامية بمؤامراتهم ودسائسهم ومكرهم وحوزتهم للأسلحة الهجومية كالمنجنيق . «والمنجنيق كما هو معلوم ليس للقتال الدفاعي وإنما هو لمهاجمة المدن وتدميرها»^(١) .

(١) لعلمهم بالصلح الذي أبرمه القرشيون من الرسول صلى الله عليه وسلم أو لعدم ثقتهم بهم بعد أن فشلوا في الأحزاب .

(١) المدرسة النبوية العسكرية .

كل هذه المؤامرات والدسائس بلغت إلى الرسول القائد ﷺ مما جعله يمهد ويعد العدة لغزو خيبر في عقر دارها، إذ قرّر تصفية التجمعات اليهودية المتبقية وإن كانت بعيدة عن المدينة، حيث أنها تشكل خطرا دائما على عاصمة الدولة الاسلامية، وأولى هذه التجمعات يهود خيبر خاصة بعد أن أمن جانب قريش بالصلح الذي تم في الحديبية، والذي انتهى بهدنة بين المسلمين والقرشيين المشركين مدتها عشر سنوات .

القائد يرسم خطة لغزو خيبر :

اشتملت الخطة العسكرية التي رسمها رسول الله ﷺ على كل مقوماتها لضمان نجاحها، فكان الهدف منها واضحا وجليا، وهو غزو خيبر في عقر دارها واحتلالها وتدمير حصونها وقتل أبطالها .

ولتحقيق هذا الهدف اختار الرسول القائد ﷺ أن يقود المعركة بنفسه وأن يكون المقاتلون المجاهدون في سبيل الله المشاركون في غزوة الحديبية وبيعة الرضوان وعددهم ألف وستمئة مقاتل منهم مائتا فارس، وقد بشرهم المولى تبارك وتعالى بفتح قريب على أيديهم هو فتح خيبر ليواجهوا عشرة آلاف مقاتل من يهود خيبر الذين يملكون أسلحة كثيرة وعتادا قويا ويتحصنون بحصون منيعة .

وقد اختار الرسول القائد ﷺ الوقت المناسب لذلك، أي بعد القضاء المبرم على اليهود في المدينة وبعد تحييد قريش وتوقيع الصلح لعلمه عليه السلام أن يهود خيبر من أقوى الطوائف اليهودية بأسا وأعظمها دربة على القتال .

— اختيار القائد للطريق الآمن :

اختار الرسول القائد ﷺ طريقا آمنا من المدينة إلى خيبر إذ لم يشعر به أحد لا من خيبر ولا من غطفان حتى يحافظ على عنصر المفاجأة إذ ينوي الرسول ﷺ مباغتتهم حتى لا يتمكنون من الاستعداد للقتال ؛ لأن عددهم وعدتهم لا يستهان بها ، ولزيد من الحذر ومحافضة على أمن الجيش وسلامته أرسل القائد عليه السلام فرقة استطلاعية من الجيش تكشف له الطريق وترصد جواسيس الأعداء وتحركاتهم وتبحث عن كمائن العدو . . وفي هذا الاستطلاع تمكن قائد السرية من القبض على جاسوس ليهود خيبر من قبيلة أشجع ، وأمكن أيضا الاستفادة منه حول حقيقة الموقف العسكري .

— المسير ليلا ومفاجأة العدو نهارا :

كانت خطة الرسول القائد ﷺ أن يسير بالجيش ليلا وأن يكمن في النهار بعيدا عن أعين الناس حتى لا يتسرب الخبر إلى يهود خيبر وحلفائها وظل كذلك حتى نزل مشارف خيبر .

وفي صباح أحد الأيام فاجأ القائد عليه السلام العدو بجيش قوي وهم في مزارعهم خارج حصونهم فلما رأوه ارتبكوا وارتعبوا وخافوا خوفا شديدا وقالوا : « محمد والله . . محمد والخميس »^(١) .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلا وكان إذا أتى قوما بليل لم يقرهم حتى يصبح فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيحهم^(٢) ومكاتلهم^(٣) فلما رأوه قالوا : محمد والله ، محمد والخميس .

(١) الخميس : الجيش .

(٢) مساحيحهم : جمع مسحاة وهي مجرفة من حديد .

(٣) مكاتلهم : جمع مكئل وهو القفة الكبيرة .

فقال النبي ﷺ : خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

— قطع المـدد :

إن الرسول القائد ﷺ يدرك الصلة الوثيقة بين يهود خيبر وغطفان ، وأن غطفان حليف عسكري لها ولا تتأخر في مدّ المعونة إليها إذا ما تعرضت إلى أي هجوم ، وأن غطفان لا يشملها صلح الحديبية إذ لم تدخل في حلف مع القرشيين ولذلك وفور وصوله ونزوله عليه السلام بوادي الرّجيع (وهو مكان يقع بين خيبر وغطفان) أرسل مفرزة إلى بني غطفان لمباغتتها وإلقاء الرعب في ديارها .

ولما علمت غطفان بنزول الرسول ﷺ وجنده حاولت مدّ يد العون إلى خيبر ، وذلك بإرسال أربعة آلاف مقاتل ، إلا أنها لم تتمكن من ذلك وتراجعت ظنا منها أن الرسول ﷺ ينوي غزوها ، وهذا الاجراء حقق الرسول الكريم عليه السلام أمرين هامين هما : منع المساعدة وعزل خيبر عن غطفان ، ليكون الظرف ملائما لحصار خيبر والهجوم عليها .

— القائد يستشير أصحابه في اختيار مقرّ للقيادة :

أشار أهل الخبرة والاختصاص على الرسول القائد ﷺ أن يختار مكانا له يكون بعيدا عن تصويبات الأعداء فلا تصله سهامهم حتى لا يصاب وتنهار معنويات الجيش المسلم . ومن مقر القيادة كان المسلمون ينطلقون إلى القتال مزوّدين بالأوامر العسكرية التي يصدرها رسول الله ﷺ في حينها ، منفذين توجيهاته النبوية ثم يعودون بعد ذلك إلى مقرّ القيادة يصلّون وينامون ويرتاحون ويسعفون جراحهم .

— الرسول القائد ﷺ يسمح للمرأة بالمشاركة في هذه الغزوة :

الجهاد في سبيل الله فرض كفاية على الرجال والنساء وخروج المرأة إلى ساحات الوغى شجاعة نادرة منها أقرها الرسول ﷺ واستفاد منها .

قال ابن اسحاق : حدثني سليمان بن سحيم عن أمية بن أبي الصلت عن امرأة من بني غفار- قد سماها لي - قالت :

« أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار فقلنا يا رسول الله : قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا وهو يسير إلى خيبر فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا» فقال : على بركة الله .

فاصطحب معه عليه السلام إلى خيبر عشرين امرأة من نساء المسلمين تتقدمهم أم سلمة زوج رسول الله ﷺ وأم المؤمنين وهي التي خرجت معه إلى الحديبية .

ورغم القتال المرير لم تخرج المرأة عن وظيفتها الطبيعية فهي تسعف وتداوي الجرحى وتقوم على خدمة المقاتلين للرفع من معنوياتهم ، هكذا قامت النسوة في هذه الغزوة بدورهن وواجهن نحو الجيش الاسلامي خير قيام فأكرمهن الرسول ﷺ ببعض العطايا اليسيرة ولم يخصص لهن سهما .

— الخطة القتالية :

كانت خطة الرسول القائد ﷺ أن يجري القتال في ثلاث مناطق عسكرية وهي : منطقة النطاة ومنطقة الشق ومنطقة الكتبية ، وأن يبدأ بأقواها وأحصنها وبعد فتحها ينتقل إلى الأخرى .

ومن خطته عليه السلام أن يشغل بعض الحصون بقوات صغيرة ويركز هجموه على حصن واحد بقواته الرئيسية حتى يتم الاستيلاء عليه لينتقل إلى

حصن آخر . كما أنه عليه السلام قَسَمَ قواته حسب القبائل والبطون وجعل لكل قسم قائدا منهم حتى يشتد التنافس بين القوات ولكي يقوم بعضها بالمشاغلة بينما يأخذ الباقي قسطا من الراحة ليستأنف القتال مرتاحا عند الحاجة .

وكان القتال شرسا والمقاومة شديدة وخاصة في المنطقة الأولى حتى من الله تعالى عليهم بالفتح فهرب الناجون منها إلى الحصون الأخرى، فأخذ المسلمون يطاردونهم من حصن إلى آخر حتى فتحوا جميع الحصون إلا الحصنين الأخيرين فقد رغب أهلها في الصلح على أن تحقن الدماء ويخلى سبيل الذرية وأن يخرجوا من خيبر بذرارهم وأن لا يصحب أحد منهم إلا ثوبا واحدا فصالحهم الرسول ﷺ على ذلك .

— نتيجة المعركة :

لقد حققت الخطة النبوية العسكرية أهدافها من خلال العمليات العسكرية التي قام بها الجيش الاسلامي بقيادة رسول الله ﷺ وحملة الرايات والألوية وسائر الجنود وتمكن الجيش الاسلامي بعد قتال مرير من احتلال حصون خيبر والاستيلاء على ما فيها من أسلحة وعتاد وامتلاك لأراضيها ونخيلها وسبي نسائها وذراريها، ومن بين السبايا صفية بنت حيي بن أخطب، وقد اختارها الرسول القائد ﷺ لنفسه لتكون زوجة له، ولتصبح بعد ذلك أما للمؤمنين .

وقُتل عدد كبير من اليهود^(١) في هذه المعركة، كما استشهد عدد من المسلمين^(٢) .

(١) ٩٣ قتيلا في سيرة ابن هشام وفي السيرة النبوية دروس وعبر ٧٣ قتيلا في المدرسة النبوية العسكرية ص ١٠٢ .

(٢) من ١٥ إلى ٢١ في السيرة النبوية العسكرية .
١٥ شهيدا في السيرة النبوية دروس وعبر .

ولما تيقن اليهود من الهلاك على يد الجيش الاسلامي سألوا الرسول القائد ﷺ أن يجليهم عن المنطقة وأن يحقن دماءهم فاستجاب لهم ، ولما نزلوا إليه صلى الله عليه وسلم عرضوا عليه أن يبقوهم في أرضهم لقاء دفعهم للمسلمين نصف محاصيلهم فوافق الرسول القائد ﷺ تقديرا منه لإمكاناتهم الزراعية ورغبة منه في الاستفادة من أي طاقة تسهم في إعمار الأراضي واستثمارها الاستثمار الأمثل إلا أنه وضح لهم بأن موافقته هذه غير ملزمة إلى الأبد بقوله عليه السلام :

«فإننا إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم» .

لما يعرفه عن طبع اليهود من عدم الوفاء بالعهد ومن انتهاز أي فرصة تسنح للغدر والخيانة ، ثم إن خير كانت واحة واسعة الأطراف وفيها من الحداثق والمزارع ما يحتاج إلى الأيدي العاملة الكثيرة التي مارست أشغال الزراعة والفلاحة وتكون متفرغة لهذا العمل لذا فضل القائد صلوات الله وسلامه عليه أن يتولى هذا الأمر أهلها خاصة وأن شوكتهم انكسرت ولا خشية من وجودهم على أراضيهم ليستفيد من الأنصار والمهاجرين في الأعمال الحيوية الأخرى . تلك هي حكمة القائد في قبوله مناصفة الانتاج .

ولما علم يهود فذك (القرية اليهودية المجاورة لخبر) بما حل برفاقهم وبالمعاملة الطيبة التي آلت إليها الغزوة بعثوا إلى الرسول القائد ﷺ يعلنون رغبتهم في المصالحة على مناصفة أراضيهم ، وكان الأمر كذلك .

أما يهود وادي القرى فظلوا عصاة ، فتوجه إليهم الرسول ﷺ وضرب عليهم الحصار ودعاهم إلى الاسلام وأخبرهم بأنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحققوا دماءهم وحسابهم على الله ، ولكنهم أبوا وأصرّوا على القتال فقاتلهم الرسول ﷺ وفتح بلادهم عنوة وبقي هنالك أربعة أيام قسّم خلالها الغنائم

على أصحابه وترك المزارع بيد اليهود مناصفة عليها .
ولما وصل نبأ انتصارات الجيش الإسلامي المتلاحقة إلى يهود تيماء صالحوا
الرسول ﷺ على الجزية وأقاموا في بلدهم .
تلك هي نتيجة غزوة خيبر وآثارها على القرى اليهودية المجاورة لها ليعود
القائد عليه السلام وجنده إلى المدينة وليواصلوا مشوار الدّعوة إلى الله تعالى .

تدرج القائد في مواجهة اليهود

يتضح جلياً مما سبق أن الرسول القائد ﷺ لم يعاقب اليهود إلا على جرم شنيع ارتكبه ولم يأمر بحصارهم إلا بعد التثبت والتأكد اعتماداً على الأدلة القاطعة بنقضهم العهد أو كيدهم للاسلام والمسلمين أو التآمر عليهم لأنه صلى الله عليه وسلم كان حريصاً منذ استقراره بالمدينة على أن يقيم بينه وبينهم علائق سلم وأن يؤمنهم على دينهم وأموالهم وكتب لهم في ذلك كتاباً ولكن اليهود قوم غدر ومكر فخانوا العهد وتمردوا على بنود الوثيقة؛ لذلك استحقوا العقاب من الرسول القائد ﷺ وليس في استطاعة أحد من الكفار أن يلومه على ذلك.. . فما لبثوا غير قليل حتى اعتدوا على كرامة امرأة مسلمة ليكون هذا الاعتداء سبباً في إجلاء يهود بني قينقاع، بعدها تأمروا على قتل الرسول ﷺ فكان إجلاء يهود بني النضير، ثم خانوا وغدروا ونقضوا العهد في أشد المواقف حرجاً يوم الأحزاب فكان سبباً لغزو بني قريظة وقطع رقابهم .

ولما بدأ يهود خيبر يهثون أنفسهم ويعدون العدة للانقضاض على المدينة ومن فيها غزاها رسول الله ﷺ وحاصرهم حتى استسلموا وجعلوا أمرهم بين يدي رسول الله ﷺ . وبسقوط خيبر والمواقع المجاورة لها تمت تصفية آخر تجمع يهودي لعب دوره في مواجهة الاسلام وخصومته ووضع العوائق في طريقه، وحبك المؤامرات ضده، وقضى الرسول القائد ﷺ القضاء المبرم على القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية لليهود الحجاز .

وغدت كلمة الاسلام وحدها هي العليا في معظم مساحات الجزيرة العربية، وكُتبت كل الجيوب التي كانت تشكل نقاط ضعف في جسد هذه الدولة التي يحيط بها الأعداء من كل مكان .

وهذا التريث يدل على فكر ثاقب ورجاحة عقل مميزة إذ لم يحارب الرسول ﷺ كل اليهود دفعة واحدة بل انتظر الوقت المناسب وثبت ارتكاب الجرم للضرب على أيدي الخصوم وإجلائهم من المدينة في الوقت الذي لا يتمكنون فيه من جمع كلمتهم أو التحالف مع بعضهم البعض، فكان إجلاء يهود بني قينقاع في السنة الثانية للهجرة وإجلاء يهود بني النضير في السنة الرابعة للهجرة وقطع رقاب مقاتلي بني قريظة في السنة الخامسة للهجرة وغزو خيبر في السنة السابعة للهجرة .

هكذا يظهر حزم الرسول القائد ﷺ وتتجلى حكمته في تدرج معاقبة اليهود فكانت النتيجة أن استراح المسلمون من شرهم وكيدهم داخل المدينة وخارجها، وضمن بعد ذلك حدود دولته الجديدة، وانتشار دعوته داخل الجزيرة العربية وخارجها، إذ تمكن الرسول القائد ﷺ من تحويل التجمعات اليهودية في أقصى الشمال إلى جماعات من المواطنين في الدولة الإسلامية يدفعون لها الجزية ويحتمون بقوتها وسلطانها ويتمتعون بعدل قائدها وسماحته صلوات الله وسلامه عليه .

الفتح الأعظم

- فتح مكة -

(رمضان سنة ٨ هـ)

- قائد المسلمين : رسول الله ﷺ
- استخلف على المدينة أبا رهم الغفاري
- قائد المشركين : أبو سفيان وآخرون
- عددالمشاركين من المسلمين : أكثر من عشرة آلاف مقاتل.
- عددالمشاركين من المشركين: القادرون على القتال من سكان مكة
- النتيجة : فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا
- ١٤ قتيلا من المشركين في الخدمة.
- + قتل بعض من أهدر دمهم ولا يتجاوز الثمانية
- اثنان من المسلمين استشهدا

فَتْح مَكَّة

(رمضان سنة ٨ هـ)

لم يكن فتح مكة بالأمر الهين على المسلمين ولا بالميسور في كل الأحوال لذلك أيد الله تعالى نبيه عليه السلام بأن مهّد لهذا الفتح أحداثاً جسيمة سبقته لتكون جسراً للوصول إلى مكة بأقل ما يمكن من الخسائر إذ سبقت الفتح الأعظم فتوحات أخرى رفعت من شأن المسلمين وحطّت من قيمة الكفار المشركين من القرشيين فكان صلح الحديبية فتحاً مبيناً وغزو خيبر فتحاً قريباً، هذه الانتصارات المتلاحقة أدّت إلى رفع معنويات المسلمين الذين أصبحوا ينتظرون الفرصة السانحة للدخول إلى مكة حيث المسجد الحرام ليؤدوا مناسكهم بكل حرية واطمئنان وأمان .

وما كان رسول الله ﷺ ليغزو مكة وقد تحالف مع سكانها على هدنة مدّتها عشر سنوات ، ولم تمر عليها إلا سنتان لو لم يكن هناك سبب مقنع يدفعه إلى إعلان النفير العام ليتجمع حوله عشرة آلاف مقاتل كلهم عزيمة وإصرار وثبات مستعدون كل الاستعداد لتنفيذ أمر قائدهم رسول الله ﷺ كلّفهم ذلك ما كلّفهم حتى وإن لم تكن الوجهة معلومة .

المشركون ينقضون العهد والرسول ﷺ يتهيأ للغزو :

*** نقض العهد :**

حاول الرسول ﷺ وأصحابه دخول مكة لأداء مناسك العمرة فصدّته قريش عن ذلك ومنعته ، وبعد مفاوضات مطوّلة توصل الرسول القائد ﷺ بحكمته المعهودة لإبرام صلح مع القرشيين يعرف بصلح الحديبية ، ومن أهم بنوده :

— وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض .

— من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءاً من ذلك الفريق فأبيعدوان تتعرض له أي من هذه القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق .

وتنفيذا لهذا البند دخلت قبيلة خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ودخلت قبيلة بني بكر في عهد قريش ، وصارت كل من القبيلتين في أمان من الأخرى ، إلا أن قبيلة بني بكر أبت إلا أن تثار من خزاعة للعداوات السابقة فأعانتها على ذلك قريش فأمدتها بالسلاح وبيعض الرجال مستغلين ظلمة الليل ، فأغارت بنو بكر على خزاعة وقتلت منهم رجالاً كثيرين^(١) . .

فأسرع عمرو بن سليم الخزاعي إلى المدينة ليخبر رسول الله ﷺ بما جرى ويناشده التدخل للحلف الذي بينهم وبينه صلى الله عليه وسلم ، وأنشد قائلاً :

إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقلك المؤكدا
وجعلوا لي في كداء^(٢) رصدا وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا هم بيتونا بالوتير^(٣) هجدا^(٤)
وقتلونا ركعا وسجدا^(٥)

فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن أجاب بقوله : «نصرت يا عمرو بن سالم» .

(١) ٢٠ رجلا ، انظر السيرة النبوية ، د. مصطفى السباعي .

(٢) كداء : موضع بأعلى مكة .

(٣) الوتير : اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة .

(٤) هجدا : نائمين أو مستيقظين .

(٥) ركعا وسجدا : كان فيهم من صلى لله فقتل لأن خزاعة لم تكن آمنت بعد (انظر سيرة ابن هشام ٢ ص ٣٩٤/٣٩٥ .

ثم وفد على رسول الله ﷺ إلى المدينة بديل بن ورقاء الخزاعي في جمع من خزاعة يؤكدون خبر عمرو بن سالم ويعلمون الرسول القائد ﷺ بمن أصيب منهم وبإعانة قريش لبني بكر عليهم ثم رجعوا إلى مكة .

« فلما بلغ ذلك الرسول غضب غضبا شديدا وتجهز لقتال قريش إلا أنه لم يرد أن يخبر الناس عن وجهته لئلا تستعد قريش فتستباح حرمة البلد الحرام وتمتلئ أرجاؤه بأشلاء القتلى»^(١) .

— محاولات أبي سفيان لتجديد العهد، وموقف الرسول القائد ﷺ من ذلك:

علمت قريش أن معوناتها لبني بكر نقض صريح للعهد الذي بينها وبين محمد ﷺ وأن محمدا عليه السلام لن يسكت عنها وسيرد الفعل عاجلا أم آجلا ولذلك كلفت أبا سفيان بالذهاب إلى محمد ومطالبته بتجديد العهد وتمديده .

وفي الطريق التقى أبو سفيان ببديل بن ورقاء الذي أخفى عنه اتصاله بالنبي محمد ﷺ ولكن أبا سفيان بدهائه تيقن من لقاء بديل بمحمد عليه السلام بعد أن فتّ بعراجلته ووجد بها النوى .

ودخل أبو سفيان المدينة وقصد حجرة ابنته أم حبيبة - رملة - والتقى برسول الله ﷺ وحاول معه تجديد العهد وتمديده إلا أن الرسول ﷺ لم يجبه بشيء ولم يردّ عليه وبقي حائرا لا يعلم مراد النبي ﷺ فاستنجد بأبي بكر الصديق كي يتدخل ويتوسط له عند رسول الله ﷺ فأبى وقال : ما أنا بفاعل .

واتصل أبو سفيان بعمر بن الخطاب وكلمه في الأمر فردّ عليه بعنف

(١) السيرة النبوية . د. مصطفى السباعي ، ص ١٠٠ .

قائلا : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ، فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به .

وكلم عليا في محاولة أخيرة يائسة كما يبدو من كلامه إذ قال : إني قد جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائبا ، اشفع لي إلى محمد . فقال علي - كرم الله وجهه - ومحك يا أبا سفيان ، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه .

فازداد أبو سفيان حيرة وأظلمت الدنيا في عينيه ، ليعود إلى مكة خائبا مضطربا لا يستطيع الجزم بعزم محمد ﷺ ونيته .

— أمر القائد بكتم خبر الفتح واجراءات المحافظة على السرية:

كان الرسول القائد ﷺ حريصا على أن يكتم الخبر حتى لا تستعد قريش للقاءه وحتى يبعثها في عقر دارها وهو يعلم أن تسرب الخبر ميسور جدا خاصة من الذين يتوددون لقريش ويترددون عليها .

ففي المدينة منافقون يتظاهرون بالاسلام ويبطنون الكفر ويودون خدمة قريش حتى لا ينتصر الرسول ﷺ عليها .

وفي المدينة أيضا بقايا يهود - غير يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة الذين قضى عليهم ، ومن مصلحتهم أن ينقلوا أخبار المسلمين إلى قريش .

كما أن الطريق بين مكة والمدينة مفتوحة والدّاخلون والخارجون منها كثيرون قد ينقلون الخبر ، ولذلك التجأ الرسول القائد ﷺ إلى الله تعالى بالدعاء قائلا :

«اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها» .

ولزيد من ضمان كتمان الخبر قام الرسول ﷺ باجراءات أمنية احتياطية،

إذ وضع حراساً يقودهم عمر بن الخطاب يقومون بمراقبة كل الطرق المؤدية إلى المدينة ويراقبون الخارجين منها والداخلين إليها ويردّون كل من يريد الخروج ويشك في أمره ولا يسمحون لأحد بالدخول إلى المدينة حتى لا يطلع على أسرار المسلمين .

كل هذه الظروف الصعبة التي يتعذر معها حصر الخبر وعدم تسريه تم التغلب عليها بفضل الله ويقظة الحراس وتحقق كتمان خبر الاعداد والمسير إلى قريش حتى وصل الجيش الاسلامي إلى مشارف مكة .

إن هذه الترتيبات التي أمر بها رسول الله ﷺ كان يهدف من ورائها إلى حقن دماء المسلمين وعدم قيام حرب ضروس إذا ما تفتنت قريش وحشدت قواتها واستنجدت بحلفائها .

وبعناية إلهية ورعاية منه تعالى لم يتسرب الخبر رغم تنقل جيش ضخم قوامه عشرة آلاف مقاتل مع ما يحمله من إبل وخيول ومعدات وغيرها ومع ما تثيره تحركاتهم من ضجيج ورفع أصوات .

وحتى المحاولة التي قام بها حاطب بن أبي بلتعة باءت بالفشل واستجاب الله لدعاء نبيه عليه السلام وعسكر الرسول القائد ﷺ بجنوده على مشارف مكة دون أن يتفطن إليه أحد .

— معالجة القائد لمحاولة تسريب الخبر :

لم يكن حاطب بن أبي بلتعة منافقاً ولا يهودياً ولا عدواً للإسلام والمسلمين ، بل كان صحابياً جليلاً شهد بدراً مع رسول الله ﷺ ، وفي لحظة ضعف وسوء تقدير للعواقب أراد حاطب أن يخدم حلفاءه القدامى في الجاهلية من القرشيين ، فأرسل إليهم خطاباً يعلمهم فيه بنية رسول الله ﷺ لغزوهم .

وبعث الخطاب مع امرأة، دسّته في ظفائرها، وكشف الوحي حقيقة الأمر وتمكن علي والمقداد والزبير - بتكليف من الرسول القائد - من اللحاق بها بروضة خاخ وافتكاك الورقة منها .

ولما مثل حاطب بين يدي رسول الله ﷺ حاول أن يبرر فعلته النكراء وخيانتة لله ورسوله بقوله :

«إني امرؤ كنت ملصقا بقريش وكنت حليفا لهم ولم أكن من صميمها . .
ولم أفعله ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام» .

استمع الرسول القائد ﷺ لهذه الكلمات ولمس منها صدقا وإخلاصا وقدر الموقف ونظر إليه من جميع الزوايا بفكره الثاقب ورجاحة عقله التي يمتاز بها عن سائر البشر وألهم بالجواب ، فقال عليه السلام :

«أما إنه قد صدقكم . .» .

إلا أن عمر بن الخطاب اندفع إلى رسول الله ﷺ بقوله : «يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقد خان الله ورسوله» .
فقال عليه السلام :

«إنه شهد بدرا ، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على من شهد بدرا ،
فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» .

هكذا تصرف القائد عليه السلام مع من ظهرت خيانتة ليعطي المثل الأعلى في الرحمة والرفق واللين وهو النبي والرحمة المهداة فتصرفاته عليه السلام ملهمة ومؤيدة من الله تعالى وفيها من الأسرار التي لا يمكن للمرء أن يتفطن إليها أو يتوصل إليها إلا بعد حدوثها .

ويحلل الشيخ محمد الغزالي هذا الموقف بقوله : «إن حاطبا خرج عن جادة الصواب بهذا العمل وما كان له أن يوادّ المشركين وهم الذين تبجحوا بالكفران

وتظاهروا على العدوان وصنعوا بالمسلمين ما «حاطب» أعلم به من غيره.. .
لكن الإنسان الكبير تعرض له فترات يصغر فيها.

وقد استكشف النبي ﷺ خبيثة حاطب فعرف أنه لم يكذبه في اعتذاره.. .
على أن حاطبا شفع له ماضيه الكريم فجبرت عثرته وأمر النبي ﷺ المسلمين
أن يذكروا الرجل بأفضل ما فيه .

وهذا التقدير السامح علّمنا الاسلام ألا ننسى الحسنات والفضائل لمن
يخطئون حيناً بعد أن أصابوا طويلاً»^(١).

— مفاجأة العدو بوصول الجيش الإسلامي إلى مشارف مكة :

عسكر الرسول القائد ﷺ بجنوده عند مرّ الظهران بالقرب من مكة
وللتمويه على العدو وإرهابه أمر عليه السلام بأن يشعل كل جندي نارا حتى
يذهب إلى ظن المشركين أن العدد كثير جدا إذ يمكن أن يجتمع عشرة أنفار
حول نار واحدة وبذلك يتضاعف عدد الجيش المسلم في أعين الكفار إلى
عشرة أضعاف.. . وفعلا شعر أهل مكة بالخوف والذعر وخرج أبو سفيان
يستطلع الخبر والمسلمون في حذر شديد، ثم إن هذه النار جعلت الليل نهارا
وأصبح المسلمون المحاصرون لمكة قادرين على كشف أي حركة عسكرية
لأهل مكة تحت ضوء النار التي أشعلوها.

ولما اقترب أبو سفيان من معسكر المسلمين التقطه العباس^(٢) وأركبه خلفه
وأسرعه به إلى رسول الله ﷺ ليأخذ له الأمان ويدعوه إلى الاسلام وينطق
بالشهادتين حتى لا يفتك به من يراه .

وكاد عمر بن الخطاب أن يفتك به إلا أن العباس منعه من ذلك فتزاحما
حتى وصلا إلى خيمة رسول الله ﷺ .

(١) فقه السيرة . محمد الغزالي .

(٢) لقبه الرسول «بذي الحليفة» ، وقد خرج بأهله وعياله مسلما مهاجرا .

ولما مثل بين يدي رسول الله ﷺ طالب عمر بضرب عنقه لأنه قاد المشركين في بدر وأحد والأحزاب ، فأبى رسول الله ﷺ وتكلم كلاما كان له الأثر البالغ في نفس أبي سفيان ، فنطق بالشهادتين ليعنود إلى قومه محذرا من عاقبة التعرض لمحمد وجنده .

— رجوع أبي سفيان إلى مكة يحذر قومه :

أمر الرسول القائد ﷺ العباس أن يحبس أبا سفيان ليرى جيوش المسلمين وهي تتقدم نحو مكة وقد دججت بالسلاح وهي عازمة كل العزم على الدخول إلى مكة مهما كانت النتائج ، فما على أهل مكة إلا الاستسلام للحفاظ على الأنفس والدماء والأموال .

قال العباس : «ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال «أبو سفيان» : ما لي ولسليم ؟ ثم تمر القبيلة فيقول : يا عباس ، من هؤلاء؟ فأقول «مزينة» فيقول ما لي ولزينة ، حتى نفدت القبائل ، ما تمر قبيلة إلا ويسألني عنها ، فإذا أخبرته بهم ، قال : ما لي ولبني فلان ، حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء^(١) وفيها المهاجرون والأنصار- رضي الله عنهم - لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، فقال : سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ قال : قلت : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما .

قال : قلت : يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعم إذن^(٢) .

فأيقن أبو سفيان بأن قريشا لا طاقة لها بقتال هذا الجيش الذي يستعذب الموت من أجل تحرير الكعبة من براثن الشرك والجاهلية وعاد إلى قومه

(١) المرجع السابق .
(٢) سيرة ابن هشام م ٢ ص ٤٠٥ .

يدعوهم ، بل يناشدهم الاستسلام وينصحهم بذلك بناء على ما رآه من قوة هائلة وعزيمة صادقة واندفاع قوي يتمتع به الجيش الاسلامي .

عندها قال العباس لأبي سفيان : النجاء إلى قومك ، فعاد إلى قومه وهو يصرخ :

«يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . فقامت إليه هند بنت عتبة (زوجته) فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميت الدّسم الأحس ، قبح من طليعة قوم»^(١) .

«قال : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

قالوا : قاتلك الله وما تغني عنا دارك

قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن»^(٢) .

فما كان من القرشيين إلا أن اقتحموا بيوتهم وغلقوا الأبواب عليهم وطرحوا السلاح في الطريق ليأخذه المسلمون بعد ذلك .

وبهذه الطريقة ذات التأثير النفسي تمكن الرسول القائد ﷺ من الدخول إلى مكة دون إراقة دماء باستثناء من تصدّى لخالد بن الوليد وجنده فلقي حتفه وكان عددهم اثني عشر رجلا . واستشهد من المسلمين إثنان شدا عن الجيش فسلكا طريقا غير طريقه فقتلا جميعا .

— الفتح الأعظم وتواضع الرسول القائد ﷺ :

* دخول مكة :

من الله تعالى على نبيه بالفتح الأعظم ليدخل مكة معززا مكرّما ظافرا ومطأطئا رأسه متواضعا لله تعالى راكبا راحلته حتى أن شعر لحيته يكاد يمس ظهر ناقته وعليه عمامة سوداء من غير إحرام ولواؤه أبيض وهو يتلو سورة الفتح

في خشوع وتذلل وانكسار للعزیز الحكيم .

* تطهير القائد للكعبة :

ودخل الجيش الاسلامي مكة ودخل الرسول القائد ﷺ البيت الحرام وحوله ثلاثمائة وستون صنما فجعل يطعنهما بعود في يده ويقول :

«جاء الحق وزهق الباطل ، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد» .

فيسقط كل نصب من فوره على قفاه مع أنه قد شد بالرصا ص وثبت .

هكذا أراد الرسول القائد ﷺ معالجة الشرك بالوحدانية بعمل محسوس فإزالته عليه السلام لهذه الأصنام إذلال لها وتحقير لها ولعابديها ليبين للناس أنها لا تضر ولا تنفع ولا تدفع عن نفسها شيئا .

ثم دخل الكعبة وأزال ما بها من صور الشرك وصلى فيها وأهل مكة ينتظرون حكم القائد المنتصر فيهم . . وخرج للناس مستفسرا :

«يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟»

قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم .

فقال صلى الله عليه وسلم : «اليوم أقول لكم ما قال أخي يوسف من قبل : لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا فأنتم الطلقاء» .

— إهدار القائد لدماء بعض المجرمين وعفوه عن البعض منهم :

لما دخل رسول الله ﷺ مكة أعاد على مسامع الناس بأنه من دخل بيته فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، واستثنى نفرا عظمت جرائمهم في حق الاسلام والمسلمين ، إذ أمر القائد عليه السلام بقتلهم وإن كانوا متعلقين بأستار الكعبة ، ومن هؤلاء :

- عبدالله بن خطل : كان متعلقا - فعلا - بأستار الكعبة ، فقتله علي بن أبي طالب .
- الحارث بن نقيذ بن وهب : كان شديد الأذى برسول الله بمكة - قتله علي بن أبي طالب .
- مقيس بن صبابه : قتله نميلة بن عبدالله وهو متعلق بأستار الكعبة .
- الحارث بن طلائل الخزاعي : قتله علي بن أبي طالب .
- قيتان كانتا لابن خطل : تغنيان وتهجوان الرسول ﷺ قتلت احدهما واستؤمن للأخرى فأسلمت .
- سارة مولاة بني المطلب : وهي التي وجد معها كتاب حاطب بن أبي بلتعة . استؤمن لها فأسلمت .
- عبدالله بن سعد بن أبي السرح : كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فارتد مشركا راجعا إلى قريش .
- استأمن له أخوه من الرضاع عثمان بن عفان فأمنه النبي ﷺ فأسلم وحسن إسلامه .
- كعب بن زهير : استأمن له أخو بجير . . أسلم ومدح النبي ﷺ .
- عكرمة بن أبي جهل : فرّ إلى اليمن فاستأمنت له زوجته فأمنه النبي ﷺ فتبعته ورجع معها فأسلم وحسن إسلامه .
- وحشي بن حرب : هو قاتل حمزة في معركة أحد ، ثم أسلم وشارك في حروب الردّة وتمكن من قتل مسيلمة الكذاب .
- هبار بن الأسود : أسلم وحسن إسلامه .
- هند بنت عتبة : زوجة أبي سفيان ، أسلمت وبايعت .

— الشكر لله :

دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح الأعظم دار أم هانئ بنت أبي طالب وصلى في بيتها عند الضحى ثمانى ركعات شكرا لله تعالى على ما أنعم .

وأقام رسول الله ﷺ بمكة بضع عشر يوما يجدد معالم الاسلام ويرشد الناس إلى الهدى والتقوى ويدعو إلى توحيد الله وكسر الأوثان . . وأمر مناد ينادي بمكة :

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنما إلا كسره» .

غزوة حنين (شوال ، السنة الثامنة للهجرة)

عدد المسلمين :

- * عشرة آلاف ممن جاؤوا مع الرسول القائد لفتح مكة
- * ألفان من الأعراب والطلقاء والمؤلفة قلوبهم
- * ثمانون من مشركي مكة من مجموع الألفين المذكورين

عدد المشركين :

- * من هوازن وثقيف يزيد عن عشرين ألفا

النتيجة :

- * النصر للمسلمين على أعدائهم
- * قتل سبعين رجلا من ثقيف

الغنائم :

- * نحو أربعة وعشرين ألف بعير
- * أكثر من أربعين ألف شاة
- * أربعة آلاف أوقية من الفضة
- * ستة آلاف من السبي (النساء والذراري).
- * استشهد أربعة من المسلمين

غزوة حنين^(١)

(شوال - السنة الثامنة للهجرة)

✽ اجتماع الأعداء على مبادأة الرسول ﷺ بالقتال :

لما علمت هوازن وثقيف بما ناله الرسول ﷺ من فتح عظيم بدخوله مكة منتصرا مظفرا ، اجتمعت للاغارة على المسلمين ومبادأتهم بالقتال قبل أن يستعدوا لهم .

فجمع مالك بن عوف النصري^(٢) الرجال وجمع معهم الأموال والنساء والذراري ونزل بهم بأوطاس^(٣) . وقد عزم على كسب الجولة ومفاجأة المسلمين وذلك بنصب الكمائن لهم وهم عن ذلك غافلون ، فجاءه دريد بن الصمة وهو فارس مجرب محنك طغى في السن ولم يبق له إلا حسن المشورة وإبداء الرأي ، فقال له : يا مالك ، إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويغار الشاء ؟

قال : سقت مع الناس أموالهم ونساءهم .

قال : ولم ذاك ؟

قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم .

فانقض به^(٤) وقال : راعي ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت

(١) حنين : ماء بينه وبين مكة ثلاث ليال قرب الطائف .

(٢) كان شجاعا مقداما إلا أنه سقيم الرأي سيء المشورة .

(٣) أوطاس : وادي في ديار هوازن كانت فيه وقعة حنين .

(٤) انقض به : من الإنقاض : أحدث صفيرا ، ويفعلون ذلك عند انكار القول أو العمل .

لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحت في مالك وأهلك .

فسفر مالك رآيه وقال : والله لا أفعل ذلك . . إنك قد كبرت وكبر عقلك، والله لتطيعني يا معشر هوازن أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري . فقالوا أطعناك^(١) .

* استعداد الرسول القائد لخوض المعركة :

— ارسال العيون لتنصت الأخبار :

بعث الرسول القائد صلوات الله عليه وسلامه عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي لتنصت له أخبار المشركين، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم ما يريدون، فانطلق حاملا وصية قائده عليه السلام، واستطاع أن يتسلل إلى جيش الأعداء فيقيم فيهم مدة تكفيه من جمع الأخبار الهامة ثم قفل راجعا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام يحمل تفاصيل أخبارهم وما يزمعون عليه من الحرب .

فلما جاءته الأخبار بما فعل مالك بن عوف من جمع الأموال والنساء والذراري وراء الجيش قال صلى الله عليه وسلم : «تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله» .

— الرسول القائد يسلح جيشه :

لما علم الرسول القائد ﷺ بعزم المشركين على القتال وما أعدوه من حشود بشرية وعتاد عسكري، سعى عليه السلام إلى تسليح جيشه بما يكفل له

(١) مختصر السيرة النبوية لابن هشام : إعداد محمد عفيف الزغبى - دار المطبوعات الحديثة ، جدة ص ٢٣٨/٢٣٩ .

القدرة على القتال . فتوجه إلى صفوان بن أمية^(١) يطلب الدروع التي يملكها وأرسل إليه قائلاً : «يا أبا أمية، أعرنا سلاحك هذا نلق به عدونا غدا». فقال صفوان : «أغصبا يا محمد؟» قال : «بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك» قال : ليس بهذا بأس . فأعطاه مائة درع وتكفل بحملها .

— الرسول القائد يتوجه بجيشه إلى هوازن :

قبل أن يغادر الرسول ﷺ مكة عين عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية أميراً عليها، وسنه حينئذ احدى وعشرون سنة، وهو شاب شجاع مقدام، ثم خرج عليه السلام يريد هوازن بجيش قوامه عشرة آلاف فارس ممن فتح الله بهم مكة، وانضم إليه ألفان من مسلمة الفتح وأخلاط من الناس منهم الأعراب والطلقاء ومنهم الطامعون في المغانم . . لم يمنعهم الرسول القائد ﷺ من الخروج معه طمعا في أن يحسن إسلامهم عندما يشاهدون بأنفسهم إقبال المجاهدين على القتال بإخلاص حبا لله ولرسوله ﷺ .

✽ الرسول القائد يدير المعركة ويقودها نحو النصر :

— مفاجأة الأعداء للمسلمين :

كان عدد المسلمين مغريا بالفخر والاعتزاز فقد نصرهم الله في مواطن عديدة وهم قليلو العدد والعدة واليوم فهم ينطلقون إلى هوازن وعددهم يزيد على عشرة آلاف . . هذا الشعور جعل بعض الناس يغتر فيقول : لن نغلب اليوم من قلة .

(١) صفوان بن أمية : كان يملك ادراعا وسلاحا ولم يدخل في الاسلام بعد ، وهو يومئذ في المدة التي جعل له الرسول صلى الله عليه وسلم الخيار فيها وقد خرج مع المجاهدين في هذه الغزوة .

وسار الجيش نحو هوازن وثقيف يحدوه الأمل في النصر ، غير أن المشركين سبقوا إلى مداخل الوادي ونصبوا كمائن في الشعاب وسفوح الجبال ، وفي غفلة من المسلمين الذين اطمأنوا إلى كسب المعركة ، ومالت نفوسهم إلى تحقيق النصر ، هجم الأعداء في عمية الصبح وأمطروا المسلمين بوابل من النبال ، فارتفعت المقدمة لهذه المفاجأة واختلطت عليهم الأمور ، فانفرط عقدهم ، وتفرقت جماعتهم ، وتقهقروا إلى الوراء لا يلوي أحد على أحد ، وهم لا يدرون ماذا حدث لهم وكيف يمكن تفادي هذا الأمر الخطير .

— الرسول القائد يثبت في المعركة ويقود جيشه إلى النصر :

رأى الرسول القائد ﷺ أن جيشه قد اختل نظامه واضطربت صفوفه حتى شمت فيهم ضعاف القلوب وبعض الطلقاء والأعراب ، وتكلموا بما يظهر ضغائنهم على المسلمين ، فماذا يصنع عليه السلام في هذه الظروف الحالكة ، إنه ليعلم أنه رسول الله وأنه ناصره . . فعزم على الثبات ولو كان وحده ، وركض ببغلة في نحر العدو ركضا والعباس ماسك بلجامها ، وأبوسفيان بن الحارث ابن عم الرسول ﷺ أخذ بركابه ينافح عنه ، والرسول القائد عليه السلام يقول بصوت مرتفع :

«أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبدالمطلب» ثم نادى «إلي أيها الناس ، هلموا إلي أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبدالله» .

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم العصيب :

«اللهم أنزل نصرك ، اللهم إنك إن تشأ لا تعبد في الأرض بعد اليوم» .

وماذا تفعل القلة القليلة أمام الزخوف المهاجمة من الأعداء . . عندئذ وفي غمرة هذه الفوضى والذهول دعا الرسول ﷺ عمه العباس - وكان جهوري

الصوت - أن ينادي في الناس ويذكرهم بمواطن الايمان وأحداث البطولة الصادقة .

«يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب السَّمة، يا أصحاب البقرة» . فبلغ الصوت إلى سفوح الجبال وتجاوب صدهاء بين الأودية والشعاب، فلم تمض برهة من الوقت حتى سمع الرسول ﷺ أصحابه يقولون : لبيك، لبيك .

وفي هذه الأثناء والناس لا يزالون في ذهولهم بعيدين عن قائدهم انكفأ جمع من المشركين إلى رسول الله ﷺ يريدون قتله، منهم شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، قُتل أبوه يوم أحد فأراد أن يأخذ له بالثأر من رسول الله ﷺ لكنه صادف قائدا فذا صامدا، ورجالا أشداء يقاتلون دونه بشجاعة نادرة، فأنزل الله الرعب في قلبه فرجع خائبا خائر القوى مهزوما .

أما الصحابة الملتفون حول الرسول ﷺ فهم : أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والعباس وابنه الفضل، وأبو سفيان بن الحارث وابنه، وربيعه بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد^(١)، وكلهم من خلصاء أصحابه عليه السلام ومن آل بيته، فالموت لديهم أحلى مذاقا من البقاء بعد رسول الله ﷺ .

— اشتداد القتال وقول الرسول القائد «الآن حمي الوطيس» :

عاد الصحابة إلى ميدان القتال بكل قوة بعد سماعهم صوت الرسول ﷺ يدوي في أرجاء ساحة المعركة، وصوت العباس يناديهم ويذكرهم بمآثرهم وبطولاتهم السالفة، وبدأوا يتجمعون حول قائدهم ورموا بأنفسهم في أوار المعركة يصطلون بنارها، وأقبلوا على القتال بنفس راغبة في الشهادة عازفة عن الدنيا . فاشتد القتال، وفي الأثناء أخذ الرسول القائد ﷺ حصيات رمى بها المشركين ثم قال : «انهزموا ورب الكعبة» .

(١) استشهد يومئذ .

وتوالت الانتصارات والمؤيدات الالهية على عباده المجاهدين فأنزل الله تعالى ملائكته يثبتون أقدام المجاهدين الأبطال، فالتحمت الأجسام وتكسرت السيوف ولم يبق أمام المسلمين سوى النصر أو الشهادة، عندها قال عليه السلام: «الآن حمي الوطيس»^(١) فاندحر الأعداء تحت وطأة القتال وتشتتوا في الأودية والشعاب لا يلوون على شيء تاركين وراءهم قتلاهم في كل مكان وجرحاهم قد أثخنوا في دمائهم، كما تركوا وراءهم أولادهم ونساءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين .

واعتصم بعض المنهزمين بناحية يقال لها أوطاس، فأرسل الرسول القائد ﷺ في أعقابهم أبا عامر الأشعري في كتيبة من جنده، فقاتلهم حتى استشهد، فأخذ الراية ابن عمه أبو موسى الأشعري فقاتلهم حتى بدد شملهم وهزمهم شر هزيمة، وفر مالك بن عوف ومن معه من المنهزمين إلى الطائف ليتحصن بحصونها تاركا وراءه القتلى والجرحى والأسارى والغنائم .

وفي هذه الحادثة نزل قول الله تعالى :

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ
كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ
تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ
بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلِيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾^(٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا
وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾

(التوبة / ٢٥ / ٢٦)

(١) أي اشتدت رحى الحرب ، وهي من الكلم التي لم يسبق النبي إليها .

* موقف الرسول القائد من الغنائم :

بعد أن توقف القتال وفرت فلول المشركين لا تلوي على شيء رأى الرسول القائد ﷺ ضخامة الغنائم التي خلفتها هوازن وثقيف وراءها، فكره أن يتعجل بتوزيعها في تلك اللحظة، ورأى أن يتأنى في الأمر عسى أن يعود المشركون إلى رشدهم ويرجعوا إليه تائبين، أو يحدث الله بعد ذلك أمرا، فأرسلها إلى الجعرانة يستبقها هناك وجعل عليها مسعون بن عمرو الغفاري حارسا عليها إلى أن يحين أوان توزيعها .

* حصار الطائف^(١) :

لما تراجعت ثقيف منهزمة من حنين وأوطاس دخلت حصونها وتهيأت فيها لحصار طويل . . لكن الرسول القائد ﷺ سارع بجيشه ليحكم حصارها وهم في حصونهم دون أن ينوي الاغارة عليهم أو اقتحام حصونهم وإخراجهم منها قسرا . . إذ لا يزال عليه السلام يأمل فيهم خيرا .

حاولت ثقيف الدفاع عن نفسها بكل ما أوتيت من قوة، فرمت المسلمين بالنبال فأصيب بعضهم، وقذفتهم بكرات النار، كاد يهلك البعض من جرائها، عندها أصدر الرسول القائد أوامره لجنده بالانسحاب إلى الورااء لاتقاء الأعداء ولتفادي الاصابات المنجرة عنها .

واستعمل الرسول القائد عدة وسائل لاختضاع ثقيف وإكراهها على النزول من الحصون :

- ١ - أمر عليه السلام أن ينادى في ثقيف : أن من خرج إلينا من العبيد فهو حر، فهرب بضع وعشرون منهم متسورين الجدر والتحقوا بالرسول ﷺ فأعتقهم وسماهم «عتقاء الله» ودفع كل واحد منهم إلى رجل من

(١) الطائف : بلد كثير الاعناب والنخيل على ثلاثة مراحل من مكة .

المسلمين يعوله ويحملة .

٢ - رماهم بالمنجنيق محاولة منه لتدمير حصونهم .

٣ - أمر أصحابه بتقطيع الأغاب والزروع لحملهم على الاستسلام فأرسلوا إليه يستعطفونه ألا يفعل فترك ذلك .

طال الحصار حيث مكث المسلمون بضعا وعشرين ليلة ، عندها استشار القائد أصحابه فرغبوا في مواصلة الحصار ، ولما رأوا عزم الرسول ﷺ على عدم مهاجمة المنهزمين في حصونهم نزلوا على رأيه .

ثم استشار عليه السلام نوفل بن معاوية ، فقال : « يا نوفل ، ما ترى في المقام عليهم ؟ » فقال : يا رسول الله ، ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك .

فأمر القائد عمر بن الخطاب أن يؤذن في الناس بالرحيل ، دون أن يتم فتح الطائف ، بل دعا لثقيف قائلا : « اللهم اهد ثقيفا » .

ولم يطل بقاء ثقيف على شركها طويلا ، فما هي إلا أشهر حتى أرسلوا وفدhem إلى المدينة يخبر النبي برغبتهم في الاسلام وانشراح صدورهم لدين الله تعالى .

* الرسول ﷺ يرد السبايا إلى أهلها :

ما كاد يصل الرسول ﷺ إلى الجعرانة بعد انسحابه من الطائف دون فتحها حتى أقبل عليه وفد هوازن يستعطفونه عليه السلام معلنين الولاء والاسلام .

قالوا : يا رسول الله إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا من الله عليك .
وجلسوا يستدرون عطفه ويلتمسون رحمته وحلمه .

كان الرسول القائد ﷺ أرحم الناس بالناس ، وأعرف بالجميل لأهله ، وأشد عطفًا وحلمًا بكسير الجناح . . فهذه هوازن تأتيه مكسورة الجناح ، نزلت بها بلايا من كل جانب ، قُتل رجالها ، وأُسر فرسانها ، وغُنمت أموالها ، وسُبيت نساؤها وذرائعها . . فهم في حالة لا يحسدون عليها ، بلغوا من الذل مبلغه ، فلا بد من لفتة كريمة ترد لهم الاعتبار ، ومن يد سخية تداوي جروحهم خاصة بعد أن أعلنوا إسلامهم وجاؤوا إلى الرسول منقادين طائعين . .

هنا جاء دور القائد فسعى إلى اغتنام هذه الفرصة فأفاض عليهم من حلمه ما يوطد فيهم الايمان بأحقية رسالته عليه السلام ، وغمرهم بالكرم والاحسان بما يرغبهم في الاسلام ويكسبهم محبة الله ورسوله ، فينقلبون أنصارا لله بعدما كانوا أعداء لدين الله تعالى .

قال لهم عليه السلام :

«نساؤكم وأبنائكم أحب إليكم أم أموالكم؟ وقد كنت استأنيت بكم» أي انتظرتكم فلم تأتوا . وكان الرسول ﷺ قد قسم السبايا على المقاتلين . فقالوا : «يا رسول الله ، خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا . . بل أبنائنا ونساؤنا أحب إلينا» .

ماذا يفعل الرسول القائد بعد أن قَسَم السبايا على الناس ؟ وكيف يقنعهم بالتخلي عن ما أخذوه ؟ لابد للأمر من تدبير جيد وخطة محكمة .

فقال لهم : «أما ما كان لي ولعبدالمطلب فهو لكم . . وإذا أنا صليت بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا ، فإني سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم» .

لم يكن الرسول القائد ﷺ جبارا في أصحابه فيأخذ ما يملكون قسرا ، ولم

يكن في الوقت نفسه غليظ القلب فيتجاهل أولئك الذين جاؤوا مكسوري الخاطر مهيضي الجناح ، لكنه استطاع بما آتاه الله تعالى من حكمة في الرأي وقدرة على الاقتناع ، وبما حباه الله من محبة في القلوب أن يردّ النساء والأولاد إلى أهلهم دون أن يترك من رواء ذلك جرحا ينزف أو قلبا يحقد .

وبعد الصلاة قام وفد هوازن وقالوا مثل ما أوصاهم الرسول ﷺ ، فقام عليه السلام خطيبا في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

«أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء قد جاؤوا تائبين ، وإني قد رأيت أن أردّ إليهم سبيهم ، فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مال يفيء الله به علينا فليفعل» .

ثم قال : «ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم» إشارة إلى وفد هوازن . أراد بذلك أن يقتدي به الناس . فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ، وقال الأنصار مثل ذلك^(١)

وتسارع الصحابة إلى التنازل عما يملكون من السبايا اقتداء بقائدهم إلا ما كان من بعض الذين تمنعوا في بداية الأمر منهم : منهم الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، والعباس بن مرداس ، فهازال بهم رسول الله ﷺ حتى أرضاهم .

وبذلك رُدّت إلى هوازن نساؤها وذرايرها بفضل من الله تعالى ، ثم بحكمة الرسول القائد وحسن سياسته وبعد نظره .

* الرسول القائد يقسم الغنائم على المؤلفة قلوبهم :

وفي الجعرانة وفد على الرسول ﷺ ضعاف الايمان والمشركون والأعراب

(١) أبوشهبة : السيرة النبوية - دار القلم ، دمشق ج ٢ ص ٤٨٠ .

وأصحاب المطامع ، وكانوا قد فرّوا عند الفرع ، ولم يكتفوا بذلك بل أطلقوا ألسنتهم بالتشفي وحب الانتقام من المسلمين .

تجمع كل هؤلاء على الرسول ﷺ وتزاحموا عليه بشكل مرعب يريدون الغنائم ، ويطمعون في العطايا . تزاحموا عليه حتى نزعوا عنه رداءه وألجأوه إلى شجرة يطلبون المزيد من العطاء .

لكن الرسول ﷺ ماذا عساه أن يفعل في هذا الموقف المخرج ؟ . له أن يغضب ، وله أن يحرم هؤلاء الطامعين في المغنم الفارين في المغرم . . لكنه قابل كل ذلك بخلق رفيع وحلم واسع وصدر رحب .

قال عليه السلام للناس : «ردوا علي ردائي أيها الناس ، فوالذي نفسي بيده لو كان لكم عندي عدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ، ثم ما ألتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا» .

ثم قام إلى جنب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين اصبعيه ، ثم رفعها ، ثم قال :

«أيها الناس ، والله ما لي من فيئكم ولا هذه البرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط والمخيط ، فإن الغلول يكون على أهله عارا ، ونارا ، وشنارا يوم القيامة»^(١) .

وجاء أعرابي وجذبه من رداءه جذبة أثرت في عاتقه وهو يقول : مر لي من مال الله الذي عندك .

فالتفت إليه الرسول ﷺ فضحك ثم أمر له بعطاء^(٢) .

إنه الحلم العظيم ، والخلق الرفيع والخبرة الواسعة في كسب القلوب

(١) مختصر السيرة النبوية لابن هشام، إعداد محمد عفيفي الزغبى ص ٢٥٢ .

(٢) البخاري ومسلم .

والنصر عند المواقف الصعبة؛ لكل هذا حاز الرسول ﷺ حب أصحابه واستطاع أن يطفئ جذوة الغضب ونار الفتنة وهو يعلم أن أناسا يقادون إلى الحق بالبطون، وأن الكثير منهم همهم المغانم والأموال، فأغدق عليهم بالعطاء ليؤلف قلوبهم ويكسبهم إلى رحاب الاسلام .

قال صفوان بن أمية : مازال رسول الله ﷺ يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إليّ حتى ما خلق الله شيئا أحب إليّ منه^(١).

كان المؤلفة قلوبهم أول من نال حظا وافرا من الغنائم :

— أخذ أبو سفيان مائة من الابل وأربعين أوقية من الفضة، ولم يقنع بذلك بل أراد المزيد، وقال : وابني معاوية؟ فمنح مثلها لابنه معاوية . فقال : وابني يزيد؟ فمنح مثلها لابنه يزيد .

— وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير
— وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة بعير
— وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير

وكان كلما أعطى حكيم بن حزام استزاده، حتى قال له عليه السلام : «يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى»^(٢).

موعظة مؤثرة نفذت إلى قلب الرجل دون أن تترك فيه حقدا أو مأخذا على رسول الله ﷺ، بل استكفى بما أخذه وعاهد الرسول ﷺ ألا يمد يده بعده .

(١) رواه مسلم ٧/٧٥، والترمذي ٢٤/٨، وأحمد .

(٢) رواه البخاري .

قال : والذي بعثك بالحق لا أرزأ^(٢) أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا .
فكان أبو بكر وعمر يعرضان عليه العطاء فلا يأخذه .

كما وصل العطاء عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ومغرمة بن نوفل وغيرهم من ضعاف الايمان . والعجب أن هؤلاء الذين فروا عند الفرع هم الذين كثروا عند الطمع . . وشاء النبي ﷺ أن يلطف معهم ، وينسى ماضيهم تكرما وتألفا . . وماذا يصنع إن في الدنيا أقواما يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم» .^(٣)

* حكمة القائد من هذا التقسيم :

يبدو لأول وهلة ، ولكل ناظر نظرة سطحية ، أن هذا التقسيم غريب في حد ذاته ، يطرح تساؤلات عدة قد لا يهتدي إلى الاجابة عنها من لا يمعن التدبر في أفعال الرسول ﷺ المبنية على الحكمة .

أعراب طامعون ، ومشركون حاقدون ، ومؤلفة قلوبهم يهربون عند اللقاء ويقبلون عند العطاء ، فيعطيههم الرسول القائد عليه السلام ويجزل لهم العطاء .

وصحابة مجاهدون جاؤوا مع رسول الله ﷺ مخلصين يحملون راية الاسلام ويجاهدون في سبيل الله ويثبتون عند اشتداد وطيس القتال لا هم لهم في دنيا أو مغنم ، وإذا بهم يحرمون من العطاء ولا ينالون مما ناله الناس شيئا .

إنه أمر محير حقا ولا يفقه الحكمة منه إلا من أوتي إيمانا راسخا وثقة في أن كل أفعال الرسول القائد إنما تصدر عن حكمة وهدف نزيه .

(٢) اي لن آخذ من أحد شيئا .

(٣) محمد الغزالي : فقه السيرة .

وظهرت بعض بوادر الاعتراض من الأنصار، خاصة بعد أن أعطى الرسول ﷺ المؤلفة قلوبهم . . أمر زيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس، ثم فرضها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل أربعاً من الأبل وأربعين شاة، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً وعشرين ومائة شاة^(١).

وقد جاء أن الرسول ﷺ «أعطى الطلقاء والمهاجرين ولم يعط الأنصار شيئاً»^(٢).

وعتب الناس على الرسول ﷺ، ظنوا أن هذا الحرمان ضرب من الاعراض عنهم والاهمال لأمرهم . فقالوا : كيف يعطي أقواماً لا تزال سيوفنا تقطر من دمائهم ؟ ! .

عن عمرو بن تغلب قال : «أعطى رسول الله ﷺ قوماً ومنع آخرين فكأنهم عتبوا عليه» .

وهذا الأمر ليس غريباً لذلك لم يغضب الرسول القائد ولم يجد في نفسه عليهم شيئاً، بل سارع إلى وضع الأمور في نصابها وتوضيح ما غمض عليهم .

قال عليه الصلاة والسلام : «إني أعطي قوماً أخاف هلعهم وجزعهم، وأكُل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى، منهم عمرو بن تغلب» .

قال عمرو : فما أحب إليّ أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حُمر النعم .

وهذه الكلمة الهادفة والتزكية الصادقة استطاع الرسول ﷺ أن يطيب خاطر هذا الرجل وأمثاله، أما الأنصار فوجدوا في نفوسهم غبناً على ما حدث، حتى قال قائلهم : يعفو الله لرسول الله، يعطي قريشاً ويتركنا

(١) المباركفوي : الرحيق المختوم ، دار القلم ، بيروت ص ٤٠٥ .

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ج ٢ ص ٢٤٦ .

وسيوفنا تقطر من دمائهم .

فلما بلغت المقالة رسول الله ﷺ سارع إلى أصحابه الكرام يستجلي صحة الخبر ، ويوضح لهم حقيقة الأمر ، ويبين لهم ما غمض عليهم من المغزى الذي يرمي إليه بهذه القسمة ، فجمع الأنصار في خيمة وحدهم وقام فيهم خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« ما حديث بلغني عنكم ؟ » فقال فقهاء الأنصار : أما رؤسائنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئا ، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا : يغفر الله لرسول الله ...

ثم قال عليه السلام : « يا معشر الأنصار ألم آتكم ضلّالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . ثم قال : « ألا تحبون يا معشر الأنصار ؟ » قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ وبماذا نجيبك ؟ المنّ لله ولرسوله .

فقال : « والله لو شئتم لقلتم فصدّقتهم وصدّقتهم ، جئتنا طريدا فأويناك ، وعائلا فأسيناك ، وخائفا فأميناك ، ومخذولا فنصرناك » فقالوا : المنّ لله ولرسوله .

فقال عليه السلام : « أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة - شيء يسير - من الدنيا تألفت بها قوما أسلموا ، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الاسلام ؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحّالهم بالشاء والبعير ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لو أن الناس سلكوا شعبا ، لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرا من الأنصار . . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار »^(١).

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الطائف .

خطبة بليغة جامعة يلقيها الرسول القائد ﷺ على مجموعة من جنده المخلصين، تجمع بين الحق والصراحة، يسترضيهم بها ويزيل بعض ما شابههم من امتعاض أو خطأ في حقه صلى الله عليه وسلم . إنها رقة الأب الحنون على أبنائه، وعطف القائد الرحيم بجنده .

كلمات رقيقة تضرب على أوتار القلوب، وتهز المشاعر وتستولي على الوجدان، يبكي لها الأنصار حتى تخضل لحاهم ويقولون بأصوات صادقة : «رضينا بالله ربا وبرسوله قسماً» .

كلام صريح لا مDAHنة فيه ، ولا مخادعة ، ولا وعود كاذبة أو أماني برآقة ، إنما هو الحق ولو كان مرأً .

إنها القيادة الناجحة والنبوة التي تسمو على كل نقيصة ، وتأبى إلا إعلان الحق وإظهار الدين وإعلاء كلمة الله تعالى . . هكذا استطاع الرسول القائد ﷺ أن يعود بأصحابه وهم أشد حبا له من أي وقت مضى ، فيزداد الصف قوة ، والقلوب ألفة والجند طاعة والتزاما بأوامره عليه الصلاة والسلام .

* الرسول القائد يمن على مالك بن عوف بالعفو ويرد عليه أهله :

ومن تمام بره عليه السلام أن يسأل عن زعيم ثقيف مالك بن عوف ويمنحه فرصة اللحاق به وإعلان إسلامه .

قال عليه السلام : «أخبروه أنه إن أتاني مسلما رددت إليه أهله وماله وأعطيته مائة من الابل» .

فلما علم مالك بالخبر رغب في اللحاق برسول الله ﷺ في غفلة من ثقيف خشية أن تمنعه إذا علمت بالأمر، ولحق بالرسول عليه الصلاة والسلام ،

وأعلن إسلامه فردّ إليه الرسول ﷺ أهله وأعطاه ما وعده، وردّ عليه اعتباره بين قومه فاستعمله على من أسلم من قومه، فكان يقاتل بهم ثقيفا، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم وجاؤوه بعد أشهر مسلمين .
وهذه الحكمة كسب الرسول القائد مالك بن عوف وكسب بعد قومه ثقيفا فدخلوا في الاسلام راغبين .

غزوة تبوك

- جيش العسرة -

(رجب - السنة التاسعة للهجرة)

عدد المسلمين : ثلاثون ألف رجل بقيادة رسول

الله ﷺ

عشرة آلاف فرس

اثنا عشر ألف بعير

عدد الروم : أربعون ألف مقاتل جندهم هرقل من

الروم ونصارى العرب من لحم وجذام وغسان

وعاملة .

النتيجة : انهزم الروم وجبنوا عن المواجهة فلم يقع

قتال

صالح الرسول القائد ملك أيلة وأهل

جرباء وأذرح وأكيدر دومة الجندل .

غزوة تبوك (رجب - السنة التاسعة للهجرة)

✽ الاستعداد للغزوة :

كان من سياسة الرسول القائد إذا علم أن قوما همُّوا بغزوه أن يبادئهم قبل أن يغزوه، وقد بلغه عن طريق الأنباط^(١) الذين يتاجرون بين الشام والمدينة استعداد الروم للإغارة على المدينة، وأن هرقل قد هيا جيشا بأربعين ألف مقاتل واستنفر متنصرة العرب من لحم وجذام وغسان وعاملة فجندهم وعبأهم ورزق أصحابه لسنة وأعد قواته للمواجهة حتى وصلت مقدماتهم البلقاء فعسكروا بها .

وبادر الرسول القائد بالاعلان عن عزمه على مواجهة الروم وكسر الشوكة المتبقية في جزيرة العرب بعد القضاء على اليهود في خيبر وعلى المشركين بعد الفتح وهوازن وحنين . وقد كان صلى الله عليه وسلم قلما يخرج لغزوة إلا ورى غيرها ليعمي الأخبار على الأعداء إلا في هذه فإنه جلى وجهته وأخبر بمقصده لصعوبة المواجهة وبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو حتى يأخذ الناس عدتهم لقتال بني الأصفر خاصة وقد طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويؤثرونها على الجذب والحر والعسرة لذلك أعلن الرسول القائد ﷺ بوضوح أنه يقصد غزو الروم ، وأرسل يستنفر القبائل ويحثهم على الجهاد .

فبعث بريدة بن الحصيب إلى الفرع وأبارهم الغفاري إلى قومه بني غفار وأبا واقد اللبثي إلى قومه وأبا جعدة الضمري إلى قومه بالساحل ورافع بن مكيث إلى جهينة ، ونعيم بن مسعود إلى أشجع ، وبديل بن ورقاء والأبسر بن

(١) الأنباط : قوم ينزلون السواد والبطائح بين الشام والعراق .

سفيان إلى كعب بن عمرو من خزاعة، والعباس بن مرداس إلى بني سليم .
ورغب الرسول القائد ﷺ في الجهاد فخرج معه ثلاثون ألف رجل وعشرة
آلاف فرس واثنا عشر ألف بعير ، وكانت تعبئة ضخمة رغم عسرة الناس
وجذب البلد، وأمر الرسول القائد بالتجهز والاستعداد للمواجهة والصمود
أمام العدو، فلم يعتمد صلى الله عليه وسلم أسلوب التهديد والاكراه
لإخراج الناس إلى الغزوة، بل تم الأمر من خلال الحث والدعوة والتذكير
فاستجاب الناس مختارين دون رهبة أو رعب واستطاعت القيادة النبوية أن
تجمع كل الطاقات المسلمة لتواجه بها فلول الروم المعتدين .

* تجهيز جيش العسرة :

حرض الرسول القائد ﷺ أصحابه على المشاركة في تجهيز الجيش، كل
بحسب طاقته، فقال : «من جهز جيش العسرة فله الجنة» .

وقد استجاب الصحابة لأمر الرسول القائد فشارك كل من قدر بالقليل
والكثير فممنهم من أنفق مدا أو مدين ، ومنهم من جاء بكل ماله ، ولم يبخل
إلا المنافقون .

إن تزويد جيش العسرة بالمال والسلاح والمؤونة يحتاج إلى ميزانية سنوية
عامة لكن أغنياء المسلمين سددها على مستوى فردي فذ وتحملوا أعباءها
المادية : فقد جهز عثمان بن عفان ثلث هذا الجيش ، وقدم أبو بكر كل ماله :
أربعة آلاف درهم وقال : «ترك لأهلي الله ورسوله» وجاء عمر بنصف ماله ،
وحمل العباس وطلحة وابن عوف وسعد بن عباد ومحمد بن مسلمة
وعاصم بن عدي أموالا كثيرة .

وتسابق الناس في الصدقة والخير والمعروف : هذا يأتي بالتمر وذاك ببعير
وذلك بنفقة يتجهز بها الخارج ، وألقت النساء بحليهن في ثوب مبسوط بين

يدي الرسول القائد، وبعثت بعضهن بما قدرن عليه من خلاخل وقرط وخواتم، وشارك الفقير بما استطاع رغبة فيما عند الله .

فأبدى الرسول القائد ﷺ إعجابه بجنده ورضاه عنهم واستطاع التخفيف من نقص التمويل لهذا الجيش العرمم الخارج لمسافة بعيدة وفي حر شديد يتطلب كثرة الظهر وكفاية من الزاد .

لقد أمر الرسول القائد ﷺ جيشه بالاستكثار من النعال فقال : «إن الرجل لا يزال راكبا ما دام منتعلا » فالصحراء مترامية الأطراف لا يكفيها نعل واحد ولا اثنان فكيف يتنقل الجندي على الجمر إذا فقد نعله .

لم يكتف المنافقون بإمساك أيديهم عن الانفاق في تجهيز جيش العسرة، بل سخروا من المنفقين المقلين ولمزوا المتطوعين الذين لا يجدون إلا جهدهم واتهموا الكثيرين في النفقة بالرياء وحبّ الظهور ، وكل ذلك من أجل خلخلة الصف المسلم باللغظ والغيبة والاتهام والسخرية .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنْ
الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا
جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(التوبة / ٧٩)

وجاء البكاؤون يرغبون في الخروج ولا يجدون جهازا فيسألون الرسول القائد أن يحملهم فيجيئهم بصراحة : لا أجد ما أحملكم عليه . فتتدفق دموعهم غزيرة أسفا على عدم تمكنهم من الخروج مع الرسول القائد للجهاد

في سبيل الله . وينزل الله توبته عليهم ويعذرهم فلا حرج من تخلفهم . قال تعالى :

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾

(التوبة / ٩٢)

ثم يسر الله للبكائين السبعة من جهزهم ، فقد روي أن عثمان بن عفان تولى تجهيز ثلاثة منهم ، وتكفل العباس باثنين ، وجهاز يامين بن عمرو الآخرين .

لقد تعلم المسلمون من هذه الغزوة أن الجهاد بالمال قبل الجهاد بالنفس ، فتسابقوا إلى الانفاق وتنافسوا في التجهيز امثالاً لأمر الله ورسوله بالجهاد بالأموال . قال عز وجل :

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (التوبة / ٢٠)

إن الجهاد بالمال دليل صدق المسلم في إسلامه وهو أهم فارق بين المؤمن والمنافق . قال تعالى :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(التوبة / ٨١)

* تحرك القائد بالجيش إلى تبوك :

بدأ التجمع لملاقاة الروم في أيام قيظ وقحط وتتطلب جهودا مضيئة ونفقة كبيرة، لكن الرسول القائد ﷺ عزم على تحدي الروم بإعداد جيش العسرة وتدريبه على تحمل المشاق ولم يرض بالسكوت على التحرك البيزنطي أو انتظاره حتى يوجه ضربه لأن ذلك يعني الاندحار والانتحار، بل تولى صلى الله عليه وسلم زمام المبادرة والتجهز السريع، والانطلاق عبر المتاعب والمصاعب للرد على التحدي النصراني.

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَقَلْتُمْ
إِلَى الْأَرْضِ﴾

(التوبة / ٣٨)

وبعد أن أحكم الرسول القائد التجهز خلف على المدينة محمد بن مسلمة أميرا وعبدالله بن أم كلثوم إماما للصلاة، وعلى أهله علي بن أبي طالب، الذي طعن في إبقائه المنافقون فقالوا خلفه الرسول ﷺ خوفا عليه وأبقاه مع النساء والصبيان. ولم يطق علي - كرم الله وجهه - أن يسمع هذا الغمز فانطلق إلى الرسول القائد يبلغه ما تكلم به المنافقون ويرجوه أن يسمح له بالخروج للجهاد لكن الرسول القائد يهدئ من غضبه ويقول له : «أما ترضى أن تكون مني بمثابة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي ؟».

ثم أمر الرسول القائد ﷺ بالتجمع بشية الوداع لتوزيع الرايات والألوية وتنظيم صفوف هذا العدد الهائل (ثلاثون ألف مقاتل). وقد انطلق موكب مهيب عشرة آلاف فارس واثنا عشر ألف بعير وبدأ الجيش في التحرك صوب تبوك، كل ثلاثة يتعقبون على بعير واحد، وظهرت صعوبات أثناء سير

الجيش كشدة الحر ونقص الماء والزاد وطول المسافة وقلة الظهر رغم ما أعده الرسول القائد وجنده من تجهيز وما بذلوه من جهود ونفقات ، وحفت بهذا الجيش العظيم عناية الله فلما اشتد العطش بالمسلمين حتى كادت الرقاب تقطع استجاب الله لدعاء رسوله بطلب الغيث وأنزل المطر فشرب الجند وملأوا أوعيتهم ووجدوا أن السحابة لم تجاوز العسكر .

لقد كان الاستنفار لهذه الغزوة في رجب ملابسة بسبب تلاعب المشركين بالأشهر ، ففي العام التاسع للهجرة كان شهر رجب الحقيقي هو جمادى الآخرة وبذلك نزول مشكلة استحلال رجب وهو من الأشهر الحرم .

لقد كانت تبوك امتحانا شديدا من الله محص به صفوف جيش العسرة ، فقد كان الله قادرا على أن يطلع رسوله على دعوى غزو غسان للمدينة وأنه لا صحة له ، فقد أدخل هذا الخبر رعبا في قلوب الصحابة حتى قال عمر لجاره : «هل جاء الغساني؟» . ولكن الله أراد أن يحمل الرسول القائد وجنده في رحلة عامة لذلك العدد الغفير الذي يصعب تجميعه في مكان بالمدينة ليتلقى عنه ويتربى معه على قيم الاسلام ، فكانت فرصة للبناء وكشف النفوس وتصحيح الأخطاء بإشراف الرسول القائد مباشرة على ذلك الجيل .

وبقي الصحابة لا يعلمون عن حقيقة الوضع في بلاد الروم لتكشف خبايا النفوس وحنايا الضمائر وتكون الغزوة تجربة فذة للقائد ليواصل البناء .

وقد اتخذ الرسول القائد دليلا إلى تبوك هو علقمة الخزاعي ، فمضى الجيش على بركة الله .

* توجيهات القائد في الطريق إلى تبوك :

سارت الألوף المؤلفة من المسلمين تلتزم بأوامر الرسول القائد في كل تحرك وتتلقى من المعين النبوي ما يروي ظمأها ويثبت إيمانها وعقيدتها وتتعلم من

الرسول القائد الحزم والجد وتتدرب على الطاعة والصبر وتلزم الأدب مع القيادة الحكيمة .

وواصل الجيش سيره إلى أن بلغ الحِجْرَ (ديار ثمود) حيث الآبار والماء الزلال، فأصدر الرسول القائد أمراً صارماً «لا تشربوا من مائها» ورغم أن العطش يقطع الأعناق ويذبح الصدور لم تقع مخالفة واحدة في جيش قوامه ثلاثون ألف رجل، كما حظر الرسول القائد ﷺ العجين الذي خلط بهاء تلك الديار فلم يؤكل بل جعلوه علفاً للإبل . إنه الالتزام الجماعي : صبر ومصابرة على العطش وامتنال للأوامر .

ثم جاءت المعجزة إذ دعا رسول الله ﷺ ربه أن يسقيهم، فانهمر المطر وشرب العطاشى وبردت الأكباد وارتوت القلوب وامتلأت الأواني، إنه غيث الله لجند الله استجابة لرسول الله أمير الجند في تلك الغزوة . . كما وجه الرسول القائد ﷺ ثلاثة أوامر إلى الجيش مع اشتداد الريح في الليل : «لا يقوم أحد . . من كان له بعير فليوثق عقاله . . لا يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه» .

ومن ثلاثين ألف رجل حصلت مخالفتان : رجل خرج وحده لقضاء حاجته، وآخر خرج وحده يطلب بعيره، فأصابهما مكروه نتيجة المخالفة^(١) .

كما اتخذ الرسول القائد ﷺ في هذه الغزوة حرساً على الجيش حتى لا يفاجأ على غرة، واستعمل على حرسه عباد بن بشر، فكان يطوف على العسكر بأصحابه .

ولما كانت النفقة قليلة والعطش شديداً فكر الصحابة بنحر النواضح، لكن عمر بن الخطاب أشار أن نحرها يقلل الظهر واقترح تجميع الأزواد ودعا الرسول القائد بالبركة فيها فملاً الجنود أوعيتهم وأكلوا حتى شبعوا - بعدما

(١) حملت الريح أحدهما حتى ألغته بجبل طيء وخنق الآخر الذي ذهب لحاجته . انظر سيرة ابن هشام القسم الثاني ص ٥٢١ ، ٥٢٢ .

اضطروا لأكل أوراق الشجر حتى تورمت شفاههم - وكان أكثر من الدعاء في صلاته^(١) يسأل ربه النصر على الروم كما يسأل مولاه الغيث وبركة الطعام .

* موقف الرسول القائد من المتخلفين عن الغزوة :

مثلت غزوة تبوك اختبارا عظيما محص الله به المشاركين فيها، فقد امتاز المؤمنون فخرجوا لها وسارعوا إلى تلبية ندائها وضحوا بالمال والنفس وتحملوا طول الطريق والحر والعطش وتركوا الظلال والغلال والمياه والنساء فطوبى للسابقين المجاهدين .

وتأخر البعض فلم ينطلقوا مع الرسول القائد ﷺ لكنهم لحقوا بعد ذلك، فكلما ذكر متخلف قال النبي عليه السلام : «دعوه فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه» .

فقد تأخر أبو خيثمة مع أهله فعاد في يوم حار ووجد زوجته أعدت له مجلسا وبردتا ماء وجهتا طعاما، فوقف على باب بستانه وقال : «رسول الله في لهب الشمس والريح والحر وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيا وامرأة حسناء في حاله مقيم . . ما هذا بالعدل» فأقسم أن لا يدخل بستانه حتى يلحق بمحمد ﷺ .

وجهزت له زوجته راحلة وزادا وأسرع للالتحاق بالرسول القائد فأدركه بتبوك ودعا النبي له بخير .

(١) تأخر الرسول « في الوضوء يوما وكاد الفجر أن يسفر، فتقدم عبدالرحمن بن عوف وصلى بالناس حفاظا على الصلاة في وقتها، وصلى القائد خلفه . وقال : «أحسنتم .. إنه لم يتوف نبي حتى يؤمه رجل صالح من أمته» .

وهذا أبو ذر أبطأت به راحلته فتأخر ثم تركها ولحق برسول الله ﷺ فقال عنه صلى الله عليه وسلم «رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده» .

ويمكن تصنيف المتخلفين عن غزوة تبوك إلى أربعة أقسام :

١ - مأمورون مأجورون : تخلفوا بأمر الرسول القائد ﷺ وهم : علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة وعبدالله بن أم كلثوم .

٢ - معذورون : وهم الضعفاء والمرضى والمقلون كالبكائين .
قال تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا انْصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٩١)
وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾

(التوبة / ٩١-٩٢)

٣ - عصاة مذنبون : تابوا فتاب الله عليهم مثل أبي لبابة وأصحابه والثلاثة الذين تخلفوا وصدقوا فلم يخلعوا أعدارا .

٤ - ملومون مذمومون : وهم المنافقون الذين آثروا الظل على الحر والراحة على التعب واعتذروا عن الخروج ، فقد عسكر عبدالله بن أبي دون ثنية الوداع ثم خذل بأتباعه جيش العسرة فلم يخرج ، بينما ذهب البعض يبرر تخلفه بخشية النساء من بني الأصفر ، والبعض يشبث عن الجهاد ويخوف بالروم الذين يعدون أكبر قوة في ذلك العصر ، وشارك البعض منهم في الغزوة فشكك في المعجزات وخالف أوامر الرسول

القائد، وحاول بعضهم اغتياله ورميه عن ناقته من العقبة، إلى جانب
لمز المتطوعين ورمي المنافقين بالرياء والسخرية من المؤمنين .
وعموما فقد فضح معسكر النفاق في هذه الغزوة ونزلت آيات الله تكشف
المنافقين :

﴿ لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾

(التوبة / ٨١)

وقال عز وجل يفضح المنافق الجد بن قيس :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ آذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ
سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

(التوبة / ٤٩)

* موقف الروم من قدوم الجيش المسلم :

لما سمع الرومان وحلفاؤهم بزحف الرسول القائد عليهم أخذهم الرعب
ولم يجرؤوا على التقدم والمواجهة بل تفرقوا داخل حدودهم، أربهم عدد
المسلمين ففروا إلى حدود الشام . وقد استهدف هرقل بانسحابه إلى الداخل
أن يستدرج القوات المسلمة ويجرها إليه ثم ينقض عليها، لكن الرسول
القائد ﷺ لم يتح لهم فرصة تحقيق هدفهم وعسكر في تبوك آخر نقطة في توغله
شمالا .

وشاور الرسول القائد أصحابه في مجاوزة تبوك والتقدم فقال عمر بن
الخطاب : «إن كنت أمرت بالمسير فسير» . فقال النبي ﷺ «لو أمرت بالمسير
لما استشرتكم فيه» . فقال عمر : «يا رسول الله ، إن للروم جموعا كثيرة وليس

بها أحد من أهل الإسلام وقد دنوت منهم حيث ترى وقد أفزعهم دنوك فلو أنك رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله لك في ذلك أمرا» .

لقد مثلت تبوك خطوة مسلحة صوب الخارج وتجاوزت نطاق العرب وجزيرتهم فكان انسحاب الروم هزيمة منكرة حصل بها الرسول القائد ﷺ وجيشه على سمعة عسكرية جيدة ومكاسب كبيرة لا يمكن تحقيقها لو حصل صدام بين الجيشين، وبذلك انكسر تحدي الروم للمسلمين ويثس المنافقون من التعويل على الروم في القضاء على الإسلام وأهله .

❖ الوصول إلى تبوك وأعمال الرسول القائد :

لما وصل الرسول القائد إلى تبوك بعد جهد وعناء لقلة الظهر وطول الطريق ونقص الزاد وشدة العطش، فجر الله عينا غزيرة ارتوى منها الجند . وظل الرسول ﷺ طيلة إقامته بتبوك - وقد دامت عشرين يوما - يقصر الصلاة^(١) ويجمع وينتظر عودة الروم لكنهم فروا وجبنوا عن المواجهة .

فلما تأكد الرسول القائد من انهزامهم أرسل إلى ملك أيلة يصالحه على أن يذعن أهلها للمسلمين ويدفعون الجزية ثلاث مائة دينار ، ويتولى المسلمون تأمينهم على حياتهم ، وقد كتبت وثيقة بين الطرفين ونصها :

«بسم الله الرحمن الرحيم . . هذه أمانة الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤية وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله تعالى وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر» .

(١) نام رسول الله « يوما فلم يستيقظ حتى كانت الشمس قيد رمح فقال: «الم أقل لك يا بلال اكلا لنا الفجر» فقال: يا رسول الله ذهب بي من النوم الذي ذهب بك. فانتقل الرسول من موضعه غير بعيد فصلى .

وقد أهدى صاحب أيلة الرسول القائد بغلة وكساه بردا .

كما صالح الرسول القائد أهل جرباء وأذرح لهم أمان الله ورسوله وعليهم في كل رجب مائة دينار وافية طيبة والله عليهم كفيل .

وأرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل ليصالحه فأخذه وصالحه الرسول القائد على ألفي بغير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح .

فلما أمن حدوده وصالح أهل تلك البلاد قرر العودة إلى المدينة . وقد كان لهذه الغزوة أثر معنوي ضخم إذ جاءت ركائز النصرانية في أرض العرب لتسلم الرسول القائد ، فجاء وفد أيلة ليهادن دولة الاسلام ، ووصل رسول قيصر إلى تبوك ليعلن الهدنة ودانت جزيرة العرب للاسلام ولم تكن مهمة جيش العسرة في تبوك أن يدمر ويسفك ويقتل ويسلب بل كانت قوته للردع مرهوبة الجانب تمكن الحرية للناس فيعبدون الله وتمنع الطغاة الذين يريدون فتنة الناس عن دين الله .

* نتائج الغزوة والعودة إلى المدينة :

بعد انتصار المسلمين في تبوك بسطوا نفوذهم على جزيرة العرب فلم تبق قوة تهدد المسلمين ، وأسقط في أيدي المنافقين فاستسلموا بعد هذه الغزوة ، فقد انجلت عن انسحاب الروم وجبنهم عن ملاقات المسلمين بما ألقى في نفوسهم من رعب لا يفكرون في الكيد للاسلام وأهله .

كما نتج عن هذه الغزوة : تصفية الجيوب المعادية في شمال الجزيرة ، إما بالخضوع والدخول في الاسلام ، أو بالاعتراف بسلطة الدولة الاسلامية بالمصالحة ودفع الجزية . كما ارتفعت معنويات المسلمين تجاه الروم ونصارى العرب وأصبحوا يؤمنون بإمكان صد الروم وهزمهم .

وتحقق للدعوة الاسلامية مكسب إعلامي كبير خاصة بين نصارى العرب وألقيت في نفوسهم روح العزة بعد أن كانوا أذيانا تابعين للروم لأنهم متآخون لأرضهم .

وأثرت المطاردة بعد المعركة على معنويات العدو فانهاروا وفقدوا ثقتهم في أسلحتهم وقادتهم لحرص كل واحد منهم على النجاة من المطاردة وبذلك تكسب ثمار المعركة لصالح الاسلام .

وبعد انتهاء الغزوة ظهرت حكمة الرسول القائد ﷺ في عدوله عن الكتمان وإعلانه بوجهته إلى تبوك ، فقد كانت المصلحة تقتضي ذلك حتى يأخذ الأصحاب أهبتهم لعدوهم ، فبعد المسافة أمر صعب وقد كان في صحراء قليلة الماء والنبات فلا بد من استعداد مسبق للمؤونة والظهر وإلا أدى النقص إلى الاخفاق ، كما أن كثرة عدد الروم ومواجهتهم كقوة عظمى يتطلب استنفارا عاما واستعدادا خاصا ليصمد المسلمون أمام أسلحته وعدده وقدرته القتالية وخبرته الحربية ، كما استدعت شدة الزمان التصريح بالوجهة ليراعي الجيش ظروف النفقة له ولأهله في هذه الرحلة الشاقة والغياب الطويل ، فقد غاب الرسول القائد وجنده عن المدينة قرابة الشهرين ، إذ خرج في رجب وعاد في رمضان من السنة التاسعة للهجرة .

وقد كانت غزوة تبوك فرصة تدريب للجند على التأقلم مع الظروف الجوية الصعبة وقطع المسافات البعيدة والصبر على قلة الماء والزاد والظهر مع المحافظة على الروح المعنوية العالية والصبر الجميل الذي يعود على العمل تحت مختلف الظروف وتحمل أعباء الجهاد .

وفي طريق عودة الرسول القائد إلى المدينة مات الشهيد عبدالله المزني - ذو الیحادین - فدفنه النبي ﷺ وأنزله إلى قبره أبو بكر وعمر ، وقال عنه الرسول القائد : « اللهم اني أمسيت راضيا عنه فارض عنه » . وهذا الموقف من الرسول

القائد يمثل قمة التكريم للشهيد في الدنيا ويبرز مدى اهتمام القائد بجنده وأصحابه وتولي شؤونهم أحياء وأمواتا .

وكما قام المنافقون في طريق العودة بمحاولة يائسة لاغتيال الرسول القائد بطرحه من عقبة وهو على ناقته يقود به حذيفة ويسوقها عمار بن ياسر ، فهاجموه صلى الله عليه وسلم فردهم عمار بضرب رواحلهم ففشلوا وافتضح أمرهم . وقد كان المنافقون عند تجهز الرسول ﷺ لتبوك يجتمعون في بيت سويلم اليهودي ، فأمر النبي ﷺ بإحراقه ، ثم بنى المنافقون مسجدا وطلبوا من الرسول أن يصلي لهم فيه فوعدهم بذلك عند عودته من تبوك .

وعند اقترابه من المدينة نزل عليه الوحي ينهاء عن الصلاة فيه . قال تعالى :
لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَ الْمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ
يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ (التوبة / ١٠٨)

فأصدر الرسول القائد ﷺ أمره بهدم وكر التآمر والفساد مسجد الضرار ، الذي أسسوه بتوجيه من أبي عامر الفاسق حيث قال : «ابنوا مسجدا واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإني ذاهب إلى قيصر الروم فآتي بجند من الروم وأخرج محمدا وأصحابه» . وكان قصد المنافقين من وراء بنائه مزاحمة مسجد قباء وليكون لهم مركز قيادة وإعداد لمن يحارب الله ورسوله وللتفريق بين المؤمنين ، كما قال الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ

الْمُؤْمِنِينَ وَإِِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ

وَلِيُخَلِّفُنَا إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾

(التوبة / ١٠٧)

فسحق الرسول القائد مؤامرة المنافقين وأمر بحرق المسجد . ثم مات عبد الله بن أبي فلم يبق لأهل النفاق تجمع ولا وحدة وهكذا استطاعت القيادة النبوية إجلاء غمامة النفاق من سمائها، فتغيرت معاملة المسلمين للمنافقين بعد أن كشف الله سترهم فلا لين ولا رفيق بل حزم وشدة وعدم قبول لصدقتهم بل ولا صلاة عليهم ولا استغفار لهم أو قيام على قبورهم .

ولما دنا الرسول القائد من المدينة عند عودته من تبوك، قال صلى الله عليه وسلم: «إن في المدينة أقواما ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم». قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر».

✽ الوصول إلى المدينة وقصة الثلاثة المخلفين :

لما وصل الرسول القائد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة بدأ فصلى بالمسجد ركعتين وجلس للناس فطفق المغموزون في النفاق يعتذرون ويحلفون، فقبل الرسول منهم علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله . أما كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع فاختاروا الصدق ولم يعتذروا بل صرحوا أنهم كانوا قادرين على التجهز ولكنهم لم يخرجوا ، فقرر الرسول القائد ﷺ معاقبتهم بما يتناسب مع ما صدر منهم من إثارة للتخلف، وعالج الأمر بعقاب نفسي ينال المتخلف وحده دون أن يلحق ذويه أي عقاب، فأمر الرسول القائد أصحابه أن يقاطعوا هؤلاء الثلاثة فلا يكلموهم ولا يتعاملوا معهم ببيع أو شراء . فاستجاب المسلمون لأمر قائدهم وامتنعوا عن التعامل معهم وهجروهم وتغيروا لهم وتوقفوا عن رد السلام عليهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم . وفي الليلة الأربعين أمرهم

الرسول القائد باعتزال نسائهم حتى مضت خمسون ليلة فأنزل الله توبته عليهم ..

قال تعالى ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾
(التوبة / ١١٨)

فخرج الثلاثة واستبشروا وتصدقوا وكان ذلك أسعد يوم في حياتهم كما روى كعب بن مالك . واستطاع الرسول القائد ﷺ بعقوبة البراءة أن يطهر الدرن الذي علق بأنفس الثلاثة من الأنصار الذين يعتبر الجهاد في حقهم فرض عين لأنهم بايعوا على ذلك . .

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

ولكن العقوبة كالدواء إن أخذ منه المريض قليلا لم يكف لحصول الشفاء به ، وإن تعاطى كثيرا أهلك نفسه .

لقد جاءت توبة الله على الثلاثة بعد أن أثمر العقاب تطهيرا للأنفس فعاهدوا الله على أن يتحروا الصدق طول حياتهم وتقبلوا تهاني الرسول القائد وجنده بتوبة المولى عليهم .

قال كعب بن مالك : فلما سلمت على رسول الله قال وهو يبرق وجهه من السرور : «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك» قال قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : «لا بل من عند الله» فقلت : يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله . قال رسول الله ﷺ : «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» فقلت : يا رسول الله إنما نجاني الصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت .

الخاتمة

بعد أن استعرضنا مواقف مشرفة ومضيئة للرسول القائد ﷺ في غزواته وتبيننا مراعاته للقيم النبيلة التي كان يدعو إليها ولم يجد عنها حتى مع أعدائه وفي ساحات الحرب . .

فإن مواجهة العدو في نظر الرسول القائد وسيلة وليست غاية، فالحرب عنده ضمان لمسيرة الدعوة إلى الله ونشر العدل، إنها إنسانية لا تستهدف إراقة الدماء ولا إذلال الرقاب، ويتمثل هذا في أجلى مظهر عندما كان يرسل أمراء السرايا ويوصيهم بالالتزام التام بقيم الرحمة . . فعن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم للإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . . فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، وإن هم أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم»^(١).

ولا يغيب عن ذهننا ونحن ننوه بعبقريّة الرسول القائد وحكمته أننا أمام رسول رب العالمين الموحى إليه والمسدد من ربه، ولكنه سيد ولد آدم، وهبه مولاه ذكاء وبصيرة أهله ليكون قدوة البشرية في كل شيء.

قال تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ

حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

(الأحزاب / ٢١)

(١) رواه مسلم .

لم تكن غزوات الرسول القائد مجرد مواجهة عسكرية تتلاقى فيها السيوف وتتطاير فيها الرقاب والرؤوس ، بل كانت مجالات كشفت عن المعادن النفيسة التي اتصفت بالتجرد والاخلاص والرغبة في الشهادة وبالعزم الصادق والثبات على المبدأ والتسامح والايثار وغيرها من القيم .

إن الرسول القائد صلى الله عليه وسلم يؤثر اعتناق العدو للإسلام على قتل رجالهم وسبي نسائهم وذراريهم . قال صلى الله عليه وسلم : «تألفوا الناس وتأنوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم فما على الأرض من أهل بيت من مدر ولا وبر إلا أن تأتوني بهم مسلمين أحب إليّ من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم» .

لقد كان صلى الله عليه وسلم حريصا على حقن الدماء ، ومن يطالع سيرة الرسول القائد يجده اعتمد طريقة إثارة الدعوة بالحسنى والرفق على الحرب والمواجهة ، وقد أثمر هذا الأسلوب ففتح الرسول القائد القلوب قبل أن يفتح البلدان ، لم يتخل في أي موقعة عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدين وأعطى الأمان كل من عاهده وصالحه .

لقد كانت أبرز سمة للرسول القائد وجنده في الحرب هي الرحمة فلا يقتل من لم يبلغ الحلم ولا المرأة ولا الأعمى ولا الراهب وكل من لا يقاتل ، إنما تقع الحرب حماية للدعوة ودفعاً للعدوان ، ويلتزم كل جندي بأدابها .

لقد أسس الرسول القائد ﷺ علاقته مع أعدائه على المسالمة مادام السبيل ميسرا لنشر الدين وإبلاغ الرسالة للناس ، وعلى الحرب إذا حال الطغاة بين الناس والدعوة واستشرى الظلم .

إن سيرة الرسول القائد في معاملته لعدوه في غزواته واضحة بدأت بكف الأيدي وإقامة الصلاة والصبر على الاضطهاد فلما اشتد الظلم على أتباع

دعوته وامتنع ظهورها بغير دفع القوة بالقوة أذن له في القتال وأمر بالتزام الآداب حتى يتحقق النصر . ومع النصر لم يبطر ولم يكره الناس على الدخول في دينه بل رغب في اعتناقه ولم يجبر عليه . .
قال تعالى :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

(البقرة / ٢٥٦) .

وأرسى الرسول ﷺ قواعد الحرية الدينية للناس كافة ، فإذا كف العدو عن فتنة الأمة عن دينها وعقيدتها لم يجز القتال . .
وهذا نعم المجتمع المسلم بالأمن والاستقرار والرخاء بفضل القيادة الحكيمة للرسول صلى الله عليه وسلم .

قائمة المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - ابن القيم الجوزية . فقه السيرة ، ط ٢ دار الفكر العربي ، بيروت .
- ٣ - ابن كثير . السيرة النبوية ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ٤ - ابن المنظور . لسان العرب ، دار صادر .
- ٥ - ابن هشام . السيرة النبوية ، م ٢ ط ٢ مطبعة البابي الحلبي .
- ٦ - أحمد ماهر البقري . القيادة وفعاليتها في ضوء الاسلام ، مؤسسة سباب الجامعة ، الاسكندرية / ١٩٨١ م .
- ٧ - بشير العوف . السياسة المرحلية ، ط ٢ دار الفتح ، بيروت ٣٩٤ / ١٩٧٤ م .
- ٨ - سعيد حوى . فصول الإمرة والأمير ، دار عمّار ، الأردن ١٩٨٨ م .
- ٩ - صفى الرحمن المباركفوري . الرّحيق المختوم ، طبعة الأمانة العامة ، مكة المكرمة .
- ١٠ - عبدالله محمد الرشيد . القيادة العسكرية في عهد الرسول ، ط ١ دار القلم ، دمشق ١٩٩٠ م .
- ١١ - عماد الدين خليل . دراسة في السيرة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- ١٢ - محمد أبو زهرة . خاتم النبيّين ، مؤسسة دار الفكر .
- ١٣ - محمد أبو شهبة . السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة ، ط ٢ دارالقلم ، دمشق ١٩٩٢ م .
- ١٤ - محمد أحمد باشميل . صلح الحديبية ، دار الفكر .
- ١٥ - محمد الحسن . أزمة القيادة وعلاجها ، ط ١ دار الثقافة ، الدوحة ١٩٩٠ م .

- ١٦ - محمد خليل الخطيب. خطب الرسول ﷺ ، دار الفضيلة، القاهرة.
- ١٧ - محمد رواس قلعة جي. دراسة تحليلية لشخصية الرسول، ط ١ دار النفائس، بيروت ١٩٨٨م.
- ١٨ - محمد سعيد رمضان البوطي. فقه السيرة، ط ١ دار الفكر، دمشق ١٩٩١م.
- ١٩ - محمد عبدالقادر أبو فارس. المدرسة النبوية العسكرية، ط ١ مطبعة الحلبي، القاهرة ١٩٩٣م.
- ٢٠ - محمد عبدالقادر أبو فارس. الصراع مع اليهود، دار الفرقان، عمان ١٩٨٩م.
- ٢١ - محمد عفيفي الزعبي. مختصر سيرة ابن هشام، دار المطبوعات الحديثة، جدة ١٤٠٢هـ.
- ٢٢ - محمد الغزالي. فقه السير، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة.
- ٢٣ - محمد فرج. العبقريّة العسكرية في غزوات الرسول، دار العربي، القاهرة.
- ٢٤ - محمود شيت الخطاب. قادة النبي، ط ١ دار قتيبة، بيروت ١٩٩٠م.
- ٢٥ - محمود شيت الخطاب. الرسول القائد، دار الفكر، بيروت ١٩٧٤م.
- ٢٦ - محمود شيت الخطاب. بين العقيدة والقيادة، دار الفكر، بيروت.
- ٢٧ - محمود محمد عمارة. تأملات في السيرة النبوية، ط ١ دار الخير، بيروت ١٩٩٢م.
- ٢٨ - مصطفى السباعي. السيرة النبوية دروس وعبر، ط ٩ المكتب الاسلامي، بيروت.
- ٢٩ - منير محمد الغضبان. الجانب التربوي للسيرة النبوية، ط ١ مكتبة المنار، الأردن ١٩٩١م.
- ٣٠ - منير محمد الغضبان. فقه السيرة النبوية.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
* المقدمة	٣
* مفهوم القيادة في الاسلام	٧
* مواصفات القائد	١١
* قيادة الرسول ﷺ غير العسكرية	٢٣
— قيادته داخل الأسرة	٢٥
— القيادة في العبادة	٢٧
— القيادة في مكة قبل الهجرة	٣٠
* هجرة الرسول القائد إلى المدينة	٣٥
* استعدادات القائد للاستقرار بالمدينة	٤٣
* القيادة العسكرية في السرايا	٥٣
— أهم السرايا : غزوة مؤتة	٦٢
— جدول لأهم السرايا	٦٧
* القيادة العسكرية للرسول ﷺ في الغزوات	٨٣
— غزوة بدر الكبرى	٨٣
— غزوة أحد	١٠٥
— غزوة بني المصطلق	١٢٣
— غزوة الخندق	١٣٧
— صلح الحديبية	١٥٥
— موقف الرسول القائد من اليهود	١٩١

٢٠٤		— غزوة خيبر
٢١٥		— الفتح الأعظم
٢٢٩		— غزوة حنين
٢٤٧		— غزوة تبوك
٢٦٤		* الخاتمة
٢٦٧		* قائمة المصادر والمراجع
٢٦٩		* الفهرس

رقم الإيداع ٩٦/٩١

طبع في المطبع الذهبية - صرب ٢٨٩٦ روي ، الرمز البريدي ١١٢ ، سلطنة عمان - هاتف ٦٩٩٩٧٢